تاريخ جنوب افريقيا

تأليف

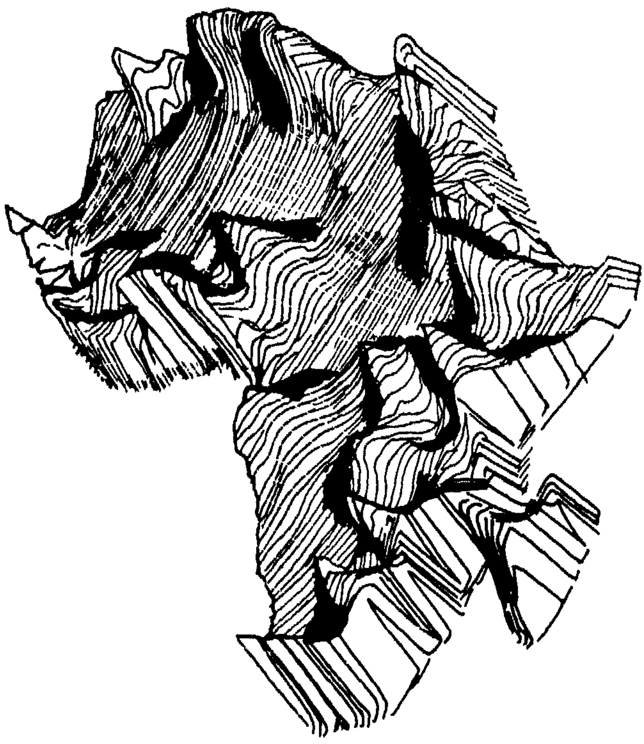
جديون س. وير

أستاذ التاريخ المشارك بجامعة نيروبي

ترجمة

الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ

قسم التاريخ . جامعة الملك سعود



دار المريخ للنشر

٢٤٦

تاريخ
جنوب أفريقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

دعاء

- حسبنا الله ونعم الوكيل.
- ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به
واعفُ عنا،
واغفر لنا،
وارحمنا ،
أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.
- ربِّ أدخلني مُدْخل صدق
وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

محتويات الكتاب

كلمة للمترجم

هذا كتاب عن تاريخ أفريقيا، لمؤلِّف من أفريقيا، وما نُقِل للعربية في مجال تاريخ أفريقيا - على قِلّته - جُلُّه بأقلام أوروبيين. ولو لم يكن إلاّ هذا سبباً، لكفاني وازعاً لترجمته، فما البالُ وقد أتْبع سبباً، فمؤلف الكتاب أستاذ للتاريخ في جامعة نيروبي، وقد عرض تاريخ منطقة لا تخلو نشرة أخبار ولا صحيفة من أنباء عنها تَتْرى. وقد عرض المؤلف تاريخ المنطقة ببساطة فائقة وبأسلوب سَلِس، وإن كان هذا لا يمنع من الاختلاف مَعَهُ في بعض ما أورد، وقد علّقت على ذلك - ولم أُكثر - في هوامش الكتاب.

ولأن المؤلف أفريقي، فهو لم يُغرِق في التقسيمات القبلية، كما يفعل الكتابُ الغربيون عندما يكتبون عن أفريقيا، وإنّما كان نزّاعاً إلى تلمّس الأصول الواحدة، ميّالاً إلى التقليل من التقسيمات المُفْتعلة.

وعلى الله قصد السبيل

عبد الرحمن

العليا، (الرياض)

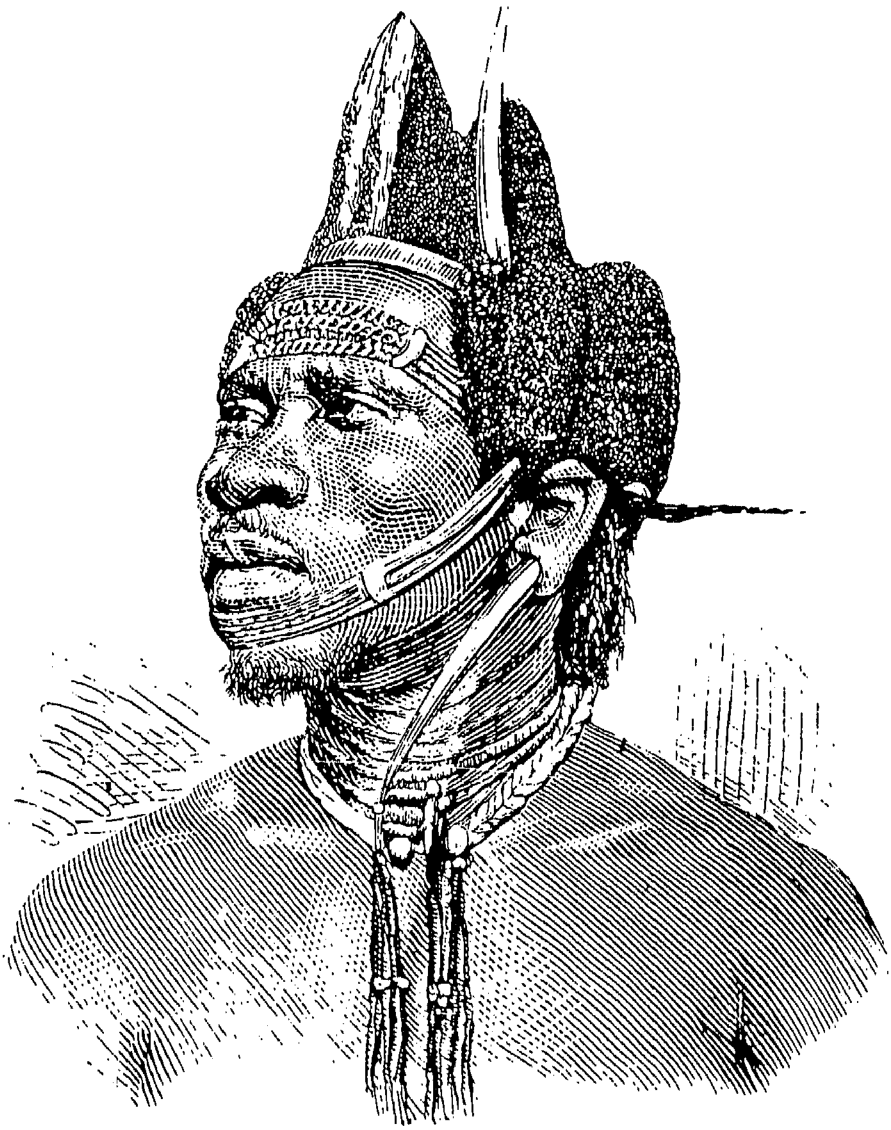
مُقـدّمَـة المـؤلّـف

يهدف هنا الكتاب إلى تعريف القارىء ـ بعرض مبسّط، ولكنه شامل ـ بتاريخ جنوب أفريقيا منذ بدايته الباكرة. فالكتب المتوفرة الآن عن تاريخ جنوب أفريقيا، لم تعد تُحقق الغرض بما فيه الكفاية، فهي إما مفصّلة معقدة، وإما غير شاملة ومُغرقة في التخصّص.

لقد نُشرت كتب كثيرة عن تاريخ جنوب أفريقيا، وغدت معلوماتنا عنه أكثر نسبياً من معلوماتنا عن المناطق الأفريقية الأخرى. ولكن معظم الكتابات المُتاحة عن جنوب أفريقيا، يعتريها بعض نقاط الضعف الأساسية، فمن ناحية نجد أنها كُتبت أساساً من وُجهة نظر الرجل الأبيض. ونظراً لسياسة التفرقة العنصرية الرسمية، فإن هذه الكتابات تقوم أساساً على فكرة تفوّق الرجل الأبيض، لذا كان غالب هذه الكتابات يجنح إلى إدانة الأفريقيين وغيرهم من غير البيض. ومن ناحية ثانية، نجد أن معظم الكتب التي تتناول تاريخ جنوب أفريقيا تذكر لنا قدراً كبيراً من المعلومات عن الأحداث منذ بدأ استيطان البيض، بينها لا تقدم لنا سوى القليل عن المجتمعات والدول الأفريقية قبل قدوم الرجل الأبيض، وفي الفترة التي زامنت قدومه. حقيقة، إنه نادراً ما يُذكر الأفريقيون في معظم أنحاء أفريقيا ـ أثناء صراعهم مع البيض، فقد كان هؤلاء الكتاب يعتبرونهم عناصر سلبية غير قادرة على إحداث تغيير أو ممارسة سياسة فعّالة، وهي الأمور التي تصنع التاريخ، وعلى هذا فهم يدرجون العناصر الأفريقية ضمن التاريخ الأوروبي في جنوب أفريقيا، ويكتبون هذا التاريخ

بعيون أوروبية ويتجاهلون دور الأفريقيين في التاريخ العام للمنطقة. وقد حاولنا تجاوز نقاط الضعف هذه في كتابنا هذا بتناولنا التطورات الحادثة في المجتمعات الأفريقية وغير البيضاء والتركيز على دورها، وقد فعلنا نفس الشيء بالنسبة للبيض ودورهم في تطوير جنوب أفريقيا، ورغم أن الحقيقة الموضوعية من الظواهر المحيِّرة في التاريخ، فإنني آمل أن يكون هذا الكتاب خطوة نحو تدارك الخَلَل في الكتابات السابقة.

جدوين. س. وير



الفصل الأول

السّكان الأوّل

تشير الدلائل الأثرية إلى أن مِنْطقة جنوب أفريقيا كانت آهلة بالبشر منذ آلاف عديدة من السنين، وعلى أية حال فمنذ فترة تتراوح ما بين نصف مليون إلى مليونين من السنين، في الأزمنة الموغِلة في القدم كان الإنسان الأول يسكن جنوب أفريقيا.

وكان هذا الإنسان القديم يسمى Australopithecines (Southern apes) وفقاً للاستنتاجات الأثارية التي نعتمد عليها في معلوماتنا. ومن الناحية الفيزيقية فإن هذا الإنسان لم يكن شبيهاً بالإنسان المعاصر تماماً فقد كان لا زال في المرحلة الحيوانية. ورغم هذا فقد كان هذا الإنسان البدائي أول مخلوق مُنْتَصب القامة يمشي على قدمين. لقد كان هؤلاء البشر الأُوَل يختلفون كثيراً عن الحيوانات بل لقد سيطروا عليها، كما أنه من المعروف أنهم - أي البشر الأُول - كانوا هم المخلوقات الأولى التي استخدمت الأدوات الحقيقية، ولكن على عكس الإنسان المعاصر، فإنهم استخدموا أدواتهم من العظام لا من المعادن، فلم تكن المعادن وقتها معروفة. وإنّه ليقال أيضاً أن هؤلاء البشر الأُوَل قد صنعوا واستخدموا الأدوات الحجرية.

ويُظَن أن هؤلاء الـ Australopithecines كان لهم أمخاخ صغيرة الحجم، وأفكاك سُفلية ضخمة وضروس كبيرة وجباه ضَيِّقة[1].

---

(١) نص التعبير noforehead ووجد المعرِّب أن من المحال أن تنعدم الـجَبْهة تماماً. (المعرِّب).

وكلما تطور الإنسان ارتقت ثقافته وأدواته التي يستخدمها في القطع والدفاع والصيد، وحتى في استخراج الجذور التي تناولها طعاماً. وأصبحت أدواته أكثر كفاية شيئاً فشيئاً. وخلال العصر الحجري المتأخر ـ حيث كانت الأدوات الحجرية واسعة الانتشار ـ أدَّت تغييرات طويلة ومعقدة إلى ظهور مجموعة بشرية شبيهة البُشمن Buchmen الذين نعـرفهم الآن في صحراء كلاهاري. لكن الشبه بينهم وبين البشمن الحاليين لم يكن متطابقاً تماماً إذ أنهم كانوا يعيشون على القنص والجمع والالتقاط وصيد الأسماك. والواقع أن هذه المعارف التي ذكرناها ما هي إلا معارف جمعها علماء الآثار وفسّروها من خلال البقايا الحيوانية والبشرية لهذه العصور ومن خلال الأدوات التي استخدمها هؤلاء البشر الأُول ومن أعقبوه من ذرية.

البشمن : Bushmen(*)

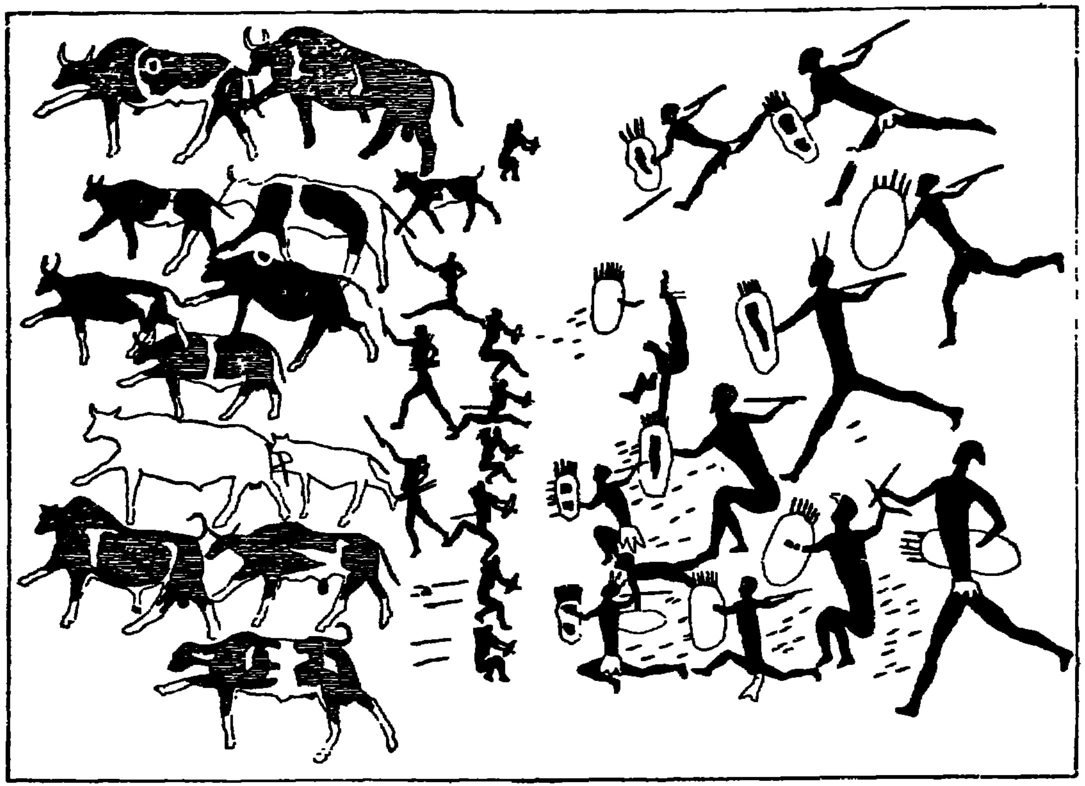
ويُظن أن البشمن كمجموعة بشرية معاصرة هم أقدم سكان المنطقة (جنوب أفريقيا) ويُعرف البشمن في جنوب أفريقيا بأسماء متعددة، فالأوروبيون يسمونهم البشمن، والأكزوسا يسمونهم توا Twa والسوثو Sotho يسمونهم روا Roa والهوتنتوت يسمونهم سان San or Saan.

ومهما يكن من أمر فإن الاسم الأكثر شيوعاً هو البشمن وهو الأسم الذي اطلقه عليهم للمرة الأولى جماعات البوير Boers الذين أطلقوا عليهم اسم Bosjesmannes وتعنى رجال الأحراش (Men of the bush).

والدليل على أن البشمن كمجموعة عرقية معاصرة هم أول من قطن جنوب أفريقيا ـ يُمكن استِقَاؤُه على نحو ما من البقايا العديدة لأدواتهم الحجرية ورسومهم على الصخور وتماثيلهم. وهذه البقايا من أدوات ورسوم ومنحوتات ـ قريبة الشبه، كما أن الشخوص لهم نفس الملامح إذا ما قارناها بثقافة البشمن

(*) تكتب أيضاً (بوشمان) و (بشمان). المترجم

رسوم على الصخور تبين البوشمن يسرقون الماشية من البانتو



الحالية. ولقد وجد الباحثون هذه البقايا في كل منطقة جنوب أفريقيا. فعلى سبيل المثال وجدت في دمارالاند Damaraland وباتلابين Batlapin وغرب مرتفعات جـريكالانـد Griqualand وفي دولة الأورانـج الحرّة والتـرنسفال وترانسكاي Transskei. والجدير بالملاحظة أنه في أواخر القرن التاسع عشر كان البُشْمن لا يزالون يشغلون أجزاء كثيرة من جنوب أفريقيا شاملة تقسيمات Samerest و Cradock. أما الآن (١٩٨٠) فلا يزالون يعيشون في المناطق الجافة في بتسوانا وفي جنوب غرب أفريقيا وحتى في انجولا ويبلغون حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة.

والبشمن قصـار القامـة، وجلودهم صفراء أو بُنّيـة. وتتميـز لغتهم باستخدام الطقْات Clicks. وهم عموماً كُرماء ومسالمون بالرغم من كراهيتهم لأي تدخل من الغرباء في خصوصياتهم أو اعتدائهم على أراضي الصيد الخاصة بهم. فهم قنّاصون من الطراز الأول. وهُم يهاجمون أي دخيل بسهامهم السامة وأحياناً يبدأون بغارات مفاجئة على ما يمتلكه أعداؤهم من قطعان ماشية. وعلى هذا فالبشمن قوم مسالمون وودودون طالما تُركوا في حالهم. وعلى آية حال فإن هذا ينطبق على كل التجمعات البشرية في العالم. فليس ثمة مجتمع يحب غرباء غير مأمونين بين جُنُباته إذ من المحتمل أن يكونوا أعداء ذوي عداوة كامنة.

ورغم أن البشمن لا يمتلكون إلا الأدوات البسيطة إلا أن البشمن الأُول لم يجدوا في تحصيل طعامهم نصباً كبيراً طالما كانوا سادة أرضهم الغنية بما يمكن اقتناصه. لقد كانوا يعيشون على الحيوانات البرية وجذور النباتات والفاكهة وأيضـاً على الجراد Locusts، والعسل البـري والنمل الأبيض واليـرقـات Caterpillars. وكانوا بالأضافة لغذائهم الغني هذا يصطادون الأسماك من النهيرات العديدة كأنهار الكاي Kei والفال Vaal والتسومو Tsomo والمزمقوبو Mzimvubu وتوجيلا Tugela. إن طريقة حياة البشمن تبين لنا لماذا وَسَمْناهم بأنهم قنّاصون جمّاعون Hunters gatherers. فالقوم لا يستزرعون نباتاً ولا يستأنسون حيواناً ولا يحتفظون بماشية أو دابة، خلا الكلب إذ يستخدمونه في

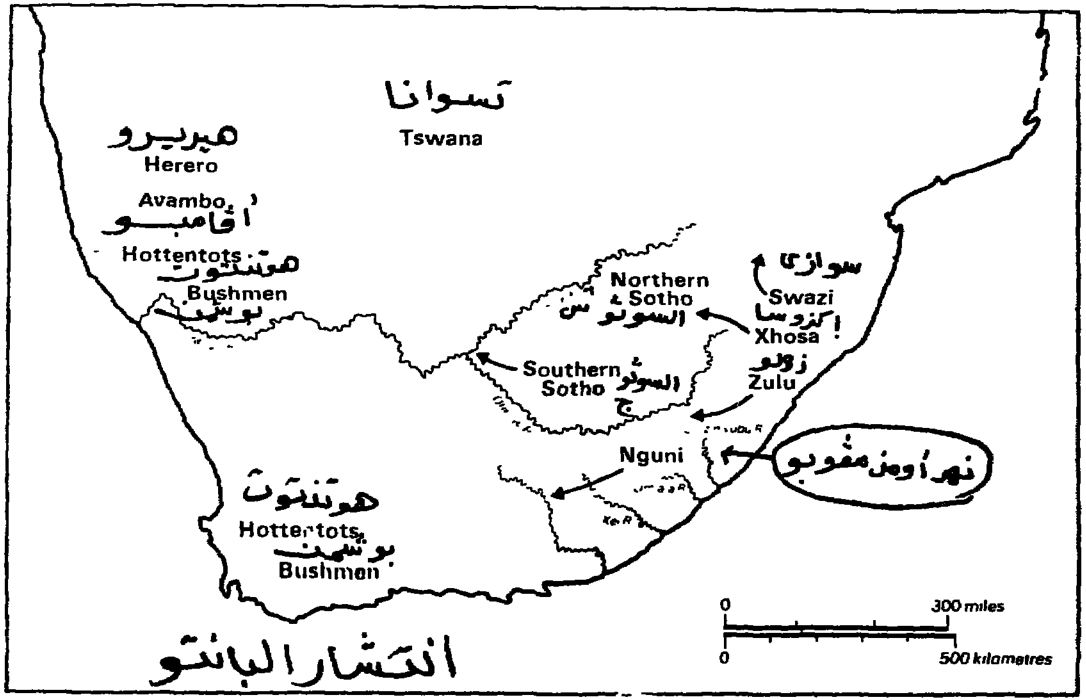
الصيد، وفي الصيد كما في الحرب يستخدم القوم أقواساً وسهاماً مسمومة. تلك كانت حياة البُشْمن ولا زالت.

إنه نمط من الحياة لا يُشَجِّع على إحداث تنظيمات اجتماعية وسياسية على درجة كبيرة من التقدم. فطالما في الأرض سَعة ووفرة، وطالما يعيش البشمن على القنص منها صيداً، والجمع من فاكهتها المتساقطة واقتلاع جذور نباتاتها فإن كل هذا يؤدي إلى نوع من الحياة البدوية Nomadic Life . ولقد عاش البشمن في مجتمعات منعزلة بعضها عن البعض الآخر، فكان كل تجمع بشري يشكل عملياً وحدة مستقلة.. ومن الطبيعي أن تكون كل قرية من قرى البشمن، وكل مُسْتقر أو تجمع بشري قليل السكان. إذ كان كل تجمع يتراوح بين ٢٥ و٧٠. أما القرى الكبيرة فيتراوح سكانها بين ٢٠٠ و٥٠٠ لكل قرية. لكن هذه القرى الكبيرة لا تكاد توجد إلا نادراً. وبينما يعيش البشمن في قرى صغيرة أو كبيرة فإنهم كانوا ينامون في كهوف أو ملاجىء مؤقتة، وبيوتهم مزيّنة دائماً برسوم الحوائط الجميلة. ورسوم البشمن مُشْتقاة من خبراتهم البشرية عامة، ومن خبراتهم في مجال الصيد خاصة.

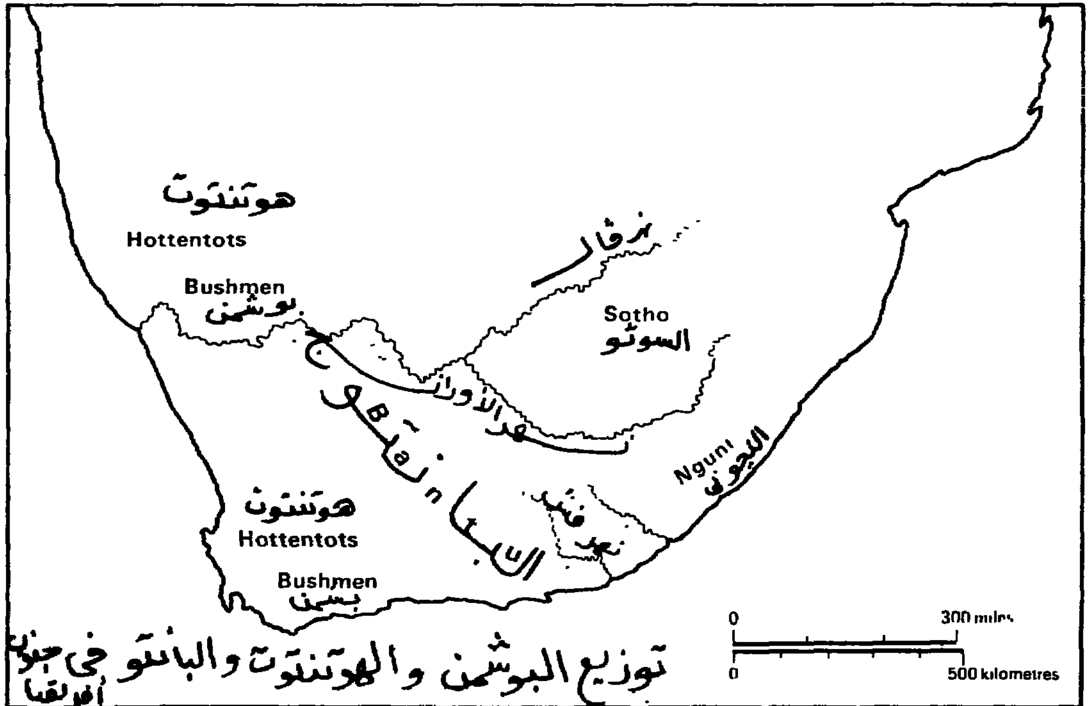
الهوتنتوت The Hottentots :

وثَمّة جماعة عِرْقية أُخرى ذات صلة عِرْقية بالبشمن ونعني بهم جماعات الهوتنتوت. إنهم أطول من البشمن، وإن كانوا مثلهم صُفر الجلود ولغاتهم زاخرة بالطقّات Clicks. وهم يسمّون أنفسهم الخوي خوان Khoikhoin ومعناها أسياد الرجال (أو رجال من أصلاب رجال) Men of men ويشير اليهم بعض الباحثين باسم الخوي خوي Khoi Khoi بحذف اللاحقة Suffix. أما الأوروبيون فيسمونهم الهوتنتوت ويطلقون على لغتهم أيضاً الهوتنتوت. وقد أضْحى هذا الاسم أكثر انتشاراً للدلالة عليهم وعلى لغتهم.

وعندما وصل البرتغاليون إلى جنوب أفريقيا سنة ١٤٨٧ وجدوا الهوتنتوت يعيشون في منطقة خليج صالدانا Saldanha Bay ومنطقة خليج تيبل Table Bay ومنطقة خليج موسل Mossel Bay.



تسوانا
Tswana
هيريرو
Herero
Avambo
أفامبو
Hottentots
هوتنتوت
Bushmen
بوشمن
Northern & Sotho
السوتو ش
Southern Sotho
السوتو ج
سوازي
Swazi
إكزوسا
Xhosa
زولو
Zulu
Nguni
نهر أومزمفوبو
هوتنتوت
Hottentots
بوشمن
Bushmen
0 300 miles
0 500 kilometres
انتشار البانتو



توزيع البوشمن والهوتنتوت والبانتو في جنوب أفريقيا

وفي حوالي منتصف القرن السابع عشر كانوا يعيشون حول منطقة الرأس (الكاب Cape) وعلى طوال شاطىء نهر الأورانج، وعلى الساحل في ناتال وفي كثير من مناطق جنوب غرب أفريقيا(*).

ويبدو أن الهوتنتوت ـ مثلهم مثل شبهائهم البشمن قد توطنوا في شرق وجنوب أفريقيا. ففي حوالي القرن العاشر للميلاد كان البشمن يعيشون على ساحل ما يعرف الآن بتنزانيا ويبدو أن الهوتنتوت كانوا هناك أيضاً في نفس الوقت تقريباً.

ويحتفظ الهوتنتوت بقطعان كبيرة من الماشية وبأعداد من الخراف وكلاهما ـ الماشية والخراف ـ يشكلان عصب اقتصاد الهوتنتوت. وبعض فروع الهوتنتوت ويسمون الناما Nama يقتنون الماعز بالاضافة للماشية والخراف. ولأن الهوتنتوت رعاة ماشية فهم ينتقلون بقطعانهم بحثاً عن المرعى الندي والمياه. وهذا الانتقال ضروري نظراً لأن أعداد الماشية والأغنام تتكاثر أكثر من تكاثر البشر أنفسهم. والانتقال هذا ضروري طالما تم استهلاك المرعى الحالي فيتعين عندئذ البحث عن مرعى جديد. ورغم أن الهوتنتوت يمتلكون أعداداً كبيرة من الماشية إلا أنهم نادراً ما يذبحونها Killed بغية إطعام أنفسهم إلا في المناسبات الهامة كالأعياد والاحتفالات. ويعتبر اللبن هو طعامهم الأساسي فالرجال يشربون حليب الأبقار، والنساء والولدان يشربون حليب النعاج.

والهوتنتوت ـ مثلهم مثل البُشمن ـ يقتاتون أيضاً بالعسل والفاكهة والجذور والأسماك.

كما أن قيامهم باصطياد الحيوانات المفترسة بسهامهم السامة يُثْري وجباتهم باللحوم. وعلى هذا فهم كالبشمن، صيَّادون جمَّاعون. وهم لا يَسْتنبتون نباتاً كما فعل البانتو بعد ذلك. ومن الأمور الفارقة بينهم وبين البشمن انهم يحتفظون بالماشية والأغنام ويحتفظون بالماعز أيضاً ولكن بدرجة أقل.

(*) الآن ناميبيا. (المترجم).

ولدى الهوتنتوت مؤسسات وتنظيمات اجتماعية وسياسية أضخم وأكثر كفاءة مما لدى البشمن فهم يعيشون في تجمعات أو معسكرات كبيرة، ويتكون كل تجمع أو معسكر من مجموعة عشائر مختلفة تربطها صلة القربى. وعلى هذا فكل معسكر بمثابة قرية كبيرة. وبصرف النظر عن أفراد العشائر ذات القربى فإن المعسكر يضم كل قطعان الماشية التي تخص ساكنيه. والتزاوج بين أفراد العشيرة الواحدة محرّم عند الهوتنتوت. وكل معسكر أو قرية يشكل وحدة سياسية مستقلة وان كان في مقدورها أن تعقد المحالفات والمصاهرات مع القرى أو المعسكرات القريبة بُغْية تحقيق السلام، أو لخدمة أغراض حرب أو غارة أو تجارة. وكل تجمع أو قرية له حق تخيّر أصدقائه وأعدائه بنفس الطريقة التي نعرفها في الدول المعاصرة. ولكل معسكر أو قرية رئيسةُ Chief الذي يحكم بمساعدة رؤساء العشائر القاطنين في زمام المعسكر أو القرية. والمنازعات الناشبة في المعسكر أو القرية يُمكن تقسيمها إلى قسمين: منازعات بين أفرادالعشيرة الواحدة وتلك غالباً ما يتصدى لها زعيم السن Leading elder في العشيرة حيث تجرى اجراءات المحاكمة بشكل علني، ويمكن لجميع افراد القرية أو المعسكر أن يكونوا عليها شهوداً. أما الخلافات بين أفراد عشائر مختلفة فتلك يتصدى لها رئيس القرية أو المعسكر الذي يكون من سلطته أن يودي بحياة الشخص المحكوم بخطئه. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الرئيس يستعين في سائر أعماله برؤساء العشائر فلا يمكن إذن أن نَصِف سلطة الرئيس Chief بأنها مطلقة. ومن حق أقارب الرجل المقتول أن يأخذوا بثأره من قاتليه وليس من حق الزعيم Chief أو رؤساء السن Elders إجبارهم على قبول الدية أو يفرضوا عليهم أي تسوية كانت. تلك هي القيود المفروضة على سلطة زعيم القرية.

ورغم هذا فإن لدى الهوتنتوت تنظيماً سياسياً أعلى مستوى مما لدى البشمن، إذ يقع على عاتق زعماء الهوتنتوت مسؤوليات عديدة وواضحة، وليس الأمر كذلك لدى البشمن.

كما رأينا فإن البُشْمن والهوتنتوت ذوو أعراق متقاربة. لقد سكن البُشْمن

جنوب أفريقيا ثم أعقبهم الهوتنتوت. أما لماذا انفصلا؟ أو لماذا اتخذ الهوتنتوت طريقاً مستقلاً مختلفاً لتطوير أنفسهم؟ فإن ذلك قد يكون ببساطة نتيجة تأثير البيئة، وربما قد انعزل كلاهما (البُشْمن والهوتنتوت) بعضهما عن البعض الآخر لفترة زمنية استطاع فيها الهوتنتوت تطوير ثقافتهم المستقلة. ومن المحتمل أيضاً أن الهوتنتوت قد تحولوا إلى رعاة بعد حصولهم على الماشية من المهاجرين البانتو الأُوَل أثناء تقدمهم. مهما كان الأمر فإن النظرية القديمة التي كانت ترى أن البشمن يمثلون جنساً مختلفاً عن الزنوج وأن الهوتنتوت هم ناتج زواج بين البشمن والجماعات أو الشعوب الناطقة بالكوشية Cushitic — Speaking people) والتي ضلت طريقها للمنطقة، اضحت نظرية غير صحيحة.

البانتو Bantu :

كان من سوء حظ البُشمن والهوتنتوت أن الزمن لم يكن في صالحهم. لقد كان تكوينهم ودرجة تنظيمهم وطبيعة استقرارهم وأدواتهم البسيطة لا يمكن أن تجعلهم يستمرون في البقاء إلاّ في حالة غياب أعداء أقوياء لا يكونون أفضل من البشمن والهوتنتوت تنظيماً وسلاحاً وبناءً. لقد كان عليهما (البُشمن والهوتنتوت) ألا يأملا الاستمرار في السيطرة على منطقتهم في مواجهة غزاة مُتفوِّقين. لقد وصل هذا الجنس الأطول والأقوى بنية. إنهم البانتو. والبانتو يحتفظون بالماشية كالهوتنتوت لكنهم يختلفون عنهم وعن البشمن في أنهم زرّاع يستنبتون النبات بكميات كبيرة لاستخدامه في الغذاء. ولقد اشتهروا بذلك، لقد كان اقتصاد البانتو متقدماً يجمع ما بين الزراعة والرعي كما أن مستواهم المعيشي كان أعلى بقدر كبير من اقتصاد أسلافهم. لكن كيف حقق البانتو كل هذا؟ لقد امتلكوا ما كان ينقص أسلافهم إذ عرفوا وجلبوا معهم أشغال الحديد. ونتيجة لهذا كانوا قادرين على صناعة واستخدام الأدوات الحديدية التي كانت أكثر كفاءة من الأدوات الحجرية والمصنوعة من العظام التي كان يستخدمها أسلافهم وجيرانهم. وبأدواتهم ذات الكفاءة هذه استطاع البانتو تَطْهير الغابات والأحراش وزراعة الأرض بمساحات كبيرة، كما كانت أسلحتهم الحديدية

كالسهام الحديدية مثلاً، ذات بأس شديد إذا قيست بأسلحة خصومهم الضعفاء. كما كانت أعدادهم المتزايدة قادرة على البقاء اعتماداً على ما يزرعونه وعلى منتجات الماشية.

وثمة سبب آخر لنجاح البانتو ـ هؤلاء القادمون الجدد ـ يتمثل في نوع الاقتصاد الذي كانوا يمارسونه، فقد كانوا يحتفظون بأعداد كبيرة من قطعان الماشية حيث كانت الماشية هي مقياس الثراء فالذين يملكون قطعاناً من الماشية أكثر يحققون وضعية اجتماعية أرقى. ولأنهم أثرياء فأنهم لذلك يهيمنون. وكانت الماشية تستخدم في وظائف وأغراض متعددة، فهي مصدر الثروة بما تجلبه الثروة من فخار. وهي مصدر الحليب واللحوم والجلود. لقد تزايدت أعداد البانتو نتيجة اعتمادهم على الزراعة والرعي وأدّى هذا إلى توسعهم خارج مناطقهم.

ولا نعرف بالضبط، ما هو التاريخ الذي وصل فيه البانتو من الشمال والشمال الشرقي، وإن كان هناك شبه اتفاق بين الباحثين على أن هذا حدث منذ ألف سنة. وعلى أية حال ففي القرن العاشر للميلاد كان البانتو يشغلون بالفعل جانباً من جنوب أفريقيا. وبدلاً من أن يأتوا جميعاً في مجموعة واحدة فأنهم كمهاجرين قدموا في مجموعات مختلفة، وفي أزمنة مختلفة، واستقروا في أماكن متباينة، وانتشروا تدريجاً. وخلال القرن السادس عشر ويقيناً في منتصف القرن السابع عشر كانوا بالفعل مستقرين في الناتال وأجزاء من مديرية الكاب وكان هذا نتيجة قرون عدة من الهجرة والاستقرار والتوسع.

ولقد كان لقدوم البانتو ثم الأوروبيين أخيراً لمنطقة جنوب أفريقيا تأثيرات مدمرة على كل من البشمن والهوتنتوت. فالبشمن خاصة عانوا من مصائب وكوارث متلاحقة؛ فقد هُزموا وفقدوا أراضيهم التي كانت عِماد حياتهم المُعْتمدة على الصيد والجمع والالتقاط، أمام مهاجميهم الجدد المسلحين بأسلحة قوية واضطر البُشمن أمام هذه الهزائم المتلاحقة إلى الهروب والانزواء في مناطق غير ملائمة، حيث فُرص الصيد أقل وحيث الطعام نادر والحياة شاقة. لقد اضطر عدد كبير منهم للانسحاب إلى صحراء كالاهاري طلباً للملجأ والحماية،

وبعضهم ذابوا في مجتمعات البانتو وعاشوا بينهم وفقدوا شخصيتهم المستقلة وتزاوجوا معهم. وهناك من قُتِل أثناء الصدامات مع البانتو أو مات نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية.

وبمرور الوقت ظهر بين البانتو في جنوب أفريقيا ثلاثة أقسام كبرى بمثابة مجموعات لغوية ـ وما سنذكره الآن يعد تقسيمات لغوية وليس تقسيمات سياسية:

١ ـ النجوني **Nguni** :

أول هذه الأقسام، هي الجماعة الناطقة بلغة نجوني Nguni Speaking people وهذه المجموعة كانت تعيش في السابق في منطقة الساحل الشرقي لجنوب أفريقيا التي تمتد من الزولولاند Zululand وناتال إلى حدود مستعمرة الرأس Cape Colony.

أما هذه الأيام(١٩٧٥): فانهم يشغلون أجزاء من الترنسفال والناتال والرأس وبلاد الزولو Zululand. وتتكون هذه المجموعة عند آخرين من الزولو والنديبيلي Ndebele والسوازي Swazi والاكزوسا Xhosa، فكل اولئك يتحدثون لهجات لنفس اللغة.

ولا نعرف يقيناً متى وصل هؤلاء إلى منطقتهم، فالذي يبدو واضحاً أن فرعاً متقدماً منهم وهو الاكزوسا Xhosa قد وصلوا إلى أعالي نهر أوزيمقوبو Umzimvubu في حوالي سنة ١٣٠٠. وبحلول سنة ١٥٩٣ انتشروا جنوباً حتى نهر أومتاتا Umtata River. وفي خلال المائتي سنة التي تلت ذلك انتشروا حتى وصلوا إلى نهر السمك Fish River(*).

٢ ـ التسوانا والسوثو **Tswana and Sotho** :

أما المجموعة الثانية من مجموعات بانتو جنوب أفريقيا فتتكون من شُعب

(*) نشير له غالباً باسم نهرفش في هذه الترجمة. (المترجم).

ثلاث هي التسوانا Tswana والبتشوانا الذين يعيش أغلبهم في بوتسوانا Bechwana (سابقاً بتشوانالاند Bechuanaland)، والسوثو الجنوبيين الذين يعيشون في ليسوثو Lesotho (أو باسوتولاند سابقاً)، والسوثو الشماليين في وسط وشمال الترنسفال وكان وطنهم هذا فيما سبق يشغله الفندا Venda واللمبا Lemba اللذان كانا يشكلان فروعاً صغيرة للكالانجا Kalanga في روديسيا Rhodesia. والجزء الشمالي من أوطان هذه المجموعة يشغله النجوني خاصة في شمال بلاد الزولو وسوازيلاند (بلاد السوازي) Swaziland.

ولقد وصلت هذه المجموعة إلى المنطقة التي تشغلها منذ قرون عديدة، خاصة في القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر، إذ كانوا في هذه الفترة قد وصلوا إلى بتشوانا لاندBechuanaland. وقد كان يبدو أنهم قد قدموا مهاجرين في ثلاث موجات رئيسية مستقلة كل منها عن الأخرى. ومع بداية القرن السابع عشر، على سبيل المثال، كان أسلاف التسوانا يعيشون بالقرب من مستقراتهم الحالية. وأخيراً فإن السوثو قد انتشروا إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب ووصلوا في انتشارهم إلى نهر الاورانج بل وانتشروا غرباً. وقد عاق الانتشار غرباً صحراء كلاهاري. وقد كانت إحدى المجموعـات الصغيرة وتسمى التوانا Tawana من القوة والشجاعة بحيث استطاعت أن تستقر على شواطىء بحيرة نجامي Lake Ngami.

٣ ـ البانتو الجنوبيون الغربيون :

أما المجموعة الثالثة الضخمة من مجموعات بانتو جنوب أفريقيا فتتمثل في الهيريرو Herero والأقامبو Avambo ويعيشون في جنوب غرب أفريقيا ويسمون باسم شامل هو البانتو الجنوبيون الغربيون أو بانتو الجنوب الغربي. ومن الناحية العملية فإن بانتو هذه المجموعة قد تأثروا بالبُشْمن والهوتنتوت حيث كان بينهما ـ أي البانتو من ناحية والبشمن والهوتنتوت من ناحية أخرى ـ اتصالات. وهذا يفسر لنا وجود الطقّات في لغات النجوتي Nguni إنها تأثيرات من لغات البشمن والهوتنتوت.

النظام السياسي :

كان التنظيم السياسي والعسكري للبانتو هو السبب الفَرْد الكبير الكامن وراء انتصارات البانتو على البشمن والهوتنتوت، فقد كانت تنظيمات البانتو إذا قورنت بتنظيمات البشمن والهوتنتوت بالغة الكفاءة. ولتفهُّم طبيعية ووظائف هذا التنظيم دعنا ننظر عبر تنظيمات النجوني والسوثو وكلاهما من فروع البانتو.

كانت القبيلة هي الوحدة السياسية الكبرى بين السوثو والنجوني قبل أن تَحْدث التغييرات ذات الطابع الثوري والتي شملت التنظيمات السياسية والعسكرية في أوائل القرن التاسع عشر.

لقد كانت القبيلة تتكون من عدة آلاف، فقد كانت أكبر جداً من الوحدات السياسية التي عرفها البشمن والهوتنتوت. فقد كان لكل قبيلة حدودها (أراضيها) وعشيرتها المركزية Central Clan وأُسْرة محورية Central Family وزعيم. ودائماً ما يكون الزعيم من الأسرة المِحْورية التي تَنْتمي للعشيرة المِحْورية. وكل قبيلة تتكون من الأعضاء الجُدد الذين يمكن استيعابهم على نحو ما بعد مدة وجيزة، والأعضاء الأصليون Original الذين يشكلون جانباً من العشيرة المركزية (المحورية) أما الأسرات غير الملكية فتبنى مجدها بربط أفرادها بتراث وممارسات العشيرة الحاكمة، مما يؤدي إلى تقوية الوحدة القبلية. وعند النجوني، تتخذ كل قبيلة اسمها من اسم أحد حكامها المشهورين، أما بين جماعات السوثو فالقبيلة تسمى باسم العشيرة الحاكمة Ruling Clan.

وفي كلا المجموعتين، يتمتع الزعيم بسلطة كبيرة، ولكن الزعيم الاوتوقراطي وغير المحبوب لا يستطيع أن يستمر طويلاً فغالباً ما ينبذه رعاياه ليُلْحِقوا بالزعامة من هو أكثر تودداً إليهم.

ويتعين على الحاكم أن يحكم وفقاً للعادات المحلية وأن يتقبل شعائرها وأن يتقبل نصائح قادة السن Leading Elders ويساعد الحاكم أو الزعيم مجلسان: مجلس داخلي والمجلس الكبير أو الجمعية الكبرى. أما المجلس

الداخلي Inner Council فيتكون من مستشاري الزعيم من أهل الثقة الذين يقدمون له المشورة يومياً في مختلف الأمور والمشكلات.

أما المجلس العام فيسميه السوثو باسم البتسو Pitso ويتكون من كل الرؤساء الفرعيين Junior Chiefs، ويُعْقد هذا المجلس لاتخاذ القرارات السياسية الهامة أو عندما تكون هناك قضية أو مسألة تهم الجميع. واذا عقد هذا المجلس حق لكل ذكر بالغ أن يبدي ما يتراءى له دون أن يكون للزعيم حق توجيه النقد له. أما بين النجوني Nguni فإن البتسو Pitso لا يعقد إلا مرة واحدة في السنة خلال حفلات الابتهاج بإثمار الفاكهة. وغالباً ما يعين الزعيم أقاربه الأقربين في المناصب الهامة وفي المجلس.

ويحظى زعيم القبيلة (أو رئيسها) بتقدير بالغ كرمز للوحدة القبلية وهو الجهة التي يولي كل أفراد القبيلة وجوههم شَطْرها ويتحلّقون حولها The focus of loyalty in the tribe كما أنه يترأس القبيلة في كل الأمور المتعلقة بالدين وتحقيق العدالة وإنْفاذ الأحكام واصدار الأوامر وشن الحروب دفاعاً أو هجوماً.

وفي وسع المتهمين بجرائم أن يستأنفوا الأحكام التي تصدرها المحاكم الصغرى أمام محكمة الزعيم، وفي هذه الحالة فإن محكمة الزعيم تمثل المحكمة العليا Supreme Court وهي المحكمة الوحيدة التي لها حق النظرِ في قضايا القتل العمد Murder Cases. وفي حالة الموت الطبيعي فأنه يتعين على أهل المتوفي أن يقدموا بقرة للزعيم مظهرين قوة الزعيم والتقدير الفائق له.

ولتمكين الزعيم من إداء عمله على الوجه الأكمل قُسِّمت منطقة الزعيم إلى مديريات وقسمت المديريات بدورها إلى مراكز Provinces and Districts وكل منها يحكمه مباشرة نائب الزعيم Sub — Chief، وقد دُعِّم جهاز الادارة بتعيين مستشارين Indunas وهم من موظفي الدولة في مختلف المجالات العسكرية والمدنية وهم مساعدون دائمون للزعيم في أداء مهامه. وأهم مستشار (Induna) من هؤلاء المستشارين هو الذي يحل محل الزعيم إذا غاب، ويمكنه

أن يصدر كل التعليمات باسم الزعيم وهو المسؤول عن احاطة الـزعيم باتجاهات الرأي العام واحاطته بأي تطورات خطيرة كالاضطرابات أو الثورات، فلا عجب إذن إن كان هذا الاندونا Induna هو عين الزعيم وأذنه.

ونظراً لخطورة هذا المنصب فإنه يتم اختيار شاغله من الأسر التي لا ترنو إلى الحكم.

وهذا النوع من التنظيمات والمؤسسات السياسية عند السوثو Sotho والنجوني Nguni يجري تدعيمه واضفاء الهيبة عليه باقامة المراسم Ceremonies التي تشمل إجراءات لتطهير الروح Cricumcisim تعقبها فترة من العزلة أو التأمل. وهو طقس (شعيره) ضرورية، وخـلال هذه الفتـرة تقدم دروس للمبتدئين في مسؤولياتهم وواجباتهم. وهذه المراسم تدل على نهاية مرحلة وبداية أخرى فهي تعني أن هؤلاء المبتدئين (الشبيبة) قد تركوا مرحلة الطفولة ودخلوا مرحلة الرجولة. وعند السوثو تعتبر هذه المراسم أيضاً ذات دلالة سياسية فهي تتم تحت سلطة الزعيم وهو الذي يقرر متى يبدأ الشبيبة في أخذ أماكنهم. والحقيقة التي مؤداها أن كل الأعضاء الذين تضمهم جماعة واحدة من جماعات المبتدئين (الشبيبة) يشكلون دفعة واحدة أو ينضمون لفئة عمر واحدة Age — regiment. هذه الحقيقة ذات دلالة عظيمة إذ أنهم ـ أي أفراد الدفعة الواحدة كانوا يرتبطون بأمير من أمراء البيت المالك ينتمي إلى نفس فئة عمرهم (أو هو من دفعتهم). وفي أثناء الحرب فإن الأعضاء من فئة العمر الواحدة يحاربون معاً كمجموعة واحدة تحت قيادة أميرهم الملكي الذي ينتمي لدفعتهم أو فئة عمرهم.

ومهما يكن ففي معظم الأوقات كان أفراد الدفعة الواحدة يتناثرون ويعيشون ويعملون بين الناس وفي مختلف أرجاء الدولة.

وفي بعض مناطق السوثو وجدت حفلات مراسم لدفعات النساء (فئات العمر) وكانت كل دفعة تقودها إحدى بنات الزعيم التي تنتمي لنفس فئة العمر Age — regiments. ومن خلال هذا النظام نستطيع أن نستنتج مدى قوة

التنظيمات السياسية والعسكرية وارتباطها بعضها بالبعض الآخر، ورغم عدم وجود جيش دائم محترف بين السوثو والنجوني Nguni إلاَّ أنهم كانوا دائماً قادرين على مهاجمة العدو أو الدفاع عن أنفسهم بطريقة أفضل مما كان يفعله جيرانهم الضعفاء: البشمن والهوتنتوت.

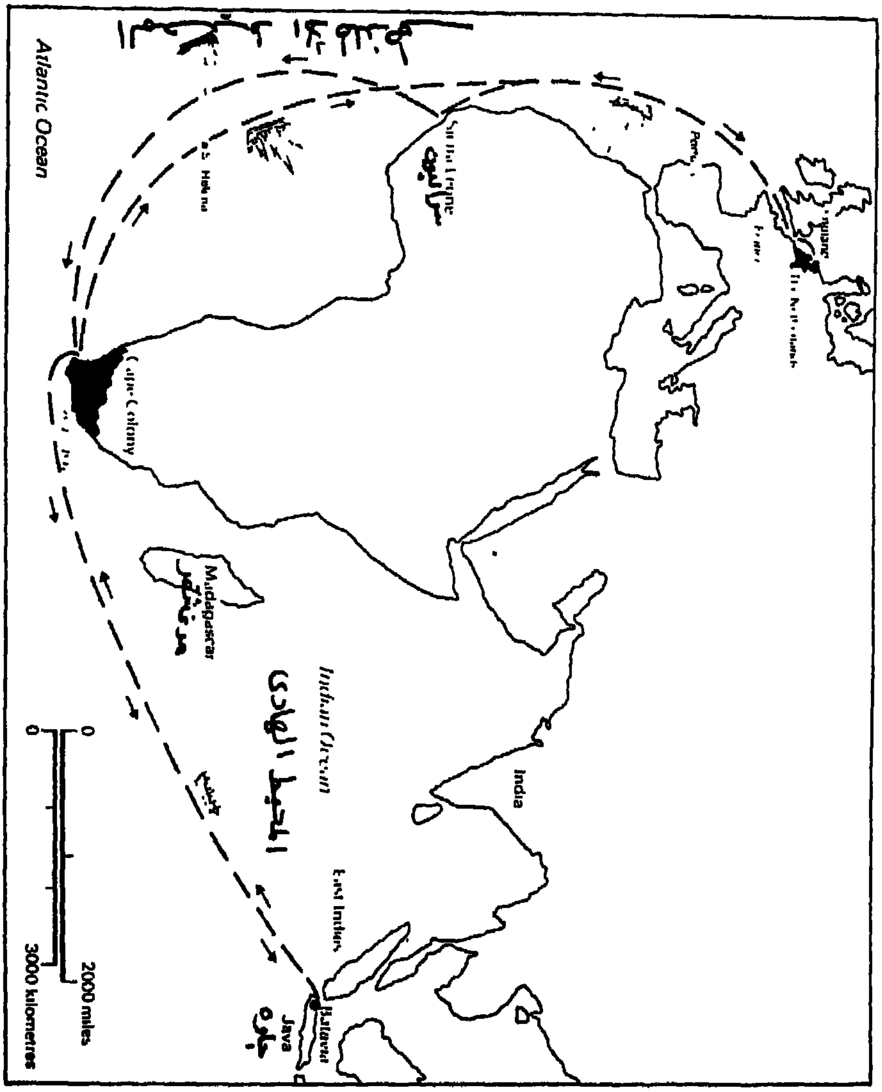
الفصل الثاني

الاسْتعمار الهولندي

عندما وصل الهولنديون للمّرة الأولى إلى جنوب أفريقيا خلال القرن السابع عشر، لم يكن في نيتهم إنشاء مستعمرة بيضاء على نسق المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية. غير أن تطوّر الجماعات الهولندية في الكاب كمجتمعات استعمارية مستقرة كان يرجع لظروف لم تدخل في الحُسْبان.

البرتغال والطريق إلى الشرق:

لقد تأخّر الهولنديون في دخول مجال التجارة البحرية مع جزائر الهند الشرقية، كما هو معروف. فلقد كان البرتغاليون هم أول أمة أوروبية تكتشف الطريق إلى الشرق. ففي سنة ١٤٨٥ وصل ديجوكام إلى مصب نهر الكنغو. وفي سنة ١٤٨٨ وصل برتغالي آخر هو بارثلومو دياز إلى خليج ألجوا وبذلك يكون قد وصل إلى أقصى جنوب القارة ودار حولها على نحو ما. أما ذروة هذه الرحلات البحرية الخطيرة فأتت في سنة ١٤٩٧ عندما أبحر البرتغالي الذائع الصيت (فاسكو داجاما) حول منطقة الرأس فوصل يوم عيد الميلاد إلى ساحل ما يُعرف اليوم باسم (ناتال)، ومن هناك أكمل إبحاره إلى الهند. ومهما كان الأمر، فإن البرتغاليين لم يستقروا في منطقة الرأس (الكاب) فقد كانت بُغيتهم الذهب والعاج والرقيق، ولم يكن ذلك متوفراً في الكاب. وحتى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة قوّة تتحدى البرتغاليين وتنافسهم كسادة لتجارة الشرق الغنية. فباعتبارهم المهيمنين الوحيدين على الطرق البحرية مع الشرق غدا البرتغاليون أغنياء نتيجة بيعهم بضائع الشرق ممثلة في التوابل والسجّاد


Atlantic Ocean
Cape Colony
Madagascar
مدغشقر
Indian Ocean
المحيط الهادى
India
East Indies
Batavia
Java
0
2000 miles
3000 kilometres

والعطور والأحجار الكريمة. فقد كان تجار البرتغال يجلبون هذه البضائع ذات القيمة الفائقة إلى لشبونة حيث يشتريها التجار القادمون من بلدان أوروبية أخرى.

غير أنه في سنة ١٥٩٥ أبحر الهولندي (كورنيلس هوتمان) حول الكاب حتى وصل إلى جاوا في أندونيسيا الحالية. لقد أصبح واضحاً أن احتكار البرتغال لهذه التجارة المربحة والذي طال أمده يتخذ الآن طريقه للنهاية. وكان هذا التحدي الجديد للبرتغال قادماً من الأراضي المنخفضة(*) (التي كان يقودها وليم أورانج، والتي ثارت ضد اسبانيا سنة ١٥٧٩) وانجلترا.

شركات الهند الشرقية:

وقد مارس كل من الهولنديين والإنجليز نشاطاتهم التجارية من خلال شركات ذات براءات. ففي سنة ١٦٠٠ أنشئت شركة شرق الهند. وبعد ذلك بعامين، أي سنة ١٦٠٢ اتحدت شركات هولندية مختلفة لتكون شركة الهند الشرقية الهولندية. وكان لهذه الشركة الهولندية لجنة مركزية قوية وميزانية ضخمة. وهي في هذا تتفوق على الشركة الإنجليزية المنافسة. فبينما كان رأس مال الشركة الإنجليزية ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني فقط، نجد أن الشركة الهولندية قد بدأت برأس مال يربو على ٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني. وكانت كلا الشركتان مهتمتين بالاتجار مع جزر الهند الشرقية، على عكس البرتغاليين الذين امتدت تجارتهم إلى أفريقيا الشرقية والهند الجنوبية.

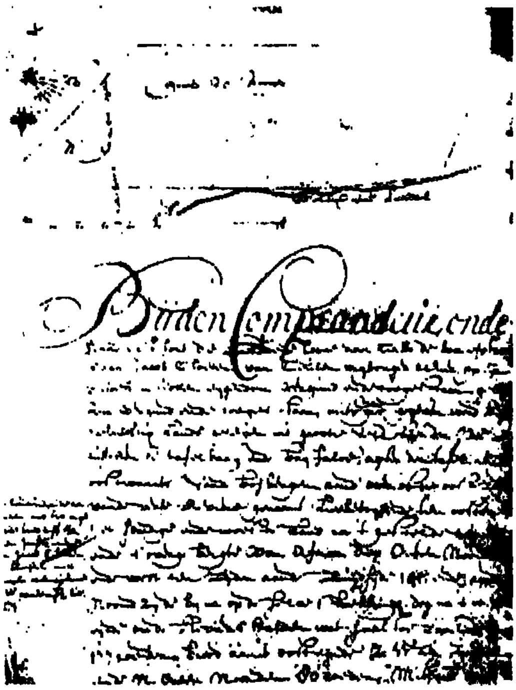
إنشاء محطة خدمات في الرأس (الكاب) :

لكن البحارة على اختلاف جنسياتهم، واجهوا مشكلة خطيرة. ففي هذه الأيام لم تكن قناة السويس موجودة وليس ثمة طريق قصير. فقد كان الطريق إلى الشرق طويلاً للغاية، ومُجْهِداً. لقد كان يتعين المرور على ساحل غرب

(*) تتكون الأراضي المنخفضة من ولايات متحدة تمثل هولندا واحدة منها. وقد قدم الهولنديون من هذه الولاية (هولندا).

أفريقيا بطوله مُلامسين سيراليون (الحالية) ثم عبور المحيط الأطلنطي إلى البرازيل، ومن الساحل الجنوبي للبرازيل يتم الإبحار شرقاً عبر المحيط إلى ساحل جنوب أفريقيا، ومن هناك يتخذ التجار سبيلهم إلى جزر الهند الشرقية. وفي نهاية الرحلة الطويلة، يكونون مُرهقين تماماً متلهفين للحصول على الماء غير المخزون والخضروات الطازجة والفاكهة وغير ذلك من التموينات. لقد كان كثيرون يموتون خلال الرحلة بينما يعاني الآخرون من الاسقربوط. لهذا أصبح من الواضح، أن إنشاء محطة خدمات، غدا أمراً تدعو إليه الحاجة لتمكين رجال السفن من الحصول على المياه والخضر، فيعينهم هذا على إتمام الرحلة.

وفي وقت باكر يرجع لسنة ١٥١٩ اجتمع ممثلون عن الشركتين، الإنجليزية والهولندية لإيجاد أفضل الطرق لحل مشكلة الحاجة لمحطة خدمات، ولكن هؤلاء الممثلين فشلوا في الوصول إلى أي اتفاق رغم أن صلاحية خليج تيبل لإنشاء محطة دائمة كان أمراً معروفاً على نحوٍ ما. وقد قام عضوان من أعضاء الشركة الإنجليزية سنة ١٦٢٠ بمحاولة لضم الأراضي الملاصقة لخليج تيبل لتاج الملك (جيمس الأول) . لكنها كانت محاولة غير ناجحة لأن الحكومة الإنجليزية لم تؤيد ذلك. أما المحاولة الإيجابية الأولى لإنشاء محطة في هذا الخليج فقد كانت حقيقة مسألة صُدفة. ففي سنة ١٦٤٧ تحطَّمت السفينة (هارلم) التابعة لشركة الهند الشرقية الهولندية في خليج (تيبل)، فانتقل طاقم السفينة المحطَّمة إلى وادي (تيبل) حيث مكثوا ستة شهور، وليبقوا على قيد الحياة قاموا باستنبات الخضروات وقايضوا السكان المحليين على اللحوم. وقد كان مناخ الوادي مناسباً وأرضه خصبة، وكان لهذا صالحاً للاستقرار. وفي سنة ١٦٤٩ عندما عاد طاقم السفينة هارلم إلى بلادهم كان أفراده ما زالوا متأثرين بأيامهم في الوادي، فكتبوا تقريراً عنه مُفْعماً بالحماس. وكانت استجابة الشركة مشجِّعة فقررت إنشاء محطة على هيئة قلعة ومُنْتَجَع في منطقة خليج تيبل. وسرعان ما أبحرت بعثة من ثلاثة سفن عليها ١٣٠ رجلاً وامرأة بقيادة (جان



The first land grant issued at the Cape, for lands in the Liesbeeck Valley

أول وثيقة بمنح أراض في وادي ليزبك، تصدر في الكيب.

فان ريبك) حيث وصلت لخليج (تيبل) في ٤ يونيو سنة ١٦٥٢.

وهنا نجد من الأهمية بمكان أن نتوقف للتركيز على بعض المهام الرئيسية التي يتعين على هذه المحطة المقترحة أن تؤديها. لقد اتضح لنا أن الطريق من أوروبا إلى جزائر الهند الشرقية كان طويلاً للغاية كما كانت الرحلة مُرْهقة محفوفة بالمخاطر. وسبق أن ألمْنا إلى ما يُسببه ذلك من نقص في الطعام الطازج والماء الصحي وتدهور في الصحّة. لقد كان ثلث طاقم السفينة تقريباً يلقى حتفه في العادة أثناء الرحلة. وعندما يصل الثلثان إلى باتاقيا في جزر الهند الشرقية يكون ثلث من الثلثين يعاني من الاسقربوط نتيجة نقص الخضر والفواكه. وكلما مضى الوقت، ظهرت أهمية محطة إنعاش في الكاب خاصة وأن (سانت هيلانه) التي كانت هي الميناء الرئيسي في رحلة العودة إلى أوروبا قد قلّ ما فيها من ماعز وخنازير برية وتفاح، ففي منتصف القرن السابع عشر لم يكن في (سانت هيلانة) إلا القليل من الفاكهة واللحوم. بالإضافة إلى أن البحارة كانوا في حاجة لمكان يستجمون فيه، ويعيدون تزويد سفنهم بالطعام اللازم. وفي نفس الوقت كانت سفن كثيرة تزور (الكاب) بانتظام في طريقها للشرق أو عائدة منه. لقد كان (الكاب) مكاناً مثالياً لمحطة لإنعاش بحارة السفن وراحتهم.

ويجب أن نؤكد هنا على أن هذه المحطة كانت مجرد مركز للراحة حتى لا يخلط القارىء بين هذا النوع من الاستقرار، وبين المستعمرة بمعناها التقليدي، فلم يدر في خلد المسؤولين بشركة الهند الشرقية الهولندية في وقت من الأوقات أن يؤسسوا مستعمرة في جنوب أفريقيا خلال هذه السنوات الأولى. فقد كان عدد سكان الأراضي المنخفضة قليلاً بينما يحتاج استعمار مناطق جديدة إلى عدد أكبر من الرجال . وعلى أية حال فإنه لم تكن هناك حاجة في هذه المراحل الباكرة على الأقل لإنشاء مستعمرة استيطان، لأن هذه المحطة أو هذا المركز يمكنه إذا تمت إدارته بعناية أن يسد احتياجات البحارة الأساسية. وأكثر من هذا فإن العمل في المحطة لم يقع على كاهل سكان الأراضي المنخفضة كأمّة وإنما على كاهل الشركة التجارية التي كانت هي وحدها الحريصة على جمع

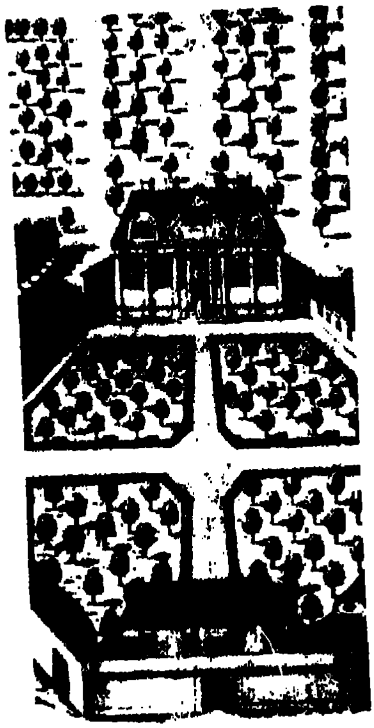
الثروات عن طريق التجارة. وكانت التعليمات صريحة لجان فان ريبِك بهذا الصدد. وبناء على هذه التعليمات كانت المحطة تهدف لتحقيق أغراض ثلاثة: أولاً، إن القلعة المسمّاة بالرجاء الصالح تهدف لتأمين إمداد السفن بالماء العذب وأيضاً لتجهيز حملات لأغراض دفاعية. ثانياً، تقدم القلعة للبحارة الخضروات الطازجة والفاكهة واللحوم، وتدبر مكاناً لاستجمامهم لهذا يتعيّن تطوير مزارع الخضر وبساتين الفاكهة. أما اللحوم فيمكن الحصول عليها بمقايضة البضائع الأوروبية بالماشية والغنم التي يمتلكها (الهوتنتوت) المحليون. وأخيراً، يجب بناء مستشفى لمعالجة المرضى، وفي هذه المستشفى يمكن أن يمكُث البحّارة للعلاج والراحة.

وأكثر من هذا فقد قضت تعليمات الشركة لجان فان ريبِك بتجنّب أي تطرف، أو تهور محتمل، وإظهار أن هدفهم محدد ومقتصر على الضروريات الأساسية لإنشاء محطة لمساعدة السفن المبحرة.

المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الأساسية:

أن تقوم شركة بإصدار تعليمات بما يجب فعله وما يجب تجنبه، فإن هذا ليس كل شيء، فالأمر يختلف عند مواجهة المشاكل الفعلية لإنشاء محطة في هذا الموقع البعيد وهذه الأرض التي لم يألفوها. فلم يكن لدى موظفي الشركة ولا لدى فان ريبك ورجاله معلومات يمكن الاعتماد عليها عن الظروف الجغرافية والامكانات الاقتصادية للمنطقة. لقد كان عليهم أن يتعلموا بِشَقِّ طريق صعب.

لقد كانت السنون العشرة الأولى ملأى بالكمد وصدمة أيقظتهم من حلم، كما كانت محاولات التكيف مع الظروف الجديدة لا تتم بحماس كامل. ومهما يكن، فرغْم الصعوبات فقد احرزوا بعض النجاح المحدود في اتخاذ بعض اجراءات التنمية خلال هذه الفترة التي كان فيها فان ريبك مشغولا في المحطة الجديدة. ففي البداية الأولى، كان العاملون التابعون للشركة يعانون من



عقار ولم فان ديرستل في فيرجيليجن Vergelegen

سوء التغذية والاسقربوط والضعف الصحي العام بسبب القحط والجفاف الذي طال أمده على غير ما هو متوقع، فلم يتواءم كثير من الرجال مع ظروف المعيشة في الكيب، فقد كانت الأمور تسير سيراً عسيراً قاسياً، وتلك أمور لم تكن متوقعة ولم توضع في الحسبان. على أية حال ففي أعقاب سقوط الأمطار نمت الخضروات والحشائش والبوص (يستخدم في بناء المنازل) بوفرة، وتوفرت أيضاً نباتات الطعام البشري، رغم ما سببته الأمطار من بعض الازعاج. فقد كان العاملون في الشركة يقطنون في خيام قديمة ومساكن خشبية سيئة التأسيس! فقد أدت السقوف غير المحكمة والأرضيات الرطبة والأكواخ الباردة إلى صعوبات إضافية وزاد من الصعوبات إصابة العاملين بالدوسنتريا مع حلول موسم الأمطار. لقد كان المستوطنون بوجه عام ضعافاً سيئي الصحة ـ في هذه المرحلة الأولى، ولم يكن كثيرون منهم قادرين على مقاومة الدوسنتاريا، وفي آخر شهر يونية سنة ١٦٥٢، لم يكن قد بقي على قيد الحياة منهم سوى ١١٦ رجلاً وخمس نساء ومن بين هذا العدد كان النصف فقط هو القادر على ممارسة الأعمال المفيدة. أما ما كان متوقعاً من حصول المستوطنين على الماشية والأغنام بالمقايضة مع الأفريقيين المحليين فقد انقلب هذا التوقع رأساً على عقب، فأصيبوا بخيبة أمل على المدى القريب، نظراً لأن الأفريقيين في الكيب لم يكن لديهم ماشية ولا طعام يكفيهم عند وصول المستوطنين، فقد أدى الجفاف إلى أن قاد الأفريقيون قطعانهم التي كانت لا تزال على قيد الحياة إلى حيث مراع أفضل.وعلى أية حال فبعد حوالي ستة شهور من المكوث في المنطقة تحسن وضع المستوطنين البيض الجدد. فبعودة المناخ الملائم والمراعي الطيبة عاد بعض الهوتنتوت بقطعانهم من الماشية والأغنام. وفي الوقت الذي كان فيه الرعاة الهوتنتوت المتجولون يعتزمون مغادرة المنطقة بعد ثلاثة أشهر من الاقامة، كان فان ريبك ورجاله قد حصلوا على ما يزيد على ٢٠٠ رأس ماشية و٦٠٠ من الأغنام من الهوتنتوت وذلك بمقايضتهم عليها بالتمباك والأسلاك والقضبان النحاسية. لقد أصبح اللحم الطازج متاحاً الآن، ولكن رغم التحسن البطيء للظروف الاجتماعية والاقتصادية، ظلت المشاكل الأساسية قائمة. فلم تكن الماشية والأغنام متاحة

في كل الأوقات، فالأمر يتوقف على وصول الرعاة المتجولين للمنطقة ومدى رغبتهم في المقايضة، وعدد رؤوس الماشية والأغنام التي يرغبون في المقايضة عليها. ومن ناحية ثانية فرغم أن المستوطنين كانوا يتوقعون استنبات نباتات الطعام إلا أن عددهم كان قليلاً لا يتناسب مع ما يتطلبه العمل، كما أنهم لم يكونوا يمتلكون الخبرة الزراعية الكافية. فقد كانوا يريدون استنبات الشعير والقمح وهذا يتطلب كثيراً من العناية والتكاليف. وقد كان هذا واضحاً بالذات خلال السنوات الأولى. لهذا لم يكن عجباً أن وجد المستوطنون البيض ـ خاصة في المراحل الأولى ـ أن الزراعة مكلفة وليست ذات عائد مجز لهذا كان المستوطنون يشترون الطعام. ولاسباب مالية خالصة لم تكن الشركة في هذه المرحلة مستعدة لتشجيع هذه التجربة الزراعية.

محاولات لحل المشكلات :

إذا كان على هذه المحطة في الكيب أن تحقق الغرض الذي من أجله أنشئت، فإنه يتحتم اتخاذ سياسة جديدة. ولن يكون هذا ممكناً إلا بحل المشكلات التي أشرنا إليهابشكل عام. ولقد حاول فان ريبك تحسين الوضع بمختلف الوسائل. فأولاً، نجده قد قرر أن يوسّع المستوطنة للحصول على مزيد من الأراضي وهذا زاد من الانتاج الزراعي. ولكن هذا لا يكون حلاً مناسباً إلا إذا كان هناك عدد كاف من البيض لزراعة الأرض وتنميتها. لهذا كان القرار الثاني الهام هو زيادة عدد العاملين، كما أن مسائل الدفاع تحتاج لمزيد من الرجال.

ربما كانت أهم التوصيات التي قدمها فان ريبك للشركة هي أن يكون العمال رجالاً أحراراً وليسوا موظفين في الشركة ويمنحوا قطعاً من الأراضي بدون مقابل. وقد قبلت الشركة هذه التوصية مما أدى إلى إتاحة الفرصة للفلاحين البيض الأول كي يستقروا في الكيب. وقبل هذا كان الموظفون هم الذين يعملون، أما الآن فقد قدم الفلاحون ومعهم أسرهم يستقرون في المنطقة استقراراً دائماً. وقد كانت المجموعة الأولى من المستوطنين المزارعين مكونة من

٩ رجال صرفتهم الشركة من خدمتها ليعملوا بشكل مستقل. وفي فبراير سنة ١٦٥٧ منحوا قطعاً صغيرة من الأراضي في وادي ليزبك Liesbeeck وكانت أراضيهم معفاة من الضرائب. وبتأسيس هذه المستوطنة يمكننا القول أن الاستعمار الأوروبي لجنوب أفريقيا قد بدأ. وقد كان تقدم المستعمرة في البداية بطيئاً ففي سنة ١٦٧٢ لم يكن هناك إلا ٦٤ مستوطناًColonists وكان أحد أسباب هذا التطور البطيء في تنظيمات واجراءات الشركة التي كانت تسيطر بحزم على نشاطات المستوطنين مما عاق ازدهارهم اقتصادياً. حقيقة إن المستوطنين لم يدفعوا شيئاً مقابل حصولهم على الأراضي، لكن الشركة لم تدفع شيئاً للحصول على هذه الأراضي كما أنها لم تنفق مالاً لجعلها صالحة للاستقرار. لقد كانت تنظيمات الشركة تحتم على المستوطنين البقاء في المنطقة ٢٠ سنة، وحتمت عليهم الاشتراك في الدفاع عن المنطقة بالإضافة لعملهم في الزراعة وكان أسوأ هذه القيود يتمثل على أية حال في تحديد أسعار الطعام والأعلاف مما يجعلها منخفضة السعر جداً بينما كانت فرص التسويق محدودة للغاية، فعلى سبيل المثال كانت الماشية التي يتحتم على هؤلاء المستوطنين بيعها للشركة محدّدة السعر، وثمة عائق آخر فرضته الشركة، وهو أنها كي تحتكر تجارة التمباك؛ فقد منعت الفلاحين المستوطنين من زراعته، وإنما كان عليهم زراعة الخضروات التي تكفي حاجة البيض(*) فقط. وأخيراً، ففي مقابل حق الرعي كان عليهم أن يدفعوا ١٠٪ من ماشيتهم للشركة.

كان من الطبيعي إذن أن يشكو المستوطنون من قسوة هذه القيود. ففي سنة ١٦٥٨ ، خاصة ، رفعوا أصواتهم بالشكاوي والتظلمات بطريقة كانت تشكل تهديداً حقيقياً بالاضراب، فالأسعار المدفوعة في الغلال كانت أقل من تكاليف الانتاج مما عرّض الفلاحين لخسارة دائمة. لهذا طالب الفلاحون مسؤول الشركة Commander «بأن يدع الأسعار حرّة، لأنه حتى يتم هذا، فإننا لن نزرع أية أراض أخرى لأننا لسنا عبيداً للشركة» وقد حقق المزارعون

(*) البيض المستوطنون في الكيب (المترجم).

(المستوطنون) من هذا ميزتين صغيرتين، فمن ناحيـة ارتفع سعـر الغلال بالتدريج ومن ناحية أخرى سُمِح لهم ببيع الغلال وغيرها من البضائع التي ينتجونها محلياً لطواقم السفن الزائرة للكيب.

على أية حال، فعند نهاية الفترة التي كانت فيها المستوطنة تحت قيادة فان ريبك، كانت المستوطنة ما تزال صغيرة، وتبدو مؤقتة. فقد كانت مكونة من عدد صغير من زارعي الفاكهة، ومربي الدواجن والعاملين في الحدائق، كما كان عدد الماشية قليلاً. ومن جوانب أخرى، نجد أن المستوطنة قد تطورت، فقد بنى المستوطنون مستشفى مؤقتاً، وبدأوا في استخدام الرقيق في العمالة. فقد وصل أول ١٢عبداً سنة ١٦٥٧ من جاوا Java ومدغشقر وفي العام التالي وصل ١٨٥ عبد آخر من غرب أفريقيا وقد هرب عدد كبير منهم بعد ذلك. على أية حالة، فالنقطة الهامة هنا هو أن عاملاً جديداً قد دخل في تاريخ جنوب أفريقيا المعقد ونعني به سياسة العمل واستخدام العبيد.

فسياسة التفوق العنصري والفصل العنصري كان لها أرضية وأساس في تاريخ جنوب أفريقيا منذ نهاية القرن السابع عشر، لأن المستوطنين (الذين عرفوا بالبوير) كانوا يكرهون الاشتغال بالأعمال الدنيا والشاقة، تلك الأعمال التي كانوا يعتبرونها خـاصة بغـير الأوروبيين الـذين كان ينـظر لهم (غير الأوروبيين) «كقاطعي خشب ونضّاحي مياه» فلمدّة عشر سنوات منذ وصول الأوروبيين للكيب كانت السلطات تحاول جذب الصينيين ـ الذين كان معروفاً عنهم أنهم صنّاع مهرة ـ إلى جنوب أفريقيا لسد الحاجة المتزايدة للعمالة. وقد فشلوا في هذا، مما اضطرهم إلـى البحـث عن مصدر آخر. وعلى هذا ، فرغم أن المناخ كان ملائماً للعمالة البيضاء فإن المستعمرة كانت منذ نشأتها تعتمد على العمالة الأفريقية. فقد عمد فان ريبك إلى استيراد العبيد لا ليوفر العمالة فحسب، وإنما ليجعلها رخيصة، وبدلاً من رفع أسعار الطعام حيث كان المزارعون المستوطنون يضجون بالشكوى من أن أسعار بيعه لا تغطي تكاليف انتاجه عمد فان ريبك إلى استيراد العبيد للتقليل من تكاليف انتاج الطعام. لذا

كان عدد العبيد يزداد باستمرار وثبات من ١٢عبداً سنة ١٦٥٧ إلى ١,٢٥٨ (من الكبار والأطفال) في سنة ١٧٠٨، إلّا أن العمالة من العبيد كانت على أية حال غير فعّالة، وعاجزة عن إحداث الأثر المطلوب، كما كان لها جوانبها السلبية إذ جعلت المستوطنين البيض كسالى ونتج عنها مشاكل اجتماعية هامة في الأعوام التالية.

مجتمع الكيب الملوّن :

وثمة نتيجة هامة أخرى نتجت عن استخدام العبيد في جنوب أفريقيا تتمثل في ميلاد مجتمع جديد تماماً وهو مجتمع شعب الكيب الملوّن. لقد كانوا اجناساً مخلّطة نتيجة اتصالات جنسية بين البوير والعبيد والاكزوسا والهوتنتوت والبشمن، فبينما وجدنا قلة من البيض قد تزوجوا زواجاً شرعياً بنساء من غير البيض، إلّا أن الغالبية العظمي من هذه اللقاءات الجنسية كانت تتم بشكل غير شرعي. ولأن الفلاحين (البوير) والتجار البيض كانوا مستمرين في إحداث هذه اللقاءات مع نساء من الاكزوسا والنساء الملونات عموماً، فقد ازداد عدد السكان الملونين بالتدريج حتى كانوا مجتمعاً متزايداً في الكيب. وفي سنة ١٨٢٠ وجدنا شعب الكيب الموّن يترك بالتدريج لغاته الأصلية ليتحدث لغة الأفريكان Afrilaans وهي اللغة التي يتحدث بها البوير(*).

الكيب في الفترة من ١٦٧٩ إلى ١٧٠٧ :

كما رأينا، كانت الأعوام القليلة الأولى في مستوطنه الكيب، زاخرة بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية. ورغم الاجراءات التي اتخذها فان ريبك لتحسين الوضع، إلّا أن كثيراً من المشكلات ظلت بدون حل حتى نهاية رئاسته. فقد ظلت الماشية غير كافية، كما أن موارد الحصول عليها كانت غير دائمة ولا ثابتة، كما ظلت الموارد الزراعية غير كافية. وباختصار، كانت هذه

(*) الأفريكان هي اللغة التي يتحدث بها البوير، ورغم أنها لغة قريبة الصلة بالهولندية التي كانت اللغة الأصلية للبوير، إلّا أنها مختلفة عنها، إذ كان البوير يفضلون أن يسمُّون باسم أفريكانرز Afrikaners لينسبوا إلى الأفريقيين في جنوب أفريقيا، كالبانتو.

المستعمرة حتى نهاية فترة فان ريبك غير قادرة على شق طريقها. لذا كان من الضروري اتخاذ سياسة أكثر حزماً وانتظاماً لجعل المستعمرة مكتفية ذاتياً! سواء في تموينات الطعام أو في مسائل الدفاع. وقد غدت مسألة الدفاع في غاية الأهمية خاصة خلال حروب القرن السابع عشر الأوروبية، إذ ثارت المخاوف من أن يقوم الفرنسيون في ظل حكم لويس الرابع عشر بمهاجمة المستعمرة.

وبين سنة ١٦٧٩ وسنة ١٦٩٩ كان فان دير ستل Simon Van der Stel هو رئيس Commander المستوطَنة وخلال فترته بذل محاولات شجاعة لحل مشاكل المستعمرة الاقتصادية والاجتماعية. وكان دير ستيل يهدف إلى زيادة عدد المستقرين بتسهيل وسائل وصول المهاجرين الهولنديين إلى جنوب أفريقيا وتشجيعهم على ذلك وكان سِتل أول من شجع قدوم الهولنديين كمستوطنين ومستعمرين للكيب، وفي ظل قيادته كان قدوم المستوطنين لجنوب أفريقيا حراً دون تصريحات دخول. وفي ظل قيادته تم تقديم الأراضي للقادمين دون مقابل، كما شجع موظفي الشركة على الاستقرار، ومن ثم على اشتغالهم بالزراعة، وقد تحقق ستل أن الطريق الأمثل لتمكين المستعمرة من النمو يكمن في إتاحة الفرصة للمستوطنين للزواج وإنجاب الأطفال، ولتحقيق ذلك فقد تم إرسال الفتيات اليتامى ـ على حساب الشركة ـ كزوجات للمستوطنين.

وعلى هذا فقد زاد سكان المستعمرة بثبات واضطراد خلال هذه الفترة، وبالتالي امتدت حدود المستعمرة. وتم إنشاء قرى جديدة في وادي نهر إيرست Eerste في مكان يسمى ستلنبوش Stellenbosch . وبين سنة ١٦٨٨ وسنة ١٧٠٠ قدم للكيب حوالي ٢٠٠ فرنسي من الهيجونوت (*) إلى الكيب فأنعشوا المستعمرة بخبراتهم التجارية ومعارفهم. وقد كانت مغادرتهم فرنسا قد بدأت سنة ١٦٨٥ عندما ألغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت Nantes الذي كان يضمن للبوتستنط حرية العبادة. وبحلول عام ١٧٠٨ كان السكان المستوطنون قد وَضُحَ ازديادهم من ٦٤ في سنة ١٦٧٢ إلى

(*) هم البروتستنط الفرنسيون. (المترجم)

١٤٤١. وقد كان هناك تقدم بشكل عام في انتاج الطعام بسبب زيادة السكان المشتغلين بالزراعة. فقد زاد المواطنون Burghers (أسمى المستوطنون المشتغلون بالزراعة أنفسهم بهذا الاسم تمييزاً لأنفسهم عن موظفي الشركة) قد زادوا من حجم انتاجهم الزراعي. على أية حال، فقد كان هذا الانجاز ـ زيادة الانتاج الزراعي ـ غير فعّال نظراً لقلة عدد المستهلكين وسرعان ما زادت تموينات الطعام عن الحاجة، لذا تدنى سعر الطعام مما أدى إلى خسائر كبيرة للفلاحين، كما كان النمو الاقتصادي يعاني من القيود التي تفرضها الشركة. التي كانت تسيطر على النشاطات الزراعية والاقتصادية للمستوطنين بقسوة. فعلى سبيل المثال كانت الشركة مسؤولة عن منح العقود الخاصة ببيع الخمور والنبيذ والتمباك واللحوم والخبز، بالتجزئة.

وتولى حكم المستعمرة في الفترة من ١٦٩٩ إلى ١٧٠٧ وليم أدريان فان در ستل William Adriaan وهو ابن الحاكم السابق الذي استُدعى من قِبَلِ حكومته. ورغم أن مشروعات وليم كانت مميزة بشكل عام إلاّ أن نقطة الضعف الأساسية فيه هو أنه كان راغباً بشكل جنوني في أن يغدو غنياً بسرعة بصرف النظر عن وسائل ذلك. ورغم أن هذا كان هو الاتجاه العام بين موظفي الشركة إلاّ أن سجل أدريان من الصعب الدفاع عنه. لقد استحوذ على مزارع ضخمة رغم أن قوانين الشركة وتعميماتها كانت تمنع ذلك، كما استخدم موظفي الشركة في تنمية مزارعه كما كان الناس يقدمون له عبيدهم وخرافهم وهدايا أخرى لشراء رضائه. وأكثر من هذا فقد كان يميز في المعاملة بين الناس فيفضل أصدقاءه فيقدم لهم على حساب المستوطنين عقوداً ونبيذاً ولحوماً. ففي ظرف ثمان سنوات غدا وليم أدريان ة ،اً وغنياً لدرجة أنه كان هو وأقرباؤه وحلفاؤه يمتلكون ثلث الأراضي الزراعية في المستعمرة. ولا حاجة للقول بأن هذا كان ضد قوانين الشركة.

وبينما كان وليم مشغولاً بتجميع وتركيز كل المزايا والسلطات الاقتصادية في يديه كان المستوطنون يواجهون وضعاً يدعو للامتعاض. فمن ناحية لم يكن

أمام المستوطنين إلّا القليل جداً من الفرص لتحسين أوضاعهم، نظراً لأن الحاكم والشركة قد احتكرا معظم البضائع والنشاطات التجارية المُربحة. ومن ناحية ثانية، فقد تصادف عندما غدا وليم أدريان حاكماً أن تعرضت المنطقة لجفاف قاس عقب هجوم جراد لم يبق ولم يذر في سنة ١٦٩٥، كما كان من الواضح أن الحاكم أدريان لم يكن حساساً إزاء مشاكل المستعمرة وإنما كان مشغولاً بمصالحه الخاصة وكانت رغبته في الثراء لا تقاوم. ليس عجباً إذن أنه عندما دفع المستوطنون ظلاماتهم وشكاواهم سنة ١٧٠٥ وطالبوا باستدعاء الحاكم، كان رد الشركة مشجعاً ومتعاطفاً معهم. ففي سنة ١٧٠٧ اتهم الحاكم وليم أدريان بالرشوة والممارسات غير السليمة وتم طرده، كما تم طرد عدد آخر من الموظفين المُرتشين مع وليم أدريان الذي قامت الشركة بمصادرة كل أراضيه وممتلكاته في المستعمرة.

ورغم سوء الادارة في عهد وليم أدريان، ففي الوقت الذي استدعى فيه في سنة ١٧٠٧ كانت المستعمرة قد حققت تقدماً ملحوظاً، فقد تم بناء مستشفى كبير وبتمام بناء القلعة كانت وسائل الدفاع عن المستعمرة قد اتخذت طريقها للقوة. وفي هذا الوقت أيضاً كان قد تم إنشاء مخزن (مستودع) كبير للمياه وتم توسيع الكنيسة، وبناء مدرسة ابتدائية. وعلى أية حال، فقد ظل التعليم مهمَلاً لفترة لعدم وجود مدرِّسين، ولم تكن المدارس الابتدائية بقادرة على ممارسة عملها إلا بارتباطها بالكنائس المحلية. فقد كان العاملون في الأبرشيات يشتغلون بالتدريس في المدارس الابتدائية المحلية، وكان معظم الآباء يقومون بتعليم أبنائهم بأنفسهم أو بتأجير مدرِّسين خصوصيين لهم. وفي سنة ١٧٠٧ كانت المستعمرة قد توسعت مرَّة أخرى خارج حدودها. وعلى أية حال فقد تعرَّض هذا التوسع لنكوص عندما قررت الشركة التخلِّي عن سياسة مساعدة وتشجيع المهاجرين بعد سنة ١٧٠٧. فقد كان هناك شعور أن زيادة الخلاف والصدام بين الحكومة والمستوطنين يعود في جانب منه لاستمرار تدفق سيل المهاجرين، والتوسع في حدود المستعمرة الذي يتبع ذلك.

التوسع الاقليمي Territorial expansin :

بنهاية القرن الثامن عشر كانت مستعمرة الكيب قد توسعت توسعاً كبيراً وبلغ عدد سكانها الأوروبيون حوالي ١٥,٠٠٠، وكان هذا التوسع الاقليمي لا يرجع إلى التشجيع الرسمي والدعم من الشركة بقدر ما كان يرجع إلى الجهود الدؤوبة الفردية للفلاحين البيض. فلم تكن الشركة ولا الادارة المحلية متعاطفة مع السياسة والممارسات التوسعية للفلاحين البيض، فكلما كبرت المستعمرة زادت مشاكلها مما يعوق السلطات الادارية عن استيعابها، كما أن هذا التوسع يلقى عبئاً دفاعياً على السلطات التي لا تمتلك العدد الكافي من الرجال لاستخدامهم في المجالين الدفاعي والاداري. كما أن هذا التوسع كان يؤدي إلى صدامات بين البيض والأفريقيين المحليين، فكل توسع حدودي يتحتم أن يتبعه امتداد للادارة، وهذا يتطلب مالاً ورجالاً ولم تكن الشركة ولا الادارة المحلية تمتلك الميزانية والرجال اللازمين لهذا.

مبرّرات التوسع الباكر :

دعنا نتمعن الآن في العوامل التي جعلت المستعمرة تمتد متوسّعة فمن وقت لآخر كانت السلطات الادارية مُجْبرة على مَدٍّ واجباتها الادارية إلى المناطق الجديدة التي وصلها الاستيطان البشري الأبيض، ولقد كان توسع مستعمرة الكيب وامتدادها يتم بطريقة ارتجالية غير مخطّطة نظراً لأن هذا التوسع كان يتم بدون تخطيط ولا حتى مجرد تنسيق. لقد أدى إلى هذا التوسع عوامل متعددة؛ جغرافية واقتصادية واجتماعية وإدارية. ففي السنوات الأولى كانت توجد مساحات واسعة من الأراضي غير المشغولة، مما شجع المستوطنين على الانتقال من منطقة إلى أُخرى، كما أتاح لهم الاستحواذ على مساحات واسعة من الأراضي، تركوا معظمها غير مستثمر لفترة طويلة، أما حيث كانت الأراضي مشغولة بالفعل من قِبَل البشمن والهوتنتوت فقد استخدم المستوطنون سلاحهم الناري المتفوق لقمع أي اعتراض أو ثورة. وقد كان الهوتنتوت يعانون من حالة ضعف شديد بسبب وباء الجدري الذي انتشر سنة ١٧١٣، كما أن عدداً كبيراً

من البشمن والهوتنتوت قد تحركوا مهاجرين بشكل اختياري إلى مناطق جديدة لتجنب أيٍّ احتكاكات مع المستوطنين البيض. على أية حال، فكلما كانت المستعمرة تنمو وتتوسّع كان المستوطنون يواجهون مقاومة قوية من البانتو المسلحين ذوي التنظيم الجيد. وسنتناول بعض التفاصيل عن ذلك في الفصول الخامس والسادس والسابع. على أن المسألة الهامة التي يتحتم ذكرها في هذا الصدد، هو أنه بسبب سِعَة المنطقة، وجد المستوطنون أنه من المناسب مد منطقة الاستيطان سواء وافقت السلطات أو لم توافق، وسواء شجعت ذلك أم لا.

لكن سعة المنطقة ورحابتها ليسا هما الدافع الوحيد للتوسع، فكثير من الأراضي كانت نصف جدباء مما دفع الفلاحين وشجعهم على الانتقال من مطقة إلى أخرى بحثاً عن الأرض الخصبة والمطر الكافي والموارد الدائمة للمياه. كما أن هذا يعني أن الزراعة الرعوية(*) هي الأكثر ملاءمة في المناطق الجافة. وهذا النوع من الزراعة يتطلب مساحة شاسعة من الأرض إذا كان الفلاح يريد الرخاء، إذ يتحتم عليه أن ينتقل بماشيته من منطقة إلى أخرى إذا ما شحت الحشائش والمياه، لذا فقد ألف الفلاحون توسيع مزارعهم ومدّ حدودها، بالتدريج. وهذا هو التكوين العام للزراعة في مختلف أنحاء المنطقة خاصة إلى الشرق والشمال من مدينة الكيب. وعلى النقيض من ذلك، فقد كانت الزراعة ثابتة Farming arable في الولاية الغربية Western Province حيث الظروف المناخية مواتية. وقد علّق الدكتور فيليب على العادات الزراعية للفلاحين البوير في سنة ١٨٣٠ ـ وقد كان الدكتور فيليب ينتقد باستمرار الممارسات العنصرية ـ لقد كتب يقول:

«لقد تعّودوا على أن يحوزوا أرضاً واسعة عندما كانت الأراضي متوفرة، وكان عددهم ـ أي المستوطنين ـ قليلاً ولكنهم ما زالوا يظنون أنهم غير قادرين على الاستمرار والعيش إذا لم تكن المزرعة بنفس المساحة التي كانت عليها مزارع أجدادهم. فلا زالت عادتهم رعوية فنادرا ما يزرعون إلا ما يكفيهم، أما

(*) Pastoral Farming

مقياسهم للثروة فيتمثل في الماشية، وما داموا يمتلكون أعداداً كبيرة من الماشية، فلم يعد يكفيهم مزيد من الأراضي للرعي، وإنما كان الأمريتطلب أراض في مناطق مختلفة ليرحلوا إليها في مواسم السنة المختلفة. وبالإضافة لمطالبهم المتعلقة بقطعانهم، فقد كانوا يريدون مناطق يمارسون فيها الصيد. وكان كل فلاح يعيش على هذا النحو بدلاً من أن يعكف على مزرعة معتدلة المساحة. وبهذه الطريقة فإن كل فلاح كان يريد ولاية لنفسه... إن كل ما كانت تقع عيونهم عليه، يعتبرونه ملكهم، وعند الضرورة، كان الوطنيون يُجْبرون على الرحيل لإخلاء المكان لقطعان البيض وأولادهم. وبهذه الوسائل امتلكوا ووضعوا أيديهم على الأراضي ثم بعد هذا طالبوا الحكومة بالتصديق على ما يمتلكون، أو اعتماد وثائق ملكياتهم...».

وعلى أية حال فمن غير الصواب أن نفترض أن الاتجاهات التوسعية للمستوطنين، تعود للعوامل المذكورة آنفاً فقط، فكما سبق القول إن قوانين الشركة كانت تضع العوائق والقيود أما الأنشطة الاقتصادية للمستوطنين، فقد ظلت أسعار المنتجات المحلية منخفضة جداً ولا تتيح للفلاحين تحقيق أية أرباح. وقد كان ثمة قوانين تعوق انتاج المنتجات وبيعها كالتمباك كما أن عقود بيع المواد المربحة كاللحوم والتمباك والنبيذ كانت قصراً على الأصدقاء (أصدقاء الحكام) والأقارب. وقد دعا هذا المستوطنين إلى ترك مدينة الكيب وتأسيس «أوطان Homes» جديدة في المناطق المحيطة بالكيب حيث يهربون من القيود الرسمية والرقابة. وبتعبير آخر لقد أدى هذا إلى توسيع المستعمرة.

وثمة عامل آخر يكمن خلف توسع المستعمرة، ويتمثل هذا في أن حيازة الأرض كانت غير مأمونة، فعلى سبيل المثال، عند موت صاحب المزرعة كانت المباني وغيرها من التحسينات الهامة تباع بالمزاد العلني (خاصة ذات الطابع الدائم) ثم يوزع ناتج البيع بين الورثة بالتساوي، ويستطيع من رسا عليه المزاد ويسمونه «الأبستال apstal» أن يؤجِّر مزرعة المتوفَّى لذا فقد كان الفلاحون يهملون إجراء تحسينات في مزارعهم وبناء مبان دائمة فيها، وبدلاً من هذا فقد

كان هدفهم الأساسي هو اقتناء مزارع واسعة لأولادهم، وكانت الأراضي رخيصة ويمكن اقتناؤها بسهولة. ونتج عن هذا التفكير كثرة المزارع الكبيرة النائية وبالإضافة لهذا فهناك الطبيعة البدوية أو الرعوية حيث كانوا هم وأبناؤهم في حالة حركة دائمة وغير منظمة.

عمليات التوسّع :

وعلى هذا ففي نهاية القرن الثامن عشر كانت مستعمرة الكيب قد توسّعت توسعاً ملحوظاً. لقد كانت بدايتها كمحطة مؤقتة تتكون من عدة مساكن على شاطىء خليج تيبل ثم تطورت إلى مدينة صغيرة جميلة ذات نظام دفاعي ضروري، ووسائل ترفيه وراحة اجتماعية. وكان استمرار توسع المستعمرة على مر الأعوام يعود إلى التفوق العسكري للمستوطنين الذين كانوا مسلحين بالبنادق. وكان البانتو هم وحدهم الذين تصدوا لهم بفاعلية، وكلما كان المستوطنون يوسعون مستعمرتهم كانت الصدامات بينهم وبين البانتو لا تفتأ تنشب، وكان القتلى والجرحى من الجانبين كثيراً. وفي سنة ١٧٨٠ كان الحد الشرقي للمستعمرة هو نهر فشْ (نهر السمك) بعد العديد من الحروب والصدامات بين البانتو والبوير بدأت منذ سنة ١٧٧٠، وأشهر هذه الحروب هي تلك التي كانت بين الاكزوسا والبوير في سنة ١٧٧٩ حيث فقد الاكزوسا في هذه الحرب حوالي ٥٠٠٠ رأس من الماشية. لذا كان إنشاء جراف رينت Graaf — Reinet كولاية أو منطقة ملحقة (Landdrostdy) في سنة ١٧٨٦ أمراً ضرورياً لخدمة المناطق الجديدة. حقيقة، لقد كانت عمليات التوسع تتم بسرعة كبيرة (رغم نقص الدعم الرسمي) ففي سنة ١٨٢٦ على سبيل المثال وجدنا اعترافاً رسمياً بأن يكون نهر الأورانج هو الحد الشمالي الجديد للمستعمرة. وبتعبير آخر فإن الحكومة كانت تعترف بالحدود الجديدة بعد أن يكون المستوطنون قد مدوا هذه الحدود فعلاً. وأثناء حركة الزحف العظيم (الهجرة الكبرى) كان التوسع في أقصى درجاته كما سنوضح ذلك في الفصل الرابع.

الجريكا Griqua :

لقد أدى التوسع شمالاً إلى الاحتكاك بالجريكا القاطنين في بلادهم (الجريكالاند) ورغم أننا لا نعرف كثيراً عن تاريخهم إلا أنه كان من الواضح أن الجريكا عناصر مخلّطة الدماء من الهوتنتوت والناماكواز Namaquas والبشمن والكورانا والأوروبيين. وبعض الجريكا يذكر أنهم رحلوا من مستعمرة الكيب هروباً من السيطرة الأوروبية. وفي سنة ١٨٢٠ كان عدد سكان الجريكا حوالي ٣٠٠٠، وكانت هناك ثلاث قرى جريكية هي جريكاتـون في كلاروورتـر Klaarwater وكامبل Campbell وفيليبوبولس Philippolis وكان يتزعم هذه القرى على التوالي أندريس ووتربور Waterboor وكورنيلوس كوك Kok وآدم كوك Adam Kok. وكل هؤلاء القادة جرى تعيينهم من قبل الارساليات التبشيرية التي وصلت للمنطقة مع مطلع القرن التاسع عشر. ومع استمرار توسع البوير في المنطقة كان عدد الجريكا يتزايدون بشكل كبير، وقد فقدوا أراضيهم وأصبحوا شعباً تابعاً. وعلى أية حال، فإن الارساليات التبشيرية دافعت عن حقوقهم (حقوق الجريكا) ولكنهـا لم تنجح في ذلك دائماً(*). وقد أعلن الارساليون حق الجريكا في أراضيهم لأنهم أول من شغلوها (المنطقة المجاورة لنهر أورانج) ورغم تعاطف بعض الأوروبيين الليبراليين والارساليين إلّا أن مستقبل الشعوب الأصلية يعد أمراً غامضاً وسوف نتناول ذلك بتفصيـل أكثر في الفصل الثاني عشر.

(*) سبق القول أنه من الصعب في بعض الأحيان أن نفصل بين موقف المستوطنين وسلطاتهم، وموقف الإرساليات النصرانية، والتفسير القائم لهذا التناقض هو وجود خطة للدعوة للمسيحية من وجهة نظر المصلحة الأوروبية.

(المترجم)

الفصل الثالث

جنوب أفريقيا في ظل الحكم البريطاني

الاستعمار البريطاني للمرّة الأولى سنة ١٧٩٥ :

في سنة ١٧٩٥ هاجمت القوات البريطانية مُسْتعمرة الكيب، وبعد مقاومة يسيرة تم لها الاستيلاء عليها. غير أن الاستعمار البريطاني للكيب لم يطل عقب هذا الغزو، إذ لم يستمر لأبعد من عام ١٨٠٢، إذ أنهى صلح أميان الحكم البريطاني في الكيب، ونُقلت المستعمرة إلى جمهورية بتافيا Batavian Republic(*) التي تدعمت حكومتها في الأراضي المنخفضة منذ سنة ١٧٩٥. وقد أخذت جمهورية بتافيا على عاتقها إدارة المناطق التي كانت تحكمها في السابق شركة الهند الشرقية الهولندية، والتي أفلست في عام ١٧٩٤. ومهما يكن، فإن مسؤولية جمهورية بتافيا عن مستعمرة الكاب لم تستمر لأبعد من عام ١٨٠٦، ففي هذا العام هاجمت القوات البريطانية للمرة الثانية مستعمرة الكيب، ونجحت في احتلالها.

انهيار وإفلاس شركة الهند الشرقية الهولندية :

تضافرت عدة عوامل فأضعفت الهولنديين، وشركة الهند الشرقية الهولندية، ومستعمرة الكيب، وتسبّبت هذه العوامل في أن يفقد الهولنديون في

(*) جمهورية بتافيا هي المسمّى الجديد للأراضي المنخفضة بعد تغيير الحكومة. وبينما كانت الحكومة القديمة تدعمها بريطانيا ضد فرنسا، فإن جمهورية بتافيا كانت منحازة لفرنسا، وعلى هذا فقد كانت عدوّة بريطانيا.

النهاية مستعمرة الكيب لصالح بريطانيا. ففي المقام الأول، كان الهولنديون يواجهون منافسة تجارية متزايدة من كل من الفرنسيين والبريطانيين، وقد قوَّضت هذه المنافسة أوضاع الهولنديين التجارية والاقتصادية. وقد كانت هذه المنافسة قد امتدت إلى المستعمرة الهولندية في الكيب التي كانت تمتلكها وتديرها شركة الهند الشرقية الهولندية ذات الصلات الوثيقة بالحكومة الهولندية. وقد كان الوضع يزداد سوءاً نتيجة الحروب الأوروبية الطويلة والعديدة - والتي انتهت مؤقتاً بمعاهدة أوترخت Utrecht سنة ١٧١٣ - وقد كان الهولنديون طرفاً في هذه الحروب. وفي فترات الحروب لم تكن التجارة لتزدهر إلّا بالكاد، كما أن الحروب كانت تكلِّف أموالاً طائلة، كما كانت تصرف الرجال والاهتمام عن ممارسةالأعمال التجارية المُربحة. أضف إلى هذا أن أوضاع أهالي المستعمرة البيض في الكيب كانت تتّسم بعدم الكفاءة الادارية، وشيوع الفساد والرشوة، وفرض القيود على التجارة، وعموم السخط بين المسؤولين في المستعمرة. لقد غدت أسباب ضعف الشركة والمستعمرة واضحة للعيان بجلاء. لهذا لم يكن ثمة دهشة عندما أعلنت شركة الهند الشرقية الهولندية إفلاسها في سنة ١٧٩٤، ففي بواكير سنة ١٧٨٢ كانت قد دفعت آخر حِصّة ربحية لحَمَلة الأسهم وفي سنة ١٧٩٤ كان إجمالي ديون الشركة قد قد ثبت عند رقم تحذيري خَطِر وهو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينيي.

وفي هذا الوقت أيضاً زاد انتشار الاستياء في المستعمرة. ولقد أشرنا لبعض المظالم والشكاوى الاساسية التي تقدم بها المسؤولون البيض من أهالي المستعمرة، في الفصل السابق. وبالإضافة لكل هذا لم تكن الترتيبات الدفاعية في المستعمرة بشكل عام، تحوز الرضا. فقد شعر المسؤولون الاستعماريون في الكيب أنهم لا يمتلكون أساليب دفاعية كافية حتى ضد الأفريقيين المحليين، الذين كان من بينهم مقاتلون مهرة. وقد اشتكى هؤلاء المسؤولون من أنهم إلى جانب تحملهم إدارة المستعمرة، فإنهم يحملون على عواتقهم عبء الدفاع عن أنفسهم وعن سكان المستعمرة في صراعهم مع الأفريقيين. ويكفي أن نلاحظ

في هذا الصدد أن هذه الشكاوى والمظالم قد بلغت ذروتها (سواء كانت مظالم وشكاوى حقيقية، أم كانت مجرد ادعاءات باطلة) أثناء ثورة سنة ١٧٩٥ . ولقد تأثرت الثورة على نحو ما بالاحداث المعاصرة، خاصة حرب الاستقلال الأميركية، والثورة الفرنسية، فكلاهما قد اتخذ مبدأ الحرية مدعاة للكفاح.

وعندما استعمر البريطانيون الكيب للمرّة الأولى سنة ١٧٩٥، قرروا أن غرضهم من ذلك هو منع سقوط المستعمرة في قبضة فرنسا، التي كانت بريطانيا في صِراع معها (أثناء الحروب النابليونية الشهيرة). أما في المرة الثانية، فقد كانت إمكانية احتلال المستعمرة مشابهة لما حدث أثناء الاستعمار البريطاني الأول لها، فقد كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد تم حلّها، فقامت بريطانيا باحتلال المستعمرة لقيمتها الإستراتيجية، حيث تقع في منتصف الطريق الطويل المؤدي إلى الشرق؛ حيث الامبراطورية البريطانية في الهند، ذات القيمة الكبيرة. فلم تكن الإدارة البريطانية الجديدة متحرّرة Liberal ولا كانت تقدمية Progressive. وإنما كان هذا شائعاً فقط بين مؤيدي الحاكم الهولندي، الأمير أورانج Orange. فَلَم تبذل بريطانيا محاولات جادة لازاحة العوائق القديمة أو لتحسين إدارة المنطقة (المستعمرة) رغم أن الإنجليز شغلوا المناصب العليا. كان هذا هو الوضع عندما أنهى صلح إميان سنة ١٨٠٢، الحكم البريطاني للكيب. وفي فبراير سنة ١٨٠٣ حلّت جمهورية باتافيا محل بريطانيا كسلطة إدارية وفقاً لبنود معاهدة إميان، تلك المعاهدة التي أنهت المرحلة الأولى من الحروب النابليونية التي حاول فيها الامبراطور الفرنسي نابليون أن يلعب دوراً مميزاً في محاولة إخضاع أوروبا كلها.

الكيب تحت حكم جمهورية باتافيا (١٨٠٣ - ١٨٠٥) :

رغم أن جمهورية باتافيا كانت مسؤولة عن مستعمرة الكيب لفترة لم تزد على السنوات الثلاث، إلا أنها نجحت في إحراز إصلاحات هامة في كثير من الأمور الحياتية بجعلها الإدارة أكثر فعالية وأقل جموداً. وكان على رأس الإدارة الجديدة الليفتنانت جنرال جان وليم جانسن Lieutenant — General Jan

William Janssens ، كحاكم عام للمستعمرة، وجاكوب أبراهام دي مِسْت Jacob Abrajam de Mist كمفوّض عام Commissioner — General وشغل الباتافيون (الهولنديون) المناصب العليا والهامة، بينما احتفظ الانجليز بوظائفهم المدنية كموظفين ثانويين Subordinate Staff.

ومن بين إصلاحات كثيرة قام بها الحكم الباتافي، وجدنا أن الإدارة الجديدة قد قامت بإصلاح النظام القضائي Judical System بإنشاء المحكمة العليا، كسلطة مستقلة عن السلطة التنفيذية، كما أزالت القيود التي كانت تعوق التجارة فوجدنا نتيجة ذلك أن المستعمرة وتجارها أصبح في إمكانهم أن يتاجروا داخل باتافيا نفسها وفي كل المناطق التابعة لها، كما قامت حكومة المتسعمرة بمنح أراض للهوتنتوت وشجعت سياسة المعاملة الانسانية للعمّال غير البيض. كما أنها ـ أي حكومة الكيب الباتافية ـ كانت تستحسن قيام البيض بالأعمال بأنفسهم بدلاً من الاعتماد على عمل العبيد الذي كان أهالي المستعمرة البيض يحبذونه، بل ويدعمونه بإلحاح. أما عن حرية العبادة فقد شلمت كل المؤسسات الدينية، أما في المجال الاقتصادي فقد بدأت الحكومة مشروعات زراعية جديدة؛ فعلى سبيل المثال تم استيراد سلالة خراف جيدة من اسبانيا (Marino). وأخيراً، فقد أصلح الباتافيون الحكومة المحلية بإعادة تنظيم وتقسيم المراكز (المديريات) وتعيين ضابط إداري على رأس كل منها. وفي كل مديرية District كان ممثل الحكومة يُعرف باسم (Landdrost)، ويقوم هذا المُمثل بإنجاز مهام (وظائف) قضائية؛ فيعالج الحالات الاجرامية غير الكبيرة Minor ويعاقب العبيد. ويعاونه في ذلك ستة من كبار السن (الحكماء) إذا كانت الخلافات التي يبحثها ذات طابع مدني. وكان كل مركز (مديرية) مقسم إلى قطاعات Subdivision وعلى رأس كل قطاع موظف (ضابط) حكومي يعرف باسم (Veldkornet) وترجمتها الحرفية Field Carnet أو رأس الميدان (الحقل)، ومهمته حفظ السلام وفض المعارك الصغيرة إذا نشبت في قطاعه، وعموماً فإنه يقوم بدور حلقة اتصال بين الناس والحكومة.

الاحتلال البريطاني الثاني سنة ١٨٠٦ :

في مايو سنة ١٨٠٣، استأنفت بريطانيا حربها مع فرنسا، وأعقب هذا انتصارات فرنسية لم يسبق لها مثيل في أكثر أنحاء أوروبا. وقد استمرت الحرب حتى سنة ١٨١٥ حيث حلّ السلام. ولتمنع بريطانيا عدوتها فرنسا، وهولندا المتحالفة معها، من عرقلة تجارتها ـ أي التجارة البريطانية ـ البحرية المُرْبحة مع الهند، عبر الكيب، أرسلت بريطانيا في سنة ١٨٠٦، ٦١ باخرة حربية بقيادة الجنرال بيرد Baird فاستولى على الكيب دون أن يلقى مقاومة كبيرة. ورغم أن القوات البريطانية قد احتلت مستعمرة الكيب سنة ١٨٠٦، إلّا أنها لم تضمها ضماً فعلياً رسمياً حتى سنة ١٨١٤، وكان هذا جزءاً من مباحث مؤتمر فينا، ذلك المؤتمر الموسَّع، الذي عقد عقب هزيمة نابليون وإنهيار امبراطوريته. ولقد عقد هذا المؤتمر في فينا عاصمة النمسا من أكتوبر سنة ١٨١٤ إلى فبراير سنة ١٨١٥ حيث توصل المؤتمرون إلى قراراتهم، ولقد حضر هذا المؤتمر لفيف من الشخصيات البارزة من مختلف أنحاء أوروبا.

لقد كانت الإدارة البريطانية التي تولت أمور الكيب منذ سنة ١٨٠٦ متحفظة وأقل تقدمية من الإدارة الباتافية، وكان هذا على الأقل خلال العشرين سنة الأوَل. فعلى سبيل المثال، نجد أنه حتى سنة ١٨٢٥ كان الحاكم يُمارس سلطات واسعة. إذ كان يشرِّع للمستعمرة، ويُنشىء الوظائف، ويُنهي خدمات الموظفين الحكوميين، ويحكم في الدعاوى الجنائية والمدنية. وباستثناء التغييرات التشريعية الكبرى، كإنشاء المحاكم الدائرية الدورية(*) سنة ١٨١١، فقد ظل النظام القضائي كما كان أيام الحكم الهولندي، كما ظل القضاء معتمداً على القانون الروماني ـ الهولندي كأساس للأحكام كما كان قبل ذلك. ومرّة أخرى،

(*) المحاكم الدائرية أو الدورية أو الدائرية الدورية Circuit Courts، هي محاكم تمارس مهامها في عدد من المقاطعات أو الولايات أو المديريات، وتعقد جلساتها بطريق التناوب في مقاطعة (مديرية أو وحدة إدارية) بعد أخرى، ويسمى القاضي في هذه المحاكم باسم قاضي المحكمة الدورية Circuit Judge (المترجم) انظر: Faruqui.s Law Dictionary Art: Circuit Court.

نذكر أنه باستثناء إنشاء محاكم جزئية إضافية في انحاء المستعمرة، فإن كل شيء بقي على حاله كما كان قبل الحكم الإنجليزي. وبالنسبة للحكم المحلّي، فإن مجلس الشيوخ Burger Senate القديم في مدينة الكيب قد استمر في أداء مهامه كمجلس مدينة. وعموماً لم يكن هناك إلّا تحسُّن طفيف جداً لا يكاد يُذكر، فقد استمر الاقتصاد على ضعفه، رغم التجارب الزراعية الجديدة في مضمار الماشية والخيول وانتاج الصوف.

الاصلاحات البريطانية حتى سنة ١٨٣٤ :

١ ـ الاقتصاد :

ابتداء من سنة ١٨٢٤، تحسنت الإدارة البريطانية وقدَّمت إصلاحات هامة متعددة. فلتحسين الوضع المالي والاقتصادي المضطرب والمشوّش، أدخلت بريطانيا في سنة ١٨٢٥ للمستعمرة نقوداً ورقية جديدة، معتمدة على فئات العملة الإنجليزية، لتحل محل العملات الورقية القديمة التي كانت قيمتها تدنت تدنياً كبيراً. واقترن هذا بخفض الرواتب الحكومية بما في ذلك راتب الحاكم الذي لم يعد يزيد على ١٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً في السنة. وفي نفس الوقت قلّصت الحكومة عدد المشروعات العامة، كما خفضت المربوط المالي لها في الموازنة. وحتّى السياسة المبنية على تقديم إعانات مالية لمن سيهاجرون إلى الكيب مستقبلاً تم إلغاؤها. ورغم كل هذا لم يكن ثمة تحسّن سريع وظل اقتصاد المستعمرة ضعيفاً.

٢ ـ الكنيسة :

ابتداء من سنة ١٨٢٤ فصاعداً حصلت الكنيسة الاصلاحية الهولندية The Dutch Reformed Church على قدر من الحرية، وكان هذا واضحاً في الفترة من ١٨٢٦ إلى ١٨٢٨، عندما توقف ممثلو الحكومة عن حضور اجتماع مجلس الكنيسة (The Synod) كما أعطى حق العبادة وممارسة الشعائر للأروام الكاثوليك بالإضافة لسائر الحقوق المدنية اعتباراً من سنة ١٨٢٠، وزادت

حِصَّتهم وتحسَّنت أوضاعهم بسرعة عندما قررت الحكومة أن تدفع لقُسُسِهم نفس المزايا التي تتمتع بها الفئات الدينية الأخرى. وعموماً فقد تحسن وضع الكنيسة وشمل مبدأ حرية العبادة كل الفئات الدينية.

٣ ـ اللغة :

في سنة ١٨٢٢ صدر قرار بأن تحل اللغة الانجليزية كلغة رسمية محل الهولندية بشكل تدريجي. واستمرت فترة الانتقال حتى سنة ١٨٢٨ عندما أضحت اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية، رغم ملاحظة أن الجريدة الرسمية The Official Gazette استمرت في الصدور باللغتين. وكما سنرى في الفصل الرابع من هذا الكتاب، فإن قضية اللغة كانت أحد العوامل الرئيسية التي أسهمت في حركة الهجرة الكبرى The Great Trek. خاصة وأن الفلاحين البوير في الداخل كانت معرفتهم بالإنجليزية محدودة تماماً، وكانت غالبيتهم غير سعيدة باتخاذ الإنجليزية لساناً لهم.

٤ ـ الصحافة :

خلال هذه الفترة، أظهرت الحكومة ميلها المتزايد للحرية، بإزالة بعض العقبات والقيود القديمة التي كانت مفروضة على الصحافة. فابتداء من ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٨ تم تعديل التشريعات التي تحكم طباعة الصحف لتمكين الطباعين من ممارسة عملهم بدون صعوبات غير ضرورية. كجعلهم عُرضة للوقوع تحت طائلة قوانين القدح والتشهير من خلال المنشورات Laws of Libel(*) فكل الطبّاعين المعنيين كان يتحتم عليهم إيداع ٣٠٠ جنيه استرليني بالإضافة إلى ضمانة بمبلغ مثله بكفالة من معارفهم أو أصدقائهم. وبالإضافة إلى رسوم على كل الورق المطبوع.

(*) Libel تعني مواد جنحية متعلقة بالقذف والتشهير كتابة أو رسماً أو تصويراً أو بأي وسيلة من وسائل النشر، وكانت مثل هذه القوانين تجرِّم أيضاً الإساءة تلميحاً أو ضمناً أو بالإشارة أو بالرمز، ولا يشترط في ثبوت هذا التشهير وقوع ضرر على المعتدى عليه، وكان يدخل ضمن هذا القانون الإساءة لأشخاص متوفين أيضاً. وهكذا يتضح أن الحكومة في ظل مثل هذه القوانين قادرة على إلحاق الضرر بمن تريد. (المترجم)

CAPE TOWN.

Saturday, 25th *March*, 1820.

ARRIVALS and DEPARTURES.

Arrivals in Table Bay.

17 March, Chapman, Transport Ship, John Milbank, Master, from Gravesend 3d Dec. and St. Jago 16th Jan with 100 Men, 51 Women, and 92 Children, Settlers for the Cape of Good Hope. *Under Quarantine.*

Lieut. Cole, R.N. Agent for Transports.

Ditto, ditto, Nautilus, ditto Ship, Wm. Walton, Master, from ditto, ditto, with 57 Men, 44 Women, and 62 Children, Settlers for ditto. *Under Quarantine.*

Ditto, ditto, Eclipse, Eng. Ship, Jas. Stewart, Master, from Columbo and Point de Galle, 1st and 3d Feb. bound to London, cargo Sundries.

Passengers.—General *Sir* ROBERT BROWNRIGG, *Bart.* and *G.C.B.*, Lady BROWNRIGG, Lieut. Col. Hardy, 19th Regt. Deputy Qr. Mr. Gen. Dr. Davy, Physician to the Forces, Revd. G. Bissett, Captain King, Aide de Camp, Captain Page, 1st Ceylon Regt. Masters Sewell and Bayley, 2 Servants, 41 Invalids, 8 Women, and 3 Children.

وخلاصة القول أن الصحافة غدت أكثر حية عما كانت عليه في الماضي. ونتيجة لهذا طبع عدد من الصحف بالهولندية والإنجليزية، ومن بين الصحف الإنجليزية وجدنا جريدة جرهامستون Grahamston Journal وجريدة تهتم بالأمور التجارية Commercial Advertiser.

٥ ـ النظام القضائي:

خلال هذه الفترة تعرض النظام القضائي أيضاً لبعض التغيير الايجابي. وكان هذا نتيجة ميثاق العدالة الصادر في سنة ١٨٢٨ والذي أكمله ميثاق آخر صدر سنة ١٨٣٤. وأنشئت المحكمة العليا وأصبح تعيين القضاة يتم باسم التاج البريطاني. واستقل القضاة وبعبارة أخرى أصبح في إمكانهم الاحتفاظ بوظائفهم طالما لم يَعْثرِ مسلكهم كقضاة ما يشين، ولا تستطيع حكومة الكيب في هذه الحالة فصلهم. وهذا جعل القضاء أكثر مدعاة للثقة واكثر انضباطاً وعدالة. وأخيراً فإن القانون الجنائي الإنجليزي الذي كان أقل قسوة قد حل محل القانون الجنائي الهولندي ـ الروماني القديم Old Roman — Dutch Crminal Law رغم أن القضايا المدنية ظلت تعتمد على هذا القانون الروماني الهولندي.

٦ ـ الإدارة :

وفي المجال الإداري كان ثمة تغييرات مشابهة. فمنذ البداية الأولى للإدارة البريطانية، لم يكن الاستعماريون ليسمحوا بأية مطالبات أو اقتراحات هامة لتطوير الاقليم، فقد كان الإنجليز ينظرون لهم كشعب مهزوم يتحتم حكمه بحزم. ومهما يكن، فقد كان من الضروري صبغ الإدارة بقدر من الحرية، وتخفيف القبضة، وحتى عندما بدأ هذا التغيير يحدث، فقد كان تدريجياً، ولم يتسم بالراديكالية، وقد كان أهالي المستعمرة البيض أنفسهم يطالبون بصخب بتأسيس حكومة يكونون هم ممثّلين فيها. وقد تم التعبير عن هذه المطالبة بفاعلية من خلال صفحات جريدة The Commercial

Advertiser . وعلى هذا، فعندما بدأ إدخال الاصلاحات الإدارية استجابت الحكومة الإنجليزية إلى حد ما للمطالب المحلية. ففي سنة ١٨٢٦ ، على سبيل المثال وجدنا عضوين من أعضاء مجلس شيوخ مدينة الكيب Burgher Senate الذي يمارس عمله كمجلس للمدينة المذكورة، يتخليان عن معارضتهما لسياسة الحكومة فيما يتعلق بالعبيد. وكان هذا عقب التماس محلي لاستبدالهما بعضوين آخرين منتخبين، وهو الأمر الذي رفضته السلطات. كما رُفض طلب مشابه مقدم للبرلمان البريطاني لإنشاء هيئة تمثيل (هيئة نواب) . ورغم أن الحكومة البريطانية في هذه المرحلة كانت ترى أن مستعمرة الكيب لم تتهيّأ بعد ليكون لها حكومة تمثيل (لها برلمان منتخب) Representative Government، إلاّ أنـها أدخلت بعض التغييرات المحدودة. ففي زمن يرجع إلى سنة ١٨٢٥، على سبيل المثال تم تأسيس مجلس استشاري Advisory Council في مدينة الكيب. وكان هذا المجلس يضم بالإضافة لآخرين، الحاكم ورئيس القضاة Chief Justice. وكانت مهام هذا المجلس استشارية في الاساس بمعنى توجيه النُصح للحكومة،ويحق للحاكم الاعراض عن هذا النصح. وفي سنة ١٨٢٧ مُنح أهالي المستعمرة من البيض Colonists امتيازاً آخر، ممثلاً في مقعدين لهم في نفس المجلس الاستشاري. ومهما يكن، فإن هذا الاجراء لم يَحُز رضا أهالي المستعمرة البيض لأن المقعدين المشار إليهما كانا يشغلان بعضـوَيْن معيَّنيْن من قِبَـل الحكومة. وهنا، فإنهم لم يكفوا عن ترديد الشعار الشهير الذي استخدمه المواطنون الإنجليز في مستعمراتهم بأمريكا الشمالية (لا ضرائب بلا موافقة) وكان الشعار الأمريكي الأصلي هو (لا ضرائب بدون تمثيل No Taxation Withaut Representation) ورغم تطور المناداة بالتمثيل البرلماني، فقد ظلت الحكومة البريطانية لفترة عازفة عن تقديم أية امتيازات جوهرية، فلم تحدث تغييرات دستورية هامة قبل سنة ١٨٣٤. ففي هذا العام تم إدخال نظام المجلس التشريعي Legislative Council لمستعمرة الكيب، وكان هذا المجلس الموسّع يتكون من مجلس تشريعي وآخر تنفيذي، وقد حل المجلس التنفيذي محل المجلس الاستشاري القديم، وكان هذا المجلس التنفيذي يضم الحاكم

وأربعة من القيادات الإدارية بالمستعمرة. أما المجلس التشريعي فيتكون من أعضاء من المجلس التنفيذي والنائب العام وعدداً يتراوح ما بين خمسة وسبعة أعضاء معينين وكان مخولاً في مناقشة اللوائح واعتماد القوانين.

* * *

وبينما كانت هذه التطورات تتخذ طريقها للتنفيذ، زادت الاصطدامات بين أهالي المستعمرة البيض والبانتو حدّة. وقد مهدت حروب المفيسن Mfecane الطريق للهجرة الكبرى Great Trek، فهذه الحروب قد أدت إلى اهلاك عشر سكان جنوب أفريقيا الأفريقيين، وأضعفتهم وشتتهم (راجع في هذا الفصل الخامس) غير أنه قبل هذه الأحداث بمدة طويلة كان البوير الذين يعيشون على حدود مستعمرة الكيب، والذين حصلوا على مزيد من الأراضي في المراكز (المديريات) القَصِبّة، قد اصطدموا في عدد من المناسبات بالأفريقيين وطردوهم من جانب من أراضيهم. غير أن الإكزوسا (الكزوسا) Xhosa كانوا استثناء من الجماعات الأفريقية التي اعتدى عليها البوير، فقد كان الإكزوسا أولى بأس شديد وتصدوا بحزم عند الاقتراب من أراضهم، وهزموهم سنة ١٨٠٣، ونتيجة لهذا كانت المنطقة الممتدة بين نهر الفِش Fish River (*)، ونهر الصنداي(**) Sunday River منطقة خاصة بهم، ليس فقط بحق وضع اليد، أو الشغل الفعلي للمنطقة، وإنما بحق الفتح(***).

ومهما كان الأمر فإن حكومة المستعمرة قد مدّت (وسّعت) حدود المستعمرة سنة ١٨١٢، وكان الهدف من ذلك هو خلق منطقة عازلة بين المستعمرة، والإكزوسا باعتبارهم جماعات محاربة من الطراز الأول. وكان هذا الاجراء، باعثاً للأمل، لتقوية النظام الدفاعي للمستعمرة. وقد عُرفت المنطقة الجديدة التي تم ضمها باسم الزورفلد The Zuurveld التي كان يشغلها حوالي

(*) ترجمته الحرفية نهر السمك، لكننا آثرنا كتابه اسم النهر كما هو.

(**) ترجمته الحرفية نهر الأحد.

(***) ربما يقصد المؤلف الحق الناتج عن انتصارهم على البوير في بواكير سنة ١٨٠٣.

٢٠,٠٠٠ من جماعات ندالمبى Ndhlambi والجونوكويبى Gunukwebe، وقد تم إجلاء هذه الجماعات بالقوة. وقد كان إخلاء وتحصين الزوروفلد، مجرد بداية لمشروع طموح، فبعد انتهاء الحروب النابليونية سنة ١٨١٥ قررت الحكومة البريطانية أن تسمح باستقرار بعض الراغبين في منطقة الزوروفلد. فقد كان هناك عدد من البريطانيين العاطلين والبؤساء بعد الحرب، وكان كثيرون راغبين في أن تتاح لهم الفرص ليبدأوا حياة جديدة فيها وراء البحار. وفي سنة ١٨١٩ تم تخصيص ٥٠,٠٠٠ جنيهاً استرليني لمساعدة الإنجليز الراغبين في الهجرة. ولتقنين المساعدات المستقبلية للمهاجرين، كان يتحتم أن يكونوا بالغين، وأن يكونوا من مجموعات لا تقل عن عشرة. وبصرف النظر عن العابرين، فإن كل مهاجر كان يُمنح ١٠٠ فدان انجليزي (أكر Acre) وقد وصلت أول دفعة من المهاجرين الإنجليز إلى خليج الجوا سنة ١٨٢٠ وانتشروا تدريجياً في الزوروفلد. وبحلول مايو سنة ١٨٢١ كان إجمالي المقيمين (رجالاً ونساءً وأطفالاً) في الزوروفلد، قد بلغ ٥,٠٠٠.

إطلاق اسم الباني Albany على الزوروفلد مرّة أخرى:

لقد أصبح المُسمّى الجديد للزوروفلد الآن هو الباني، أما ميناء اليزابث فقد أصبح هو المسمّى الجديد الذي حل محل ميناء فريدريك في خليج الجوا. وللمرّة الأولى كان هناك فلاحون بريطانيون في جنوب أفريقيا، أما قبل ذلك فكان كل عمل البريطانيين ببساطة أنهم يديرون المنطقة، أما الآن فقد وصل الفلاحون البريطانيون وهذا حدث هام لأنه عند إصدار التشريعات أصبح يتحتم على البريطانيين الآن أن يضعوا في اعتبارهم مصالح ورغبات المستوطنين الإنجليز، وبالتالي المستوطنين البوير. وبالفاظ أخرى يمكننا القول أن المستعمرة الآن أصبحت مستعمرة للمستوطنين البوير والمستوطنين البريطانيين Boers and Britons والحكم فيها للبريطانيين. وقد أثر هذا حقيقة في تلطيف وتعديل القوانين. وسوف نعود لهذه النقطة في الفصل الرابع.

ولسوء الحظ، فإن استيطان الإنجليز في ألباني لم يحل دون الاحتكاكات

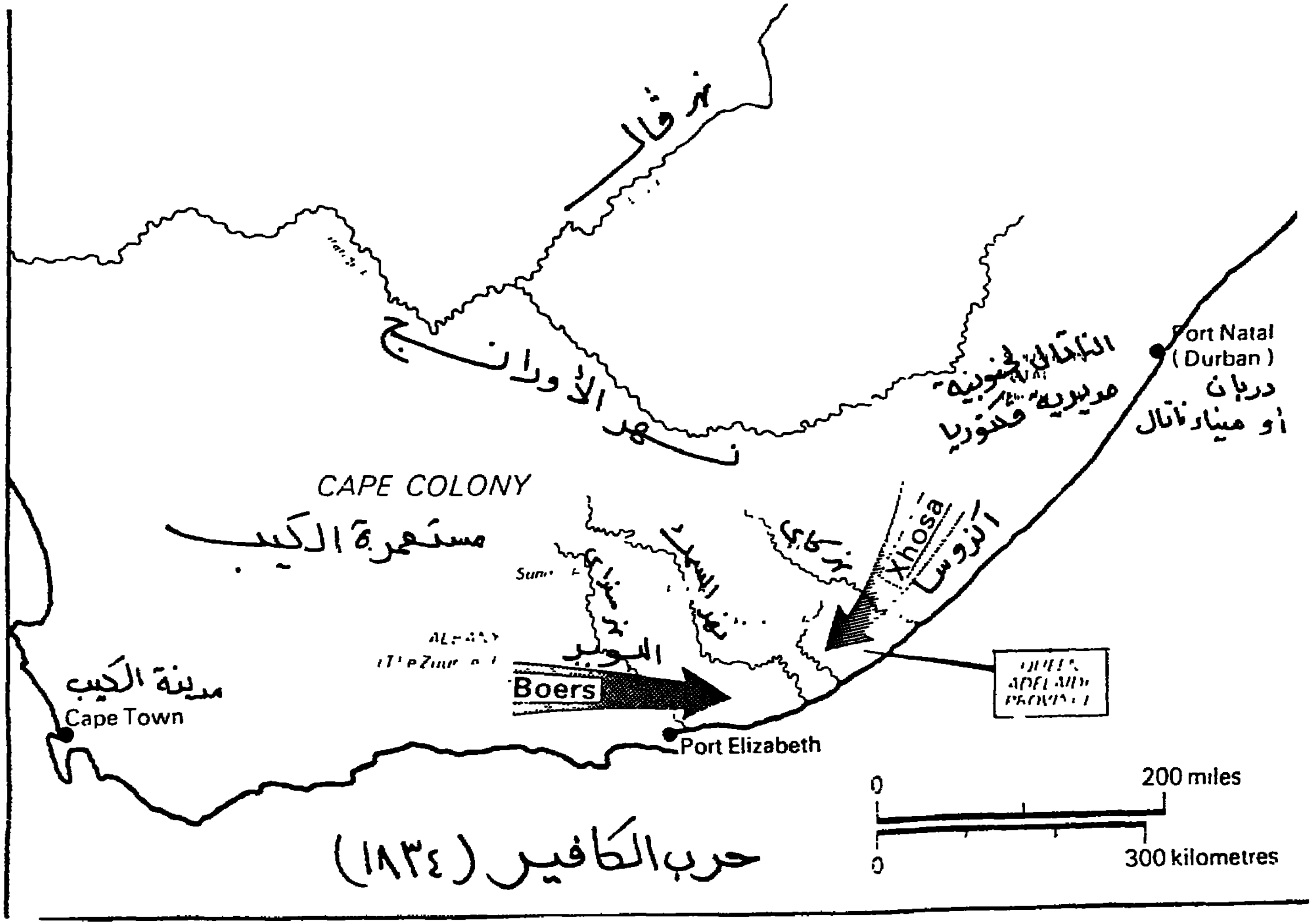
والمناوشات الحدودية مع الاكزوسا، كما أن الهدف الأساسي من مد الحدود لم يتحقق. فقد ظلت الصدامات مستمرة، وغالباً ما كان سبب هذه الصدامات، هو الأرض وسرقة الماشية، وما كان يقوم به المستوطنون البيض من البوير والإنجليز من أعمال ثأرية وانتقامية، ونفس الشيء كان يفعله الإكزوسا.

حرب الكافير Kaffir سنة ١٨٣٤ :

وقد كانت حرب الكافير بين البوير والاكزوسا سنة ١٨٣٤ هي أكثر هذه الصراعات جدارة بالذكر. وكان سبب هذه الحرب هو سرقة الماشية، فقد اثبت الاكزوسا الذين يعيشون بين نهري الكيزكاما والفِش Keiskama and Fish أنهم خبراء في سرقة الماشية، غير أن البوير كانوا مشغوفين بالاستيلاء على الأرض والماشية من الأفريقيين. لهذا فقد تعاقبت الغارات والغارات المضادة، لكن الاكزوسا هُزموا في خاتمة المطاف وأُخرجوا من ديارهم. لقد كانت هذه الحرب مدمرة تماماً، فقد قُتل فيها خلق كثير وضاعت أموال وممتلكات سواء نتيجة تدميرها أم نهبها. ففي ٢١ ديسمبر ١٨٣٤ على سبيل المثال، ثار الاكزوسا لأنفسهم من استيلاء البيض على بعض الماشية المملوكة لتيالي Tyali، ابن الزعيم السابق جايكا Gaika وكان ثأراً له عواقب وخيمة. لقد كان استيلاء البيض على ماشية الاكزوس مقصوداً منه أن يكون إجراء عقابياً لقيامهم ـ أي الاكزوسا ـ بسرقة ماشية البيض في زمن سابق. ولقد انقَضَّ ما بين ١٢,٠٠٠ و٢٠,٠٠٠ من الإكزوسا المحاربين على المستوطنين البيض فأمعنوا فيهم قتلاً، وأحرقوا منازلهم واستولوا على بعض ممتلكاتهم ودمروا البعض الآخر. وبالإضافة لهذا، فقد ساقوا كل ماشيتهم إلى شرق نهر صنداي Sun-day River. وتجمع الروايات المعاصرة على أن الثروات التي تلفت نتيجة غارات الإكزوسا قد بلغت في هذه الفترة حوالي ٣٠٠,٠٠٠ جنيهاً استرليني.

ضم ولاية الأميرة (الملكة) أديلادي Adelaide :

خلال هذه الفترة الحرجة، قدم المستوطنون البيض مساعدات فعّالة



حرب الكافير (١٨٣٤)

لحاكم المستعمرة بنيامين دربان Benjamin D'urban في حربه ضد الاكزوسا. لقد كان بنيامين يهدف إلى دفع كل البانتو خلف نهر الكاي Kei River لضمان أمن المستوطنين. فلم تكن مساعدات المستوطنين له عبثاً، فعندما انتهت حرب الكافير، ألحق دربان المنطقة بين نهري كايسكاما وكاي، كمديرية جديدة باسم مديرية الملكة أديلادي Adelaide، وتم طرد الاكزوسا وكل الجماعات الأفريقية المحلية من هذه المديرية الجديدة، التي أصبحت الاقامة فيها قصراً على الأوروبيين.

على أية حال، فوفقاً لاتفاقية سبتمبر ١٨٣٥ التي أنهت الحرب، كان يمكن لزعماء الاكزوسا ورعاياهم أن يقيموا في المديرية الجديدة في حالة التزامهم بالمحافظة على السلام واحترام قوانين المستعمرة ونزع سلاحهم وألا ينخرطوا في نشاطات سرقة المواشي ولا يشجعوا القائمين بذلك، وأن يكونوا رعايا بريطانيين. ولم يكن الاكزوسا ليحصلوا عى هذه المزايا البسيطة إلا لأسباب يرجع بعضها إلى حقيقة أن الارساليين كانوا ينتقدون سياسة دربان القاضية بإخراج الأفريقيين من أراضيهم، ويرجع بعضها الآخر إلى أن الزولو Zulu والشعوب الأفريقية الأخرى التي سكنت الأراضي (المناطق) التي كان على الأكزوسا أن ينتقلوا إليها، لم تكن لتسمح لهم، - أي للإكزوسا - بالعيش عليها، ومع هذا فقد مُنع الاكزوسا من الاستقرار في الأراضي (المناطق) الواقعة إلى الجنوب من نهر كاي Kei التي كانت قصراً على الأوروبيين.

ضَم الناتال الجنوبيّة :

أعقب اتفاقية ١٨٣٥، التوقيع على معاهدات صداقة مع عدد من الزعماء الأفريقيين Chiefs، وكان أهم هذه المعاهدات، تلك التي تم توقيعها مع موهيش Mohesh زعيم الباسوتو Basuto، ودنجان Dingane زعيم الزولو Zulu. ووفقاً لمعاهدة الصداقة التي وُقعت بين دنجان والكابتن ألن جاردنر Allen Gardiner تنازل زعيم الزولو عن جنوب الناتال لجاردنر. وكان هذا في مقابل وعدٍ من جاردنر بإعادة كل الزولو اللاجئين إلى المناطق التي يحكمها.

وبعد هذا، غيّر جاردنر اسم الناتال الجنوبية، إلى ولاية (مديرية) فكتوريا، كما سمّى المستوطنة الصغيرة على الساحل باسم ميناء دربان Durban. وأخيراً فإن جاردنر (الذي كان قد ذهب إلى بلاد الزولو لتأسيس محطة إرسالية) قد قام بتسليم الولاية (المديرية) الجديدة للحاكم دربان. وكما سنرى في الفصل التالي فإن الحكومة البريطانية قد رفضت التصديق على ضم (ولاية) الملكة أديلادي Adelaide ومديرية (ولاية) الناتال، رغم أن الحاكم دربان هو الذي قدم اقتراح الضم. وكان هذا أحد الأسباب الهامة التي عجّلت بالهجرة الكبرى.

دربان والمستوطنون البيض Colonists :

ولقد أدى رفض الحكومة البريطانية لسياسة ضم (إلحاق) مناطق جديدة بالمستعمرة إلى تعاطف المستوطنين البيض مع دربان، فقد أحسوا أنه يدافع عن مصالحهم. كما كانت صورة الحاكم الحسنة قد ترسّخت بين المستوطنين نظراً لأنه هو الذي بدأ دستور سنة ١٨٣٤ الجديد الذي كان علامة ميزت بداية التطورات الدستورية القوية، كما سبق أن طالعنا. وكان دربان قد حاول أيضاً ضغط الانفاق العام بخفض رواتب الموظفين العموميين ودمج بعض الإدارات الحكومية، وتقليص الاعتماد الحكومي المخصص للطرق والجسور والمشروعات العامة. وبهذه الطريقة كان من المأمول أن تظهر المستعمرة ككيان مكتف ذاتياً اكتفاء حقيقياً بدلاً من الاعتماد على بريطانيا.

وبالرغم من أن الحاكم قد تلقى تعليمات من الحكومة البريطانية لتحرير العبيد، وألا يعمل في حدود «نظام وطني» Native System أي لا يجعل هدفه إرضاء النزعات الوطنية للمستوطنين، إلا أن تعليمات دربان بإنشاء المؤسسات الحكومية والبلدية المحلية قد ربطته بالمستوطنين وجعلت منه شخصية شعبية بينهم. والواقع أن الظروف قد كانت إلى جانب دربان نظراً لارتباط المستوطنين به، وعلى عكس ذلك، كان رفض الحكومة البريطانية لضم المديريتين (المنطقتين) الجديدتين اللتين اقترح دربان ضمهما ـ جعل المستوطنين ينظرون إليها (أي للحكومة البريطانية) بسوء ظن، وغضب وفزع.

الإرساليون والأفريقيون والمستوطنون البيض :

بينما كانت هذه التطورات تتفاعل، كان الخلاف يتزايد بين المستوطنين والارساليين. وكان منشأ هذاالخلاف بسيطاً. فقد كان المستوطنون يضجون بالمطالبة بمبادىء المساواة والأخوة والحرية، ولكنهم يريدون قصر هذه المبادىء عند التطبيق عليهم (البوير) بالذات وعلى المستوطنين الأوروبيين الآخرين بوجه عام. ووفقاً لوجهة نظرهم فإنه لا مجال لطرح تطبيق هـذه المبادىء عـلى الأفريقيين أو غير البيض.

اتجاهات المستوطنين صوب الأفريقيين :

عملياً، كان كل ما يُطلق عليهم اسم العبيد، هم من الأفريقيين. وفيما يرى البوير كان أمراً لا يدعو للتفكير أن يأخذ سائر الأوروبيين بنصيبهم في استرقاق الأفريقيين، كما أخذوهم (أي البوير). وليس ثمة مشكلة على الأقل في أن يعيش العبيد تحت سقف واحد وفي نفس المنطقة مع سادتهم البيض. فمن خلال احتكاك البوير الباكر مع الأفريقيين يتضح أنهم ـ أي البوير ـ كانوا يستخفون بهم ويعتبرونهم أدنى درجة. فقد كان الأفريقيون لا يشكلون عنصراً مساوياً للأوروبيين وإنما عنصراً منحطاً، بينما كان البـويـر يعتبرون أنفسهم شعباً قد اختاره الله (جنساً مختاراً) وكـانـوا ينظرون إليهم كخدم للجنس المختار (البوير)، وكان البوير يرون أن الأفريقيين جنس اختاره الله للقيام بالأعمال الدنيا ولإنجاز ما شق وصعب من الأعمال، فقد جعل الله لقاء بين البيض وغير البيض لتحقيق هذاالغرض بحكمته. فقد شاعت العبارة التي مؤداها أن الأفريقيين لا قيمة لهم إلاّ في قطع الخشب وضخ المياه أو سحبها. ومن الناحية العقلية فإن هذا التفكير يشكل التواء وانحرافاً بالعقل، وهذا الانحراف في التفكير خلق مشكلة جوهرية هي المشكلة العنصرية، صاغت الحياة والتاريخ في جنوب أفريقيا. أما عن تأثير هذه المشكلة فسنناقشه في الفصل الثاني عشر.

النشاط الإرسالي بين الأفريقيين :

أما من جانب إرسالية لندن التبشيرية London Missionary So. وإرسالية كنيسة الأروام الكاثوليك والارسالية المورافية Moravian Brethern فقد احترمت قيم المساواة والإخاء والحرية، ولكنها - أي هذه الارساليات - على عكس البوير، كانت ترى تطبيقها على كل الجنس البشري، بيضاً وغير بيض . فبالنسبة للارساليين كان كل الناس سواء، فكلهم يجب أن يحظى بمعاملة إنسانية، ويحق له المطالبة بحقوقه الاساسية. وعلى هذا فبينما كان البوير يضطهدون السود، وجدنا الارساليين ينافحون عنهم ويطالبون بحقوقهم، وهذا الموقف أدى إلى نزاع بين الارساليين والبوير.

ومهما يكن، فلم تكن الارساليات جميعاً مدافعة عن حقوق غير البيض. فمن بين الاستثناءات البارزة، وجدنا إرسالية الكنيسة الاصلاحية الهولندية Dutch Reformed Church التي كانت هي الكنيسة الرسمية لمستعمرة الكيب، والتي اندرج الهولنديون في سلكها، ودعموها بالتالي في قضاياها الدينية والاجتماعية. وقد كان أحبار هذه الكنيسة يعتقدون ويبشرون من خلال العهد القديم مركزين على فكرة الشعب المختار، ويعنون بها البوير أنفسهم. لقد كانت الكنيسة الاصلاحية الهولندية تعتقد في مبدأ الجبر Predestination، وكان أتباع هذه الكنيسة يعتقدون أنهم هم الجنس المتفوق بالميلاد، وأن غير البيض هم جنس من الخدم. وكانوا يعتقدون أن رسالتهم هي الحفاظ على الحضارة الغربية (الحضارة البيضاء) رغم أنه كان هناك بعض الارساليين التابعين للكنيسة الاصلاحية الهولندية قد بذلوا محاولات لتحويل غير البيض للمسيحية والدفاع عن حقوقهم إلا أنهم كانوا أقلية غير مؤثرة فقد ظلت هذه الكنيسة على موقفها في مسألة العلاقات بين الأجناس.

وفي سنة ١٧٣٧، قام جورج شمدت George Schmidt ، وهو إرسالي تابع للإرسالية الألمانية الموارفية، بتأسيس مركز تبشيري في بافيان كلوف

Baviaanms Kloof . أما عام ١٨٠٢ فقد شهد إنشاء مركز تبشيري آخر هام في بثلزدورب Bethelsdorp بالقرب مما يعرف اليوم باسم ميناء اليزابث. وكان هذا انجازاً للدكتور فان دير كمب Van Der Kemp وهو هولندي كان عضواً في إرسالية لندن التبشيرية. وقد عاش دير كمب مع ثلاثة من أتباعه وعمل بين الهوتنتوت مبشراً بالإنجيل وقد تزوج امرأة ملوّنة كانت أمها رقيقاً. وكان ينظر للهوتنتوت كبشر من حقهم كل الحقوق المدنية كاملة، وليسوا مجرد متاع يمتلكه الآخرون كما كان يعتقد البوير.

وقد كان الدكتور جون فيليب John Philip إرسالياً آخر تابعاً لإرسالية لندن التبشيرية أيضاً، وقد بذل قصاري جهده للدفاع عن الحقوق المدنية لغير البيض. وقد وصل إلى جنوب أفريقيا سنة ١٨١٩ وعمل بين جماعات الجريكا والهوتنتوت والبانتو. وقد أظهر كل تشجيعه وأبدى إدانته الدينية لمعاملة غير البيض، وظل يشن هجوماً لا نهاية له على معاملة البيض للسود، وقد أكسبه ذلك عداوات كثيرة في دوائر البوير. وقد ناقش فكرة أن يعيش السود في ولايات (مديريات) غير تلك التي يعيش فيها البيض، حتى لا يتمكن البيض من استغلالهم وإحباط تقدمهم. ولقد زار لندن في ١٨٢٨ ولقى تأييداً من الإنجيليين الآخرين Evangelists، وبالذات من المنشقين على الكنيسة الإنجليزية Nonconformists. وفي نفس العام نشر كتابه الشهير «بحوث في جنوب أفريقيا» Researches in South Africa، وفي هذا الكتاب أعاد تأكيد هجومه على نظرة البيض للسود. لقد كان الدكتور فيليب مكروهاً بعمق من قِبل البوير لكثرة أحاديثه التي تفيض صراحة وجرأة، وكثرة إيراده للحجج الدامغة، وكان هذا من طبيعته، ولدفاعه الدائم عن السود مما جعله في نظرهم مسؤولاً عن صدور تشريع اللائحة الخمسينية 5 Th Ordinance التي أعادت الحقوق المدنية لغير البيض.

وثمة أسباب أخرى لاستمرار الصراع بين البوير والارساليين. فعلى سبيل المثال كانت إرساليات الكنيسة الاصلاحية غير الهولندية -Non — Dutch Re

formed Chureh Missionaries تعطي الحماية لأي أفريقي يتخلص من خدمة البيض إذا كان يلاقي في خدمته هذه صعوبة، أو لا يتلقى الأجر الكافي. وبالإضافة لهذا فإنهم كانوا يستمعون للشكاوى والمظالم التي يقدمها الخدم الآبقون ضد سادتهم البيض. وبسبب هذا التعاطف كانت المراكز التبشيرية ملجأ عاماً، أو هي بمثابة مساكن لأي ملوّن يحس بسخط على سادته البيض. وثمة عامل آخر هام لعدم الوئام بين المستوطنين البيض والإرساليين، إذ كان الإرساليون يقدمون لمن يلجأ إليهم نوعاً من التعليم. وقد كان المستوطنون البيض يعتقدون أن تعليم السود سيؤدي إلى نتيجة واحدة، هي أنه سيفسد الأفريقيين بجعلهم يعتقدون أنهم مساوون للبيض. وأكثر من هذا فإن ما يتلقونه من تعليم على يد الإرساليين قد يشجعهم على عدم خدمة البيض نظراً لأن هذا التعليم لا يُعدهم للخدمة، كما قد يدعوهم لرفض الأجور المنخفضة التي يتلقونها مقابل أعمالهم.

المحكمة الدورية (المتنقلة) :

لقد كان المستوطنون البيض ضجرين من كوْن الإرساليين دائبي الضغط لرفع الظلم عن الأفريقيين(*)، خاصة وأن المستوطنين كانوا ينظرون لإنشاءمحكمة طوّافة (جوّالة) وكانت تعرف بالمحكمة الدورية في سنة ١٨١١ للاستماع إلى شكاوى الأفريقيين ـ خاصة من الهوتنتوت ـ الذين يعملون في خدمة المستوطنين البيض. فلم يكن هذا النظام القضائي مكلفاً فحسب، وإنما كان على المتّهم الأبيض أن يذهب لمقر المحكمة على حسابه الخاص، لهذا فقد شعر المستوطنون البيض أنه نظام لم يسبق له مثيل وهو دعوة للملونين للعصيان وتحريض لهم على الشكوى ضد سادتهم البيض. وبالإضافة إلى أنه لم يكن مناسباً دائماً للفلاحين أن يحضروا جلسات المحكمة، وحتى عندما كانوا يحضرون فإن بعض البراهين (الأدلة) الموجهة ضدهم تكون غير مقنعة أو حتى غير موجودة.

(*) من الواضح أن هذا خطة لنشر المسيحية، كما سيتضح في أكثر من مكان في هذا البحث. (المترجم)

اللائحة الخمسينية :

وأخيراً، كما سنرى في الفصل القادم، تم اعتماد اللائحة الخمسينية سنة ١٨٢٨ التي أعادت الحقوق المدنية للهوتنتوت والبشمن والشعوب الملوّنة الأخرى غير المسترقة، وكانت هذه اللائحة مثار اعتراض كبير من السمتوطنين البيض. ففي بواكير سنة ١٨٠٩ صدر قانون الهوتنتوت واضعاً قيوداً على حركتهم. إذ لم يعد يجوز لهم الانتقال خارج ولايتهم (مديريتهم) دون إذن كتابي. وأخيراً صدر قانون آخر يُلزم كل طفل من الهوتنتوت، ولد وعاش في مزارع السيد الذي عمل عنده والداه لمدة سنوات ثمان، بأن يعمل بدوره في نفس المزرعة لمدة عشر سنوات كصبي متمرن (تحت التدريب) ولا جدال في أن هذه القيود كانت مثار امتعاض بالغ من الهوتنتوت، لهذا فقد استقبلوا استعادة حقوقهم في ظل اللائحة الخمسينية بفرح وحرارة بالغين. وكان من المعتقد أن الإرساليين وراء هذه اللائحة لدفاعهم عن حقوق الملوّنين، وكان البوير ينظرون للدكتور فيليب خاصة باعتباره القوّة المحرّكة وراء هذه اللائحة. وعلى هذا فقد كانت العلاقات السيئة بين هاتين المجموعتين من البيض تمثل اهتمامات ومصالح متصارعة.

فكما رأينا، فإن أحداث الفترة حتى سنة ١٨٣٤، قد مهّدت الطريق بفاعلية للهجرة الكبرى التي تسارعت وتضخّمت وتأثرت أحداثها وتأثيراتها، بالوقائع والأحداث المعقدة السابقة عليها.

الفصل الرابع

الزحف العظيم (الهجرة الكبرى)

سنهتم في هذا الفصل أساساً بأسباب ونتائج الهجرة الكبرى. ولعله من المناسب أن نقتبس في مستهل دراستنا لهذا الموضوع من ملاحظات بيت رتيف Piet Retief، أحد قادة الهجرة، في مرحلتها المشهورة:

«طالما رغبنا أن نقف مرفوعي الرأس في تقدير أخوتنا، فليكن معلوماً أننا ـ بالإضافة لأمور أخرى ـ مصممون أينما ذهبنا على تحقيق مبدأ الحرية العادل، ولكن بينما سنضع في اعتبارنا ألاّ يكون أحد في وضع العبودية، فإننا عازمون على استمرارية التنظيمات (القوانين) التي تمنع الجريمة وتُبقي العلاقات واضحة بين السيد والخادم... إننا لن نتحرّش بأي شعب، ولن نسلب أحداً أقل القليل من ممتلكاته، ولكن إذا هوجمنا، فسوف يكون لنا كل الحق في الدفاع عن أنفسنا بأقصى ما نملك من قدرة... إننا نرغب أن يكون معلوماً للقبائل الأفريقية أن غايتنا ورغبتنا هي أن نعيش في سلام وصداقة معهم... لقد هجرنا هذه المستعمرة مع وعد أكيد مؤداه أن الحكومة البريطانية لن تفعل أكثر مما فعلت لملاحقتنا، وأنها سوف تسمح لنا بحكم أنفسنا دون تدخل منها في شؤوننا مستقبلاً»[1].

ومن خلال هذه الملاحظات القليلة لواحد من القادة الرئيسيين لحركة

---

(١) أخذنا هذا الاقتباس عن:
E.A. Walker: The Great Trek, Adam and Charles Black, London, 1948.P.105.

الهجرة الكبرى يتضح أن هذه الهجرة كانت تكمن خلفها عوامل مختلفة. لهذا كانت وقائعها وتأثيراتها في غاية التعقيد. ومن بين المسبِّبات الكبرى للهجرة يمكن تمييز العوامل التي كانت فاعلة مؤثرة منذ الاستقرار الأوروبي في مستعمرة الكيب وطوال المدة حتى قبيل الهجرة حيث كثرت المظالم. ولم يكن الزحف نَفْسه ظاهرة جديدة في تاريخ جنوب أفريقيا منذ أواخر القرن السابع عشر حتى بواكير القرن العشرين، وإنما كان جزءاً من التوسع التدريجي عبر الحدود، فلم تكن الحدود ثابتة أبداً في أي وقت من الأوقات طوال هذه الفترة.

المسببات طويلة الأمد :

في البداية ، سنبدأ بالمسببات طويلة الأمد، حيث سنهتم بالعوامل التي تفاعلت عبر السنين فجعلت من الممكن ـ وأحياناً من الضروري ـ بالنسبة للمستوطنين البيض أن يمدوا (يوسِّعوا) منطقة استيطانهم الأساسية بالهجرة إلى مناطق جديدة. ففي بعض الأحيان كان المستوطنون ـ خاصة أولئك القاطنين على الحدود ـ يوسعون المنطقة التي يشغلونها ببساطة. وقد كان من المحتمل أن يُنظر لهذا على أنه عملية توسيع حدودية تتم لصالح المستعمرة بتدريج وإصرار، مع أن الحدود قد وضعت كحد للهجرة من منطقة لأخرى، وقد كان هذا المد (الزحف) الحدودي يصل ـ ربما ـ لبضعة أميال.

وفي الفصل الثالث ناقشنا بعض العوامل التي حتمت على مستعمرة الكيب ومكنتها من التوسع. فقد رأينا كيف أن إمكانية الحصول على مساحات غير محددة من الأراضي، قد شجعت المستوطنين على الاستحواذ على عقارات وممتلكات عديدة. وعلى هذا، ففي سنة ١٨٣٦ عندما حدث الزحف العظيم (الهجرة الكبرى) كان المستوطنون قد ألفوا من زمن مسألة الزحف هذه، فقد كانوا يمتلكون روح المغامرة، وتعودوا على الهجرة ـ أحياناً من المستعمرة إلى المناطق المجاورة ثم العودة كرّة أخرى للمستعمرة ـ وبعبارة أخرى كان اتساع المنطقة وقلة عدد المستوطنين، من العوامل التي جعلت البوير مهاجرين بطبعهم.

وقد قوى من هذا الانتحاء (الهجرة) الخاص لدى البوير أنهم في الغالب كانوا رعاة، وبالتالي أكثر بداوة من المقيمين. فقد كانوا يهاجرون بشكل متكرر. فكلما غدت المراعي القديمة فقيرة قليلة الكلأ، كلما كان حصولهم على مراع أخرى في منطقة أخرى أمراً ضرورياً. فتداخل عوامل ثلاثة هي ـ أسلوب الحياة، والزراعة الرعوية، واتساع المنطقة والميل للهجرة نتيجة كل هذا ـ كل هذه العوامل مهدت الطريق عندما أتى الوقت المناسب، لهذا الحدث الجَلَلْ، ونعني به الزحف العظيم (الهجرة الكبرى).

ورغم أهمية هذه العوامل الطويلة الأمد في إحداث الزحف العظيم، إلا أنه كان ثمة أحداث متتابعة هي التي أدت مباشرة لهذا الزحف، لكن قبل أن نتعرض لبعض العوامل المباشرة لهذا الزحف، يجب أن نشير إلى أن هذا الزحف كان متفرِّداً ومختلفاً عن الهجرات أو التحركات السابقة، والتي ناقشناها منذ قليل. كما أن هذاالزحف يختلف في نوعيته وحجمه عن التوسع الذي شهده القرنان السابقان. فقد كان الزحف العظيم يمثل هجرة عظمى بأعداد كبيرة ، كما كان منظَّماً وله قيادة، كما أن الزاحفين ـ بعكس الهجرات السابقة ـ الذين تحركوا سنة ١٨٣٥، كانوا لا ينتوون ولا يرغبون في العودة لمستعمرة الكيب. لقد كانوا آملين في تأسيس وطن جديد حيث يكون في إمكانهم تسيير أمور حياتهم بقيادة حكومة منهم، بعيداً عن هيمنة الإدارة البريطانية في جنوب أفريقيا وفي بريطانيا ذاتها.

المسبِّبات المباشرة :

بينما كان قادة الزحف وكثيرون من الزاحفين (المهاجرين) في حاجة إلى بواعث ودوافع أكثر وضوحاً ودقة لينضموا للزحف، كان هناك من زحفوا (هاجروا) ببساطة دون بحث عن دوافع واضحة، ذلك أنهم كانوا ببساطة راغبين في الهجرة أو لأن الهجرة أو الزحف كان بِدْعة (مودة) الوقت. فعندما رأوا جيرانهم وأقاربهم وأصداقاءهم يهاجرون قرروا هم بالتالي حزم امتعتهم والهجرة. كما أن آخرين هاجروا لأن فكرة الهجرة كانت بالنسبة لهم فاتنة

ساحرة، فهي رحلة للمجهول. فكثير من الناس يحبون المغامرة وهم على هذا يهاجرون في ظل أية ظروف، سواء حاق بهم ظلم أو لم يحق.

أ ـ التحيز العنصري :

لقد كان البوير في طبعهم واتجاههم المتطرف يحتم قيام الزحف أو الهجرة الكبرى، إذ كانوا يعتقدون أنهم جنس مختار، أي أنهم شعب الله اصطفاه لنفسه، لأداء واجب واضح إزاء الله ثم إزاء البشرية لحفظ تراثهم وحضارتهم (ثقافتهم)(*) لذا كانوا ملتزمين إزاء أنفسهم بحفظ جنسهم (جنسهم) والنأي به عن الاختلاط بالأجناس الأخرى وبالذات الأجناس الملوّنة. ولهذا فقد كان البوير ينظرون للزحف العظيم على أنه أمر يتيح لهم الفرصة للاحتفاظ بنقاء عنصرهم وثقافتهم وذلك بايجاد وطن جديد في منطقة جديدة يديرونه ويحكمونه بأنفسهم، لهذا كان البوير يعتقدون أنهم بانضمامهم للزحف إنما يؤدون رسالة مقدسة لحفظ شعب الله المختار من التلوث باختلاطه بالعناصر المنحطة والعناصر غير المسيحية. وبسبب هذه المعتقدات، لا مجال لدهشتنا إذا وجدنا البوير يمتعضون من أية محاولة قامت بها الحكومة لادخال إجراءات من شأنها تحسين أوضاع الملوّنين، فقد عارضوا بشدة محاولات الحكومة تقديم مزيد من الحرية والحقوق المدنية للهوتنتوت والمولّدين. وزاد غضبهم على الحكومة بسبب قضية تحرير العبيد. إذ كانت هذه الإجراءات تعني في رأي البوير محاولة من الحكومة لمساواتهم بالملونيين والعبيد أو العبيد الآبقين. ولا شيء أفظع من هذا؟ ألم يجعلهم الله جل جلاله شعبه المختار؟ ألم يقدم لهم سبحانه هؤلاء الأفارقة والملونيين كخدم لهم إلى أبد الآبدين؟

ب ـ صبغ المنطقة بالصبغة الإنجليزية :

كانت عمليات صبغ المنطقة بالصبغة الإنجليزية Anglicization قد بدأت في حوالي سنة ١٨٢٢ بعد وصول أول فوج من المستوطنين البريطانيين

(*) المقصود تراث البوير وثقافتهم وحضارتهم. (المترجم).

الذين نظر إليهم البوير أيضاً برعب وخوف واستياء. فمنذ سنة ١٨٢٠ كانت المستعمرة ببساطة مستوطنة للبوير تحكمها بريطانيا، أمّا بعد قدوم المستوطنين البريطانيين فكان لا بد للحكومة أن تحمي مصالحهم. وبعبارة أخرى لقد تزايد تأثير المستوطنين البريطانيين على السياسة الرسمية للحكومة. وقد وجد هذا التأثير فرصاً للتعبير في أشكال متعددة. فعلى سبيل المثال، تم إدخال العملة الإنجليزية (الفضة الإنجليزية) كعملة معتمدة في المستعمرة لتسد مسد العملة القديمة (Rix — dollar) والأكثر أهمية من هذا هو التغييرات التشريعية التي كان من بينها إدخال نظام الموظفين القضائيين الإنجليزي وإبطال النظام الهولندي القديم المعروف بنظام (Landrosts). وقد تضمن ميثاق العدالة الصادر سنة ١٨٢٨ هذه التغييرات القانونية وسرعان ما عُدِّل ميثاق العدالة هذا سنة ١٨٣٤ (راجع في هذا الفصل الثالث) وبصرف النظر عن كون النظام الجديد كان غير متوائم وظهرت عدم ملاءمته عند التطبيق، إلّا أن سخط البوير لم يكن راجعاً لهذا، وإنما كانوا ينظرون للمسألة على أنها اقحام لنظام قضائي إنجليزي كان مكروهاً منهم لأنه أجنبي عنهم، دخيل عليهم، أزاح جانباً من التراث الثقافي الهولندي الذي ينظر له البوير باعتبارهم مسؤولين مسؤولية كاملة عن المحافظة عليه. وإذا كان البوير قد سخطوا من هذه الإجراءات فإن سخطهم قد تضاعف بسبب قضية اللغة. فمنذ سنة ١٨٢٢ شجعت الحكومة استخدام الإنجليزية كلغة رسمية للمستعمرة، وتم التحول الكامل رسمياً للإنجليزية سنة ١٨٢٨، ولم تكن الحكومة بدعاً في هذا، خاصة وأن كل القوى الاستعمارية تستخدم لغاتها للأغراض الرسمية في مستعمراتها. ولكن كما سبق أن لاحظنا، فإن البوير كانوا يعارضون بشدة كل شكل من أشكال الثقافة الغريبة عنهم، وكل نفوذ وافد لهم، إذ كانوا بدلاً من هذا يفضلون الاحتفاظ بعاداتهم وحضارتهم (ثقافتهم) فلا عجب أن نظروا لإدخال اللغة الإنجليزية على أنه عملية إثارة واستفزاز متعمّدة من قِبَل السلطات الإنجليزية. وكان هذا أحد أهم المظالم التي أسهمت في انبثاق حركة الزحف العظيم. ولم تكن المسألة عزّة وطنية فحسب، وإنما لم يكن من السهل على شعب عريق وسكان ريفيين

أن يتحوّلوا رسمياً للإنجليزية. لقد كان هذا يحتاج لوقت أطول حتى يتسنى لهم تعلّم اللغة الجديدة الرسمية حتى ولو كرهوا التحدث بها لكونها أجنبية عليهم. وعلى هذا، فما من شك، أن المستوطنين الهولنديين لم يكونوا راضين عن هذا التغيير.

جـ ـ صراع البوير مع الإرساليين بسبب الملونين:

بصرف النظر عن المظالم التي أشرنا إليها سابقاً، كان البوير ساخطين لأن السياسة الرسمية للحكومة وسياسة الإرساليين كانتا تتعارضان بحدّة مع وجهة نظرهم في معاملة الملونين. فبينما كان الإرساليون يبشرون من خلال الكتاب المقدس بالحب والمساواة لكل الناس وبضرورة حماية حقوق كل البشر، كان البوير يعتقدون ويطبقون عكس هذا تماماً. وقد سبق أن ناقشنا هذا تفصيلاً في الفصل الثالث، أما في هذا الصدد فسنهتم أساساً بمضمون هذا من حيث تأثيره على حركة الزحف العظيم.

لقد شعر البوير أن أية محاولة لإزالة العوائق أمام العبيد والهوتنتوت سوف تخلق وضعاً خطيراً بالنسبة لهم (البوير) وقد زاد تخوفهم باعتماد اللائحة الخمسينية التي أعادت للهوتنتوت والبشمن وسائر الملونين حقوقهم المدنية، (كما سبق أن أشرنا في الفصل السابق) فقد ناقشوا فكرة أن هذا التشريع وحده كفيل بإفساد العلاقة بين السيد والخادم أي بين البيض والملونين؛ فقد يشجع هذا غير البيض على أن ينظروا لأنفسهم كمساوين للبيض، وتلك جريمة لا تغتفر. وأكثر من هذا فإن الحاجة للعمالة السوداء قد تتأثر بسبب هذا التشريع، فإذا تحرر الملونون أصبح في إمكانهم التحرّك والخروج عن طوع الذين يعملون لديهم، فتكون النتيجة هي الفوضى وانعدام القوانين، والتشرد وقلة الأيدي العاملة وضعف سلطة وسيادة ووضع جنس الأسياد وهو الجنس الأبيض. ولا أحد من البوير يريد هذا الوضع ولا أن يعيش في ظل هذا الظرف لذا أراد عدد كبير منهم أن يرحل لمكان آخر ليكونوا أحراراً في الاستمرار في استرقاق الملوّنين وتطبيق عقيدة تفوق الجنس الأبيض.

د ـ تحرير الرقيق :

إن نظرية تفوق الجنس الأبيض وتطبيقاتها لا يمكن أن تتعايش أبداً مع سياسة إزالة العوائق من طريق الأفريقيين وغيرهم من العناصر الملوَّنة. فمثل هذه الفلسفة لا يمكنها فوق كل هذا أن تتواءم مع السياسة الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالرقيق. فقيام بريطانيا بتحرير الرقيق سنة ١٨٣٣ في كل أنحاء الامبراطورية البريطانية بما في ذلك جنوب أفريقيا(*)، كان قد أصبح مصدراً للصدام بين البوير والإدارة البريطانية، فلم يكن البوير يرون ضرورة تحرير العبيد مما كانوا فيه، فهذا هو وضعهم الطبيعي والقانوني في الحياة. وأكثر من هذا فقد كانوا يرون أن تحرير ال قيق سيؤدي إلى فوضى سياسية واجتماعية وتشرد، والأهم من هذا، سيؤدي إلى نقص في الأيدي العاملة. وسيضطر المزارعون نتيجة لهذا، لدفع أجور أعلى، بينما كانوا في الماضي لا يدفعون شيئاً في حالات كثيرة. وعلى هذا فقد نظر البوير لتحرير العبيد بسخط وحقد شديدين. إنه اعتراف رسمي بمبدأ المساواة بين الأجناس كما أن القبول بمبدأ كهذا يهدم أُسُس المجتمع الذي يريد البوير إنشاءه والمحافظة عليه. هذا المجتمع الذي يعتمد في جوهره على سياسة عدم المساواة بين الأجناس، وضرورة العزل العنصري بينها. وبصرف النظر عن هذا، فإن أناساً كثيرين من البيض قد اعتراهم الخوف من أن يضطروا لمنافسة الملونيين والعبيد المحررين للحصول على عمل، بعد فتح باب العمل في أي مكان نتيجة تحررهم وإزالة العقبات والقيود من طريقهم. وآخرون شجبوا تحرير العبيد مخافة أن يؤدي هذا إلى اختلاط الأجناس بالتزاوج. وفي نفس الوقت كان ينظر للعبيد كملكية خاصة لسادتهم، وعلى هذا فتحريرهم يشكل بالنسبة للسادة خسارة مالية. حقيقة لقد تم تعويض ملاّك العبيد، لكن التعويض في جملته لم يكن ليتجاوز ١ ١/٤ مليون جنية استرليني، بينما كانت القيمة الاجمالية الفعلية لعبيد

(*) صدر قرار (تشريع) منع الرِّق سنة ١٨٣٣، لكن التطبيق الكامل لهذا القرار في سائر أنحاء الامبراطورية البريطانية لم يتم إلا في أغسطس سنة ١٨٣٤، حيث غدا العبيد في الامبراطورية محررين فعلاً.

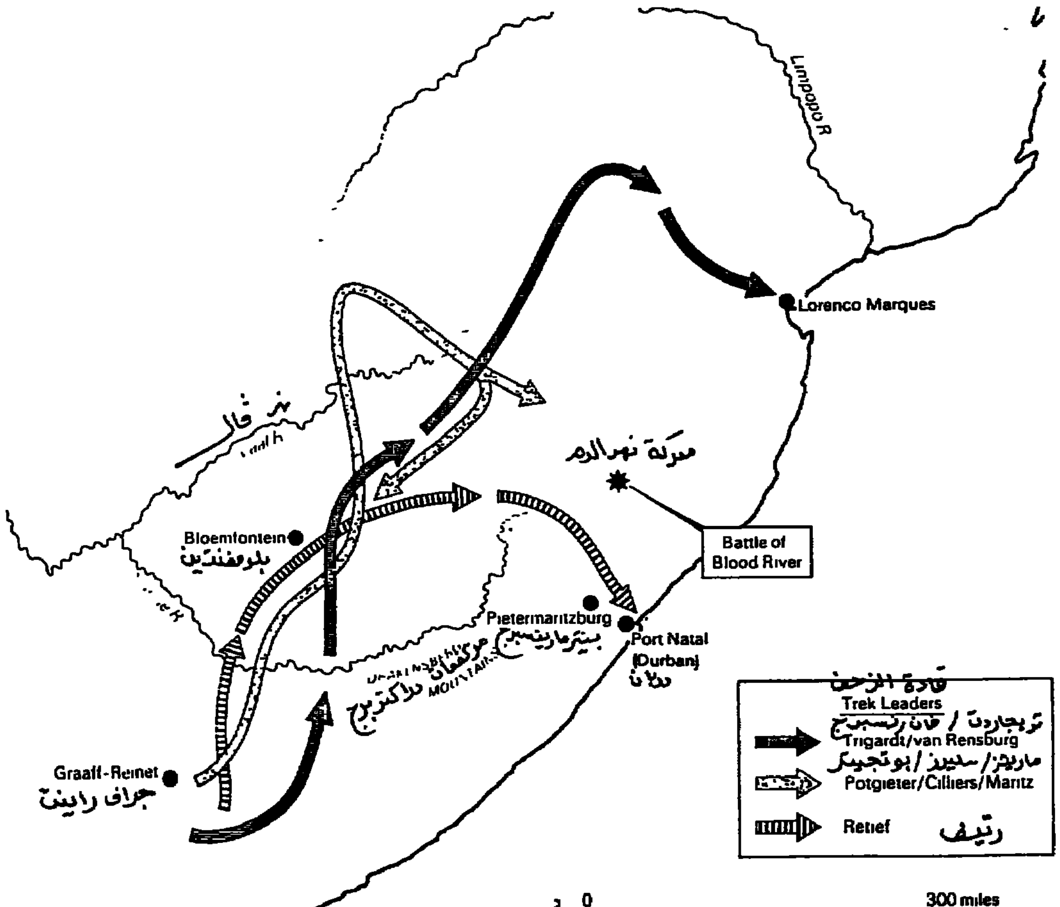
المستعمرة تصل لحوالي ٣ ملايين من الجنيهات الاسترلينية. وأكثر من هذا، فقد كان يتحتم على الفلاحين أو ملّاك الرقيق أن يرفعوا دعاويهم أو تظلماتهم في لندن وهذا أمر صعب ومكلف. وفي نهاية سنة ١٨٤٥، على سبيل المثال، عندما حان دفع التعويض تبقى مبلغ ٥,٩٠٠ جنيه استرليني لم يطلبها أحد.

هـ : قضية ولاية (مديرية) الأميرة أديلادي:

رغم أهمية المظالم السابق ذكرها في اتخاذ البوير قرارهم بالهجرة ابتداء من سنة ١٨٣٥، إلّا أن أكثر الأسباب مباشرة لهذا الزحف العظيم هو قرار الحكومة البريطانية بإلغاء قرار حاكم المستعمرة دربان بإلحاق ولايتي (منطقتي) الملكة أديلادي Adelaide وناتال. لهذا فقد قدم البوير دعماً لا يستهان به للحاكم دربان أثناء حرب الكافير الشهيرة سنة ١٨٣٤، فكما رأينا في الفصل الثالث فقد البوير جانباً كبيراً من ممتلكاتهم وقتل منهم رهط كثير، قبل أن يحل السلام بين الطرفين المتقاتلين في سبتمبر سنة ١٨٣٥. لذا كان البوير يعتقدون أن منطقة (أو ولاية) أديلادي لهم وملكهم بحق الفتح لتقديمهم مساعدات فعّالة للحكومة، وهم الآن يطالبون بتعويض نظير هذا من السلطات. لقد استقبل البوير إلحاق ولاية أيلادي بحرارة فائقة ورغبوا في الاستقرار بها كما رأوا أن تحطيم المجتمعات المعادية(*) يمد المستعمرة بمزيد من الأمان. لقد كان الأمن قضية ملتهبة بالنسبة للبوير طالما هم مقيمون في جنوب أفريقيا، إذ كان المستوطنون يشكون دائماً من نقص الحماية الكافية التي تقدمها حكومة (إدارة) المستعمرة. أما الآن فقد بدا لهم أن دربان عازم على قهر وإزاحة الشعب المحلِّي. لقد بدا للبوير الآن أن شكاوي المستوطنين البيض قد لاقت من الحكومة آذاناً صاغية، فقد أصبح المزيد من الأراضي متاحاً، والمزيد من الأمن في الطريق.

لكن اللورد جلينج Glencg وزير الخارجية في الحكومة البريطانية كان له

(*) يعني المجتمعات الأفريقية. (المترجم)



طرق (مسالك) الزحف العظيم (الهجرة الكبرى)

رأي آخر في الموضوع. فقد كان جلينج مؤيداً من رفاقه الإنسانيين ضجراً من سياسة دربان معارضاً لكل تعديلاته الحدودية المقترحة. فقد كان ينظر لسياسة دربان التوسعية كمحاولة منه لإزالة الملونين وإزاحتهم بالاستيلاء على أراضيهم، ومد الحدود البريطانية لحوالي مائة ميل مما يزيد الرعايا الأفريقيين البريطانيين بالآلاف. وقد كانت الحكومة البريطانية ممانعة في التصديق على أي إجراء متعلق بالأمن والأمور المالية، ينتج عنه صراع بين البيض والملونين.

وعلى هذا، فعندما عُلم أن الحكومة البريطانية قد تراجعت عن قرارها في إلحاق المناطق الجديدة قرر كثير من الفلاحين (البوير) أن يهاجروا. فقد شعروا أن الحكومة قد قذفت بهم للحضيض وأنها لن تضعهم في الاعتبار ولن تراعي مصالحهم، فلا حياتهم ولا ممتلكاتهم موضع تقدير الحكومة. وبطبيعة الحال ليس هذا هو السبب الوحيد لحدوث الزحف بمعنى أن هذه الأحداث لو لم تحدث لما حدثت هذه الهجرة الكبرى، فرفض الحكومة البريطانية ضم دربان لأراض جديدة ليس إلا سبباً واحداً. حقيقة، يمكننا ان ننظر لذلك كفرصة أو مناسبة ـ وربما سبباً رئيسياً ـ لهذا الزحف التاريخي.

و ـ الإشاعات :

أضف إلى مظالم البوير، كثيراً من الشائعات في نفس الوقت، فإشاعة تقول أنه سيتم إرجاع كل الأراضي للهوتنتوت، وأخرى تقول إنه سيتم اعتماد الزواج المختلط، وثالثة تقول أنه سيتم إدخال نظام التجنيد الإجباري، وأن البوير سيجبرون على التخلي عن الكنيسة الاصلاحية الهولندية ليكونوا بالإجبار أرواماً كاثوليك. ومع أن هذه الإشاعات كانت مغرضة وبلا أساس، إلا أن تأثيرها في المناخ السياسي والاجتماعي كان فعالاً، فقد زادت من حدّة سوء الفهم بين البوير والحكومة، وأسهمت في تفجر الموقف في خاتمة المطاف.

وقد كان من الواضح، عند اتخاذ قرار الهجرة، أن البوير لم يعترضوا ضد أي مظلمة من هذه المظالم، فقد كان الزحف العظيم محصلة نهائية لعديد من

المظالم التي طال أمدها، وعديد من المشاكل الناتجة عن سوء الفهم. وكما قال مكميلان Mac — Millan وهو على حق في صدد حديثه عن تصميم بيت ريتيف على الهجرة، إن شيئاً ما لن يجعلهم يتراجعون عن الهجرة في سنة ١٨٣٥:

«إن الحاكم (اللفتينانت)، حتى ولو هدَّأ رتيف بوعد محدد مؤداه أن العبيد لن يتم تحريرهم، والتشريع الخمسيني سيتم استبداله بآخر، وسيتم تقسيم أراضي كافراريا Kaffraria إلى مزارع، وسيتم شنق الإرساليين، وسيتم استئصال كل السود... إلى آخره.. فلن يقبل رتيف المصالحة، وكان الزحف (الهجرة) سيتم».

فالاستعداد للزحف كان قد بدأ في بواكير سنة ١٨٣٤، ففي هذا العام تم إرسال ثلاث مجموعات للبحث عن أماكن للإستيطان المقبل. وقد اتخذت هذه المجموعات سبلاً في اتجاهات ثلاثة مختلفة: إلى داماراالاند Damaraland فيما يعرف الآن بجنوب غرب أفريقيا(*) وإلى زوتبانزبرج Zoutpansberg فيما يعرف الآن بشمال الترنسفال، وإلى الناتال. وفي مطلع ١٨٣٥ عادت فرق البحث هذه بتقارير مشجعة، فقد كانت الأراضي التي زاروها تتسم بالخصوبة وسكانها قليلون (مسكونة بالكاد).

تطور الزحف العظيم ونتائجه:

كان الزاحفون (المهاجرون) الأُول الذين رحلوا قبل نوفمبر سنة ١٨٣٥ يعرفون إجمالاً بالبوير الزاحفين Trekboers. لقد كان عددهم قليلاً واستعداداتهم عليلة لا تتناسب مع المخاطر المتوقعة. وقد صدهم سكان وادي لمبوبو Limpopo Valley صداً فعلياً، ومات آخرون منهم بالحمى. وكان قائداهم وهما لويس تريجاردت Louis Trigardt وجان فان رنسبرج Jan Van Rensburg، يتحتم عليهما لعن اليوم الذي قررا فيه قيادة مواطنيهم خارج

(*) ناميبيا. (المترجم)

المستعمرة ليواجهوا أخطاراً في أرض مجهولة. ولكن الفلاحين البوير لم يعدلوا عن الهجرة بسبب ما لاقاه رفاقهم من مصاعب ومآس. وفي بواكير سنة ١٨٣٦ عندما علموا بأن إلحاق مديرية (منطقة) أديلادي قد تم إلغاؤه، غادر عدد كبير من الزاحفين (المهاجرين) المستعمرة بقيادة أندرس هندرك بوتجيتر Andries Hendrik Potgieter وسارل سيليرز Sarel Cilliers، وكانت هذه الدُفعة هي أكبر دفعة من الزاحفين، وسرعان ما التحقت بها دفعة كبيرة أخرى في أغسطس سنة ١٨٣٦. وكانت هذه الدفعة الأخيرة بقيادة جريت ماريتز Gerrit Maritz وكانت تتكون من مزارعين من جراف رينت Graaff — Reinet. وقد كان الزاحفون يحملون أمتعتهم على عربات تجرها ثيران. وعلى هذا فيمكننا القول أنه في سنة ١٨٣٦ كانت حركة الزحف العظيم في ذروة نشاطها.

صدام البوير مع النديبيلي Ndebele و الزولو Zulu :

لاقى الزاحفون أثناء رحلتهم مقاومة عنيفة من الشعوب المحلية. ففي سنة ١٨٣٦ تصادموا مع النديبلي بقيادة مزيليكازي Mzilikazi. وقد هُزم النديبلي وأجبروا على التراجع عبر نهر لمبوبو، ونتيجة هذا توطن الزاحفون إلى الشمال من نهري الفال والأورانج Vaal and Orange Rivers. على أن المقاومة كأقسى ما تكون، قد واجها الزاحفون من قِبل الزولـو في الناتال بزعامة دنجان Dingane، فذات مرّة قتل الزولو رتيف والوفد المصاحب له بعد فشل المفاوضات الجارية بينهما (الزولو ورتيف) بخصوص الأرض، فقد كان الزولو قد جهزوا أنفسهم للدفاع عن أرضهم وسيادتهم، بينما لم يعد الزاحفون إلى المستعمرة فقد غادروها بغير رجعة. لهذا كان استمرار الحرب أمراً لا مفر منه.

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب، كان البوير يحاربون تحت قيادة أندريس بريتوريس Andries Pretorius. لقد كانوا مصممين على إحراز النصر وأعادوا الهجوم على الزولو. وأخيراً فإن بنادقهم Rifles وتفوق تقنياتهم العسكرية قد مكنتهم من النصر الكامل. ففي ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ كان دنجان ومن معه من الزولو قد هزموا هزيمة كاملة في معركة نهر الدم Battle of Blood River وبعد

هذا بستة أشهر تنازل دنجان عن جانب كبير من الناتال للزاحفين وفقاً لبنود اتفاقية التسليم(*) لقد أضحت أيام دنجان بعد هذه الهزيمة معدودة إن لم تكن قد انتهت بالفعل، وفي الحقيقة فإنه بعد هذا الإذلال الذي لاقاه أضحى منبوذاً من شعبه الذي اغتاله بعد ذلك، وتولى قيادة الزولو بعد دنجان، مبانوي Mpande الذي لقى دعماً وتأييداً من الزاحفين بقيادة بريتوريا.

جمهورية الناتال :

بعد هذا النصر الذي أحرزه الزاحفون على الزولو، أسسوا دولة جديدة لهم خاصة، وأسموها جمهورية الناتال. وتم إنشاء مجلس الشعب Volksraad في بيترمارتسبرج Pietermaritzburg. ومارس المجلس سلطاته التنفيذية والتشريعية والقضائية كاملة. لقد مارس المجلس سلطات ووظائف مجتمعة لم تعد تمارس هذه الأيام إلا من خلال مؤسسات منفصلة هي: السلطة التشريعية والبرلمان ومجلس الوزراء. وكان مجلس الشعب هذا يمارس عمله أيضاً كمجلس قضائي وكان مكوناً من ٢٤ عضواً يختارون في كل دورة انعقاد رئيساً لهم. ولم تعش جمهورية الناتال هذه طويلاً بسبب إصرار الحكومة البريطانية على ضمها للمستعمرة. وقام البريطانيون بهجوم عى جمهورية الناتال ولم يلقوا مقاومة قوية، وكان هذا في سنة ١٨٤٢، وفي العام التالي كانت جمهورية البوير ومجلس الشعب قد انتهيا، وأصبحا خبراً بعد عين. وبعد ذلك بعامين أي في سنة ١٨٤٥، كانت الناتال إحدى ولايات (مديريات) مستعمرة الرأس.

وفي هذه الأثناء كان عدد كبير من الفلاحين (البوير) غير سعداء بالحكم البريطاني فانسلوا خارج الناتال، والتحقوا بالزاحفين (المهاجرين) الآخرين القاطنين في المنطقة الواقعة بين نهري الأورانج والفال. وحاول الإنجليز في البداية إعادتهم ليكونوا تحت الحكم البريطاني. وفي سنة ١٨٤٨ على سبيل المثال

(*) ١٦ ديسمبر، يوم يتم الاحتفال به في جنوب أفريقيا وكان حتى سنة ١٩٥٢ يسمى يوم دنجان ثم سُمّي بعد ذلك Day of Convenent.

ألحق الحاكم هاري سمث Harry Smith المنطقة الممتدة بين نهري الفال وأورانج وحتى مرتفعات دراكتربرج Drakensberg بمستعمرة الرأس. وتلقى البوير هذا الخبر بعدم الرضا بل وقاوموا هذا الالحاق بمستعمرة الرأس. وبالإضافة لهذا كانت الاحتكاكات والصدامات مستمرة بين البوير من ناحية وجيرانهم من الباسوتو والنديبيلي Basuto and Ndebele من ناحية أخرى. وكان الأمر يستلزم سياسة إيجابية وفعّالة إذ كانت هناك رغبة في إحلال السلام. خاصة وأن الباسوتو كانوا قد أحرزوا نصراً على المستوطنين البيض سنة ١٨٥٠ مما أفزع السلطات البريطانية في مستعمرة الرأس. لقد خشت السلطات البريطانية التأثيرات المحتملة لفقدان الأمن والاستقرار في المستعمرة وبين الجماعات الأفريقية عموماً. وفي نفس الوقت لم يكن البريطانيون راغبين في تحمل التبعات المالية لمدّ إدارتهم خارج نطاق الحدود المعدّلة للمستعمرة، فكل عمل يستلزم مالاً: بناء كيان عسكري قوي، والتعاطف مع المستوطنين البيض، والتعاون مع الأفريقيين.

ميثاق نهر الرمال سنة ١٨٥٢ وميثاق بلومفونتين ١٨٥٤ :
: The Sand River Convention and the Convention of Bloemfontein

بعد أن تحقق البريطانيون من أن استمرار الهيمنة على المنطقة يتطلب أموالاً طائلة، قرروا التخلّي عن البوير المهاجرين، ووفقاً لميثاق نهر الرمال الموقع سنة ١٨٥٢ منحت الحكومة البريطانية، البوير القاطنين شمال نهر الفال الحق في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم مع وضع نهاية للتدخل البريطاني في شؤونهم ودون الاقتراب من هذه المنطقة البويرية الجديدة. وقد أعطى هذا الميثاق الأساس الشرعي لقيام جمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) رغم أنها لم تستمر طويلاً. ولقد كان مارتينوس فيسلز بريتوريوس وهو ابن أندريس بريتوريوس هو أول رئيس لهذه الجمهورية سنة ١٨٥٨.

وبعد عامين من إعلان ميثاق نهر الرمال منحت الحكومة البريطانية سلطات منطقة نهر أورانج نفس المزايا، فوفقا لميثاق بلومفونتين Bloemfontein

سنة ١٨٥٤ تمتع المستوطنون البيض في منطقة نهر أورانج بالاستقلال الكامل وكونوا على الفور دولة الأورانج الحرة Orange Free State (انظر في هذا الفصل السابع).

القوى الممزّقة :

لقد نجح البوير إلى حد بعيد في الاحتفاظ بتجمعاتهم حيثما حلّوا موّحّدين واضعين نصب أعينهم عدواً مشتركاً ممثلاً في البريطانيين، هدفاً موحّداً ممثلاً في الاستقلال والحرية بُغية الاحتفاظ بقيمهم وتراثهم نقياً، رغم أنهم من الناحية الفعلية لم يكونوا قِسماً واحداً. ففي سنة ١٨٥٧ كانت هناك قوى مقسّمة تعمل في الجمهوريات الجديدة. فقد تم تأسيس جمهوريات ثلاثة صغيرة في ليدنبرج Lydenburg وزوتبانزبرج Zoutpansberg وأوترخت Utrecht ليصبح العدد الإجمالي لجمهوريات البوير خمسة، وبالإضافة لهذا كانت هناك ثلاث مستعمرات بريطانية هي مستعمرة الرأس والناتال وكافراريا Laffraria (وهي ولاية الأميرة أديلادي سابقاً والتي تم إلحاقها بالمستعمرات البريطانية في سنة ١٨٤٧).

المسألة العنصرية :

لقد أدى توسيع المستوطنين حدودهم باحتلال الترنسفال والناتال وما عرف بدولة الأورانج الحرة إلى زيادة حدة الصدامات مع الأفريقيين والملونين. فبمجرد مد الإدارة البريطانية إلى منطقة من المناطق كان حكم الملونين في هذه المناطق الجديدة يقع على عاتق الحكومة البريطانية. ولم يكن هذا أمراً بسيطاً خاصة عندما كانت تتعارض اتجاهات البوير إزاء الملونين مع السياسة الرسمية للحكومة البريطانية. فهنا كان يزيد تعقيد ما اشتهر باسم المسألة الوطنية في جنوب أفريقيا.

والذي لا شك فيه أن وضع الأفريقيين قد ساء في الأعوام التي تلت الزحف العظيم. ليس فقط بسبب حدوث نزاعات بين الحكومة والمستوطنين

البيض حول قضية معاملة الأفريقيين، وهي قضية أصبحت الآن أكثر أهمية، وإنما أيضاً بسبب ما كان يعانيه الأفريقيون من معاملة قاسية في جمهوريات البوير. وقد اضطرت الحكومة البريطانية لتعديل سياستها لصالح المستوطنين البيض لشعورها بأن سياسة الحكومة التحررية إزاء المسألة العرقية قد اسهمت إلى حد ما في حدوث الزحف (الهجرة). وبصرف النظر عن هذا فقد كان تأثير الزحف العظيم على الأفريقيين كبيراً، فقد فقدوا أراضيهم وثرواتهم واستقلالهم وقتل منهم خلق كثير أثناء مقاومتهم تقدم المستوطنين البيض. وسنناقش معنى هذا كله تفصيلاً في الفصل الثاني عشر.

الفصل الخامس

قيام مَمْلكة الزولو

كما اتضح من الفصول السابقة فإن أحد أكثر المجالات أهمية في تاريخ جنوب أفريقيا منذ البداية وحتى الآن، هو صدام القوى حول مصالحها. واتخذ هذا الصدام أشكالاً مختلفة في أوقات مختلفة وظروف متباينة. فقبل قدوم الأوروبيين كان هناك بعض الصراعات بين الجماعات المحلية المختلفة خاصة الجماعات القوية منها. فعلى سبيل المثال كان قدوم البانتو قد أدى إلى هزيمة وقلة عدد البوشمان والهوتنتوت باعتبارهما عناصر أضعف من البانتو. أما الصراع حول المصالح فقد زاد عمقاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لقد كان هناك صراع بين الشعوب الأفريقية المختلفة من ناحية وبين الشعوب الأفريقية والمستوطنين البيض من ناحية أخرى، وبين المستوطنين البيض والحكومة من ناحية ثالثة، وبين الإنجليز والبوير من ناحية رابعة، وبين البوير بعضهم مع البعض الآخر من ناحية خامسة، وبين المستوطنين وبعض الإرساليين حول قضية معاملة الأفريقيين والرقيق من ناحية سادسة.

وكان أحد التطورات العظمى التي أدت إلى هذا الصراع بين الأفريقيين ونتجت عنه هو قيام دولة الزولو بزعامة شاكا Shaka، ذلك الحدث الذي يعتبر أكثر الأحداث أهمية في تاريخ جنوب أفريقيا في القرن التاسع عشر. كيف أدار شاكا بناء مثل هذه الدولة القوية الأوتوقراطية وكيف حافظ عليها؟ وكيف تأثر رعايا شاكا وجيرانه وأعداؤه وأصدقاؤه على السواء بهذه الدولة الجديدة؟ كيف كانت هذه الدولة تُحكم؟

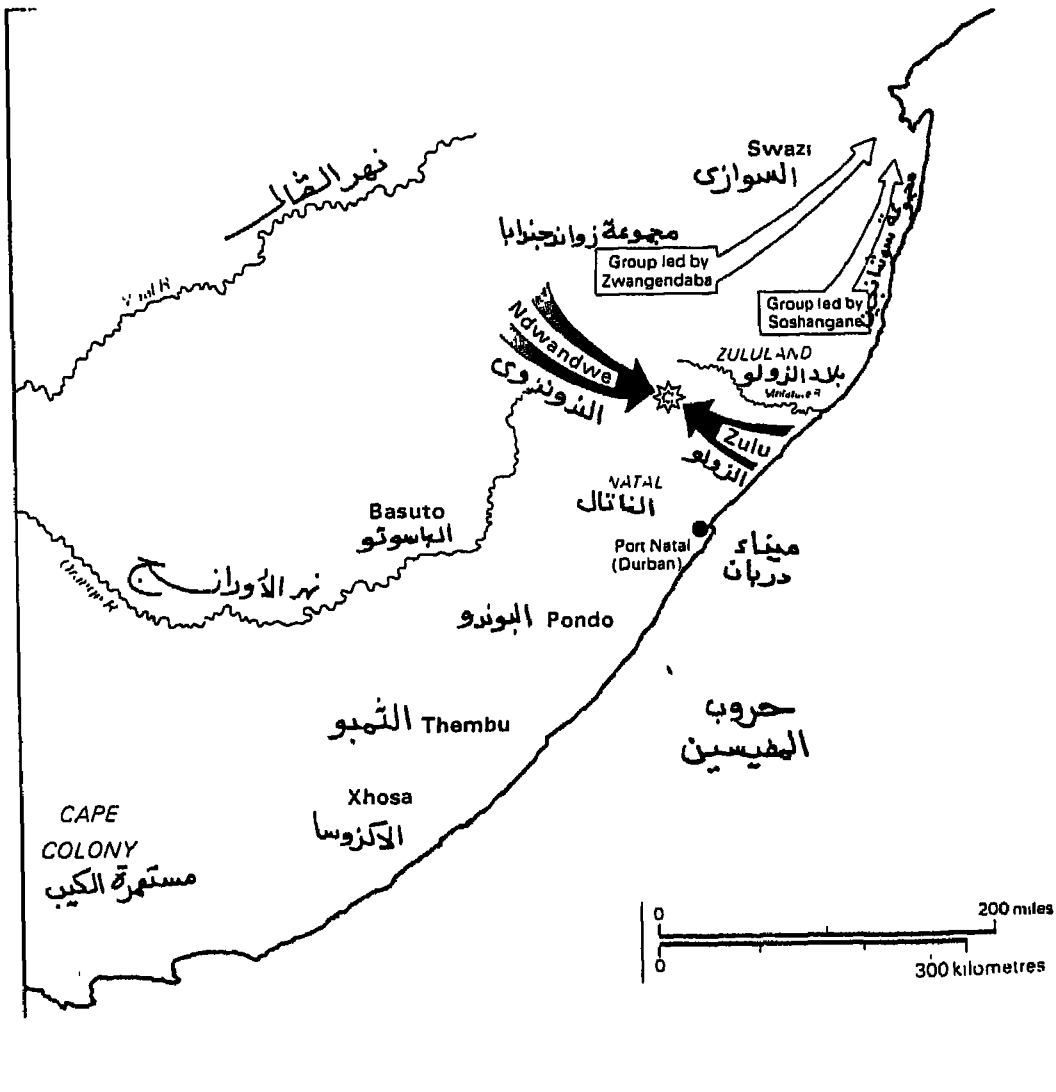
الوضع الاجتماعي والسياسي قبل المفيسين Mfecane :

قبل زمن شاكا كانت شعوب ما يعرف اليوم باسم بلاد الزولو والناتال تنتظمها مجتمعات صغيرة. وكانت بعض هذه الوحدات السياسية صغيرة لدرجة أنها كانت لا تزيد عن كونها عشيرة. وكان كثير من هذه الوحدات السياسية الصغيرة غير قادرة على الدفاع عن نفسها ضد جيرانها الأقوى والأكثر عدداً. لقد كان هناك أكثر من مائة وحدة سياسية واجتماعية، ورغم ضعفها العسكري، كانت كل وحدة منها مستقلة، إذ كان يحكم كلاً منها زعيم يساعده ويوجه له المشورة مساعد أو نائب زعيم Junior Chief ومستشارون وموظفون رسميون يُقال لهم إندوناس Indunas.

وكان هناك أسباب معقولة ليعيش هؤلاء الناس بهذه الطريقة، في مستقرات متعددة وصغيرة ومستقلة. فقد كان عدد السكان ما زال قليلاً وبالتالي كانت هناك وفرة في الأراضي الشاغرة لمزيد من المُسْتقرَّات. وفي نفس الوقت كان الأفراد الساخطون أو الشاعرون بعدم الرضا في هذه المستقرات، إما أن يقرروا الرحيل وتأسيس مجتمعات جديدة خاصة بهم يعيشون فيها مستقلين أو يقرروا الرحيل إلى دويلة أو منطقة أخرى ليعيشوا أحراراً كما يريدون. ولأن هذه الدول كانت عموماً صغيرة حجماً وسكاناً فقد كان حكمها يجري ببساطة ورغم أن الصدامات كانت شائعة، إلا أن الحروب الواسعة المدى كانت نادرة، وكانت آثار الحرب أقل دماراً بشكل عام عما أصبح عليه الحال في الأعوام الأخيرة. وعلى هذا فلم تكن ثمة ضرورة لتنظيمات سياسية وعسكرية طويلة الأمد عميقة التكوين. وقد أثر هذا الوضع في تشجيع استمرار وجود دول صغيرة متعددة ليس لها إلا نظم حكومية وتنظيمات عسكرية بسيطة. غير أن أي وضع لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، ففي نهاية القرن الثامن عشر إزداد عدد السكان بسرعة، ولهذا كانت الحاجة إلى أراض جديدة أمراً ضرورياً للتوسع المرتقب. ولازدياد الضغط التدريجي على الأرض، فلم يعد من الممكن

الاستحواذ على أرض جديدة إلّا بقوة السلاح، كما أصبحت الجماعات الأشجع والأقوى تحصل على الأراضي على حساب جيرانها الأضعف أو على حساب أعدائها. إن هذا لا يعني أننا نريد القول أنه مع بداية القرن التاسع عشر زاد عدد سكان الزولو والناتال زيادة فوق المعدّل المعتاد، وإنما كل ما نعنيه أن هذه المنطقة كانت كثيفة السكان كثافة ضاقت بها الأرض في ظل طرائق الرعي والزراعة والاستقرار التي كانت شائعة بينهم في هذه الفترة. فالناس يمكنهم الحياة في هذه المستقرات طالما كانت حيواناتهم وممتلكاتهم في أمان، وطالما كانوا بمكان قصي عن أعدائهم، وهذا العامل الأخير كان هاماً.

وفي حوالي بداية القرن التاسع عشر زاد عدد السكان في بلاد الزولو والناتال نتيجة تغييرات سياسية وعسكرية هامة. وقد أدت هذه الزيادة السريعة في عدد السكان إلى حدوث نزاعات بقصد الاستحواز على الأراضي اللازمة للتوسع. وانطلاقاً من هذا الوضع أضحت الحروب شائعة، وغدا تأثيرها في تخريب الحياة والممتلكات في إزدياد. وقد أدى عدم الاستقرار الاجتماعي وغياب الأمن بوجه عام إلى ضرورة وجود مؤسسات سياسية وعسكرية أفضل وأكبر. وقد أمسى من الضروري أيضاً تحسين وتطوير وتقوية الجهاز العسكري ووسائل القتال، وطرائقه لمواجهة الظروف وإحراز النصر. وفي الوقت الذي أصبح فيه شاكا مَعْلماً هاماً في تاريخ جنوب أفريقيا كانت هناك تطورات إيجابية نحو إيجاد وحدات سياسية أكبر وأوسع سلطاناً. وكانت الوحدة السياسية الرئيسية بين هذه الوحدات هي المثيثوا Methethwa أو الأباتبتو Abatetwa التي كان على رأسها دنجسوايو Dingiswayo والندواندوي Ndwandwe وعلى رأسها زويدي Zwide والنجوين Ngwane. برئاسة سوبهوزا Sobhuza. وكل هذه الوحدات السياسية ظهرت وتدعّم وجودها بالوسائل العسكرية، وبدعم سلاحها وتطويره وبهزيمة وغزو الجماعات المجاورة، وبالوسائل العسكرية استطاع شاكا - أخيراً - إعادة تنظيم كل رئاسات الزولو Zulu Chiefdoms لتشملهم امبراطورية موحّدة قوية.


Swazi
السوازى
مجموعة زوانجندابا
Group led by Zwangendaba
Group led by Soshangane
نهر الفال
ZULULAND
بلاد الزولو
Ndwandwe
الندوندوى
Zulu
الزولو
NATAL
الناتال
Basuto
الباسوتو
نهر الأورانج
Port Natal (Durban)
ميناء دربان
البوندو Pondo
التمبو Thembu
حروب المفيسين
Xhosa
الاكزوسا
CAPE COLONY
مستعمرة الكيب
0
200 miles
0
300 kilometres

لكن قبل أن نستمر، نجد من الضروري أن نفهم كيفية تنظيم الشعب وإعداده وتجهيزه للأغراض العسكرية في مرحلة ما قبل شاكا. دعنا نتمعن في الأحداث الواقعة زمن دنجسوايو زعيم المتيثوا Methethwa. فقبل أيام شاكا كان دنجسوايو أعظم الزعماء الثلاثة الذين سبق أن أشرنا إليهم فقد كان أكثر سلطاناً وأقوى نفوذاً من سوبهوزا وزويدي. وترجع أهمية فترة دنجسوايو أيضاً إلى أن شاكا قد حصل خلالها على تدريباته العسكرية الأولى وتجاربه.

إنجازات دنجسوايو Dingiswayo :

كان دنجسوايو ابناً لزعيم ميثيثوا، وقد تآمر دنجسوايو على حياة أبيه وعندما اكتشفت المؤامرة ولى هارباً ولم يعقب، وفي حوالي سنة ١٧٤٠ عاد إلى موطنه بعد وفاة أبيه، ونحّى أخاه عن العرش. وفي عهده تم إلغاء مراسم الالحاق في الجمعيات السرية التقليدية Ceremonies of Initiations وبدلاً منها تم تجنيد الشباب وفقاً لفئات العمر ونظّموا في أفواج (دُفعٍ) عسكرية. وهذه الأفواج العسكرية التي تم تشكيلها اعتماداً على السن (فئات العمر) أصبحت تعرف بفرق العمر، وكانت هذه الفرق أو الأفواج هي أساس الجيش القبلي Tribal Army.

ورغم أن إدخال نظام فرق العُمر أو الأفواج التي تضم شبيبة لهم عمر واحد، قد ارتبط باسم دنجسوايو، إلا أنه من غير المستبعد تماماً أن يكون منافسوه من الزعماء كسبهوزا وزويدي قد أخذوا به. ولهذا النظام مزايا عديدة تفوق النظام القديم. أولها، أنه يساعد على الترابط والوحدة القبلية(*) نظراً لأن الفوج (أو الدفعة أو الفرقة) ذا الأعمار الواحدة يحاربون معاً ويشتركون معاً في تحصيل الخبرات كأفراد في أمة واحدة. ثانيها، أن هذا النظام يزيد من الكفاءة

(*) رغم استخدام تعبير الوحدة القبلية هنا إلا أن السياق يجعل المعنى أقرب إلى وحدة الشعب أو وحدة الأمّة. (المترجم)

الخطة العسكرية
المرونة بخطة
قرني البقرة

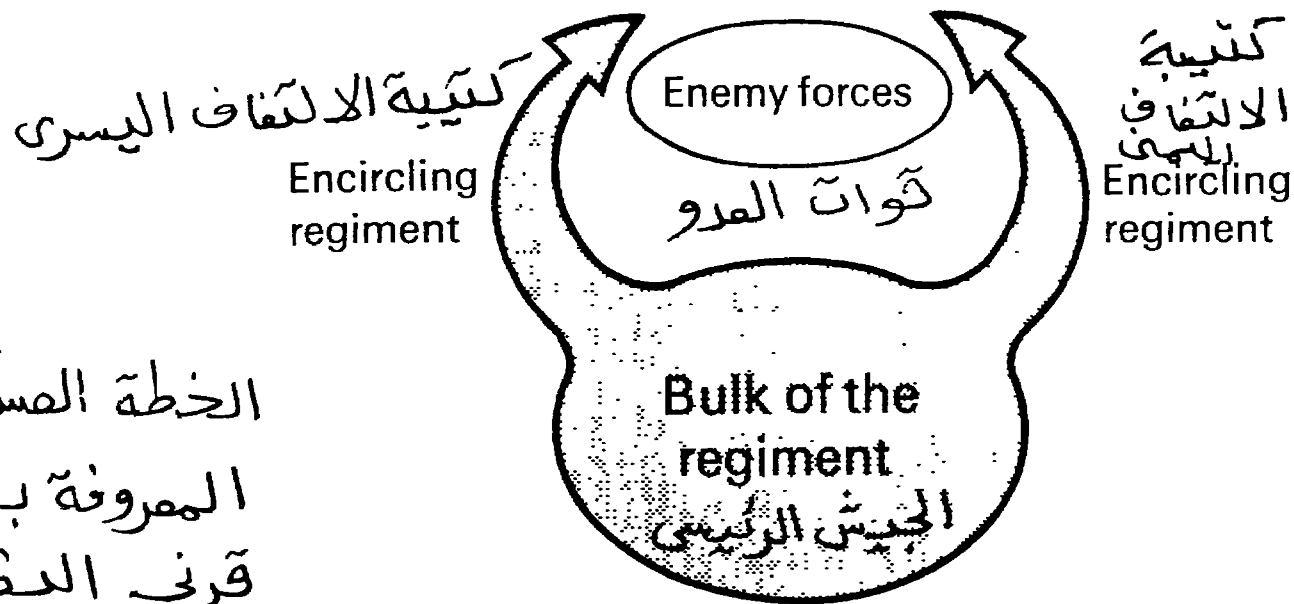
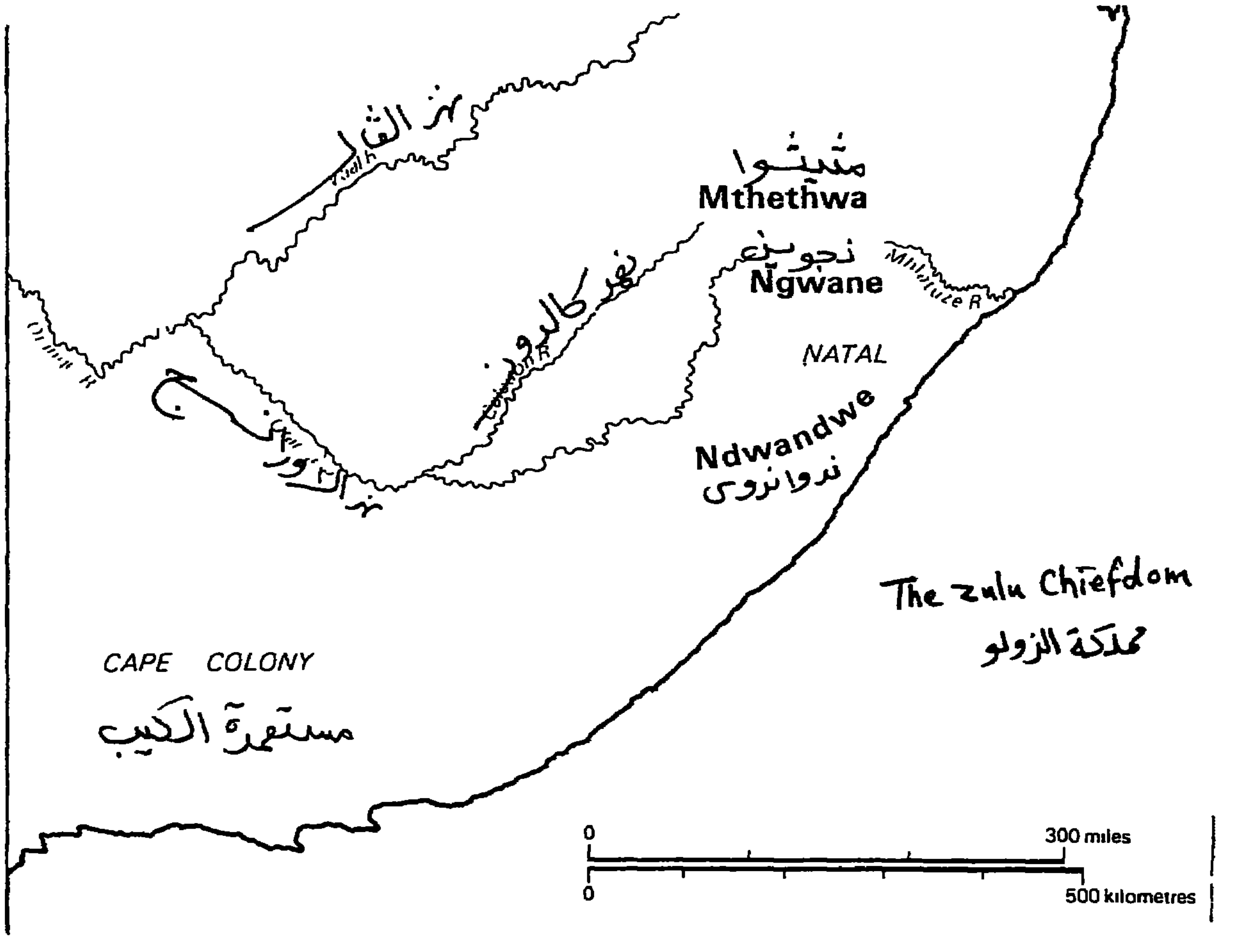


Diagram of the 'cow's horns' fighting formation

العسكرية، ثالثها، أن هذا النظام يقوي الانتماء إلى المركز الرئيسي (الحاكم). وقبل استخدام هذا النظام كان الزعماء المحليون يقدم كل منهم الوحدة أو الوحدات العسكرية المنوطة به(*)، أما الآن بعد إدخال نظام أفواج فئات العمر فقد أصبحت الأفواج مكونة من رجال يتم تعيينهم جميعاً من قِبَل السلطة المركزية (الحاكم) ورغم أن دنجسوايو قد استخدم هذا النظام لتوسيع زمام هيمنته وسلطاته إلا أنه لم يكن قاسياً قسوة كافية لتحطيم أعدائه. لقد هزم جيرانه وجعلهم تابعين لحكمه ولكنه سمح لهم باستعادة زعاماتهم مما أضعف الولاء للمركز (السلطة المركزية أو الحاكم). لقد كان رفيقاً بأعدائه إذ كان يعيد لهم ما استولى عليه عسكره من الأبقار ولم يكن يحتفظ إلا بالثيران التي كان يوزعها على المحاربين التابعين له.

وخلال هذه الفترة لم يكن ثمة جيش دائم في بلاد الزولو رغم وجود عدد كبير من المقاتلين المدرّبين الملتحقين بأفواج فئات العمر المختلفة. فلم يكن المقاتلون ليجمعوا إلا إذا دعت الحاجة وفيما عدا ذلك فهم في دورهم ماكثون يمارسون أعمالهم اليومية المعتادة، وعلى هذا فهم لم يكونوا جنداً محترفين مكرّسين للقتال وحده. ورغم التحسينات التي أدخلها دنجسوايو، فقد ظل المقاتلون يستخدمون نفس الأسلحة التي ألفوها من قبل ممثلة في الترس الكبير والرمح الطويل Large Shield and the Long — Handled Spear. ولم يكن الترس ملائماً كما كان ثقيلاً، بسبب حجمه الكبير. أما الرمح الطويل، فهو كسلاح للقتال يعيبه أن المقاتل يقذف به على الأعداء، وبتخلصه من الرمح أو الرماح يبقى أعزلَ لا شيء يدافع به عن نفسه، أو يساعده في أمره خلا هذا الترس الضخم، وهو عيب كامن في هذا السلاح (السهم) حتى وإن كان وحيداً إلا أنه عيب كبير. ورغم أن المقاتل كان يحمل عدداً من الرماح، إلا أنه بعد قذفها على الأعداء يكون في إمكان الأعداء جمعها وقذفها من جديد على من

(*) ومعنى هذا أن يكون ولاء هذا الفوج أو ذاك للحاكم المحلي أو الزعيم المحلي الذي عين أفراده، لا للسلطة المركزية. (المترجم)



نهر الفال
متيثوا
Mthethwa
نجوين
Ngwane
نهر كاليدون
Mhlatuze R
NATAL
Ndwandwe
The Zulu Chiefdom
مملكة الزولو
CAPE COLONY
مستعمرة الكيب
0
300 miles
0
500 kilometres

قذفوها أول مرّة. وعلى هذا، فالكفاءة والنظام التي يتمتع بهما جيش الزولو في بداية القتال سرعان ما يفقدان الفاعلية في ميدان المعركة، لهذا كانت إعادة التنظيم أمراً ضرورياً، وكانت إعادة تنظيم قوات الزولو على أسس جديدة من أعمال وإنجازات شاكا Shaka.

شاكا وأصول مملكة الزولو :

ولد الرجل الذي قدر له أن يغير تاريخ منطقته سنة ١٧٨٣. وكان أبوه سنزانجاكونا Senzangakona أحد زعماء الزولو الذين كونوا زعامة صغيرة Small Zulu Chiefdom غير أنها كانت من الصغر وانعدام الأهمية بحيث لا يمكن مقارنتها بزعامات أخرى مثل النجوين Ngwame أو الندواندوي Ndwandwe أو الميثيثوا Methethwa. وكانت أمه تُدعى ناندي Nandi من قبيلة لانجيني Langeni، وكان شاكا بأمِّه كَلِفاً، فقد شب في رعايتها بعد أن هجرها أبوه لخلاف بينهما، فصحب شاكا أمه وترعرع بعيداً عن منزل أبيه، ولاقى في مطلع حياته أياماً شقية وصعوبات، فقد كان رفاق اللعب يسخرون منه ويناوشونه باستمرار لابتعاده عن دار أبيه بينما كان هو يفاخرهم بأنه أشرف منهم محتداً لانتمائه لبيت من بيوت الرئاسة وقد جعله وضعه هذا على وعي كامل بأهمية وضعه الاجتماعي. وكُلَّما كبر شاكا بدا منه ذكاء وشجاعة وكفاءات، كل أولئك بدرجة عالية؛ وكل أولئك كان مصحوباً بغطرسة وكبر وعدم مبالاة بالمعاناة الانسانية. وبالإضافة لكل هذا ، كان شاكا طاقة هائلة ومحباً للمغامرة، وكان قاسياً عديم الرحمة، وبكل هذه الصفات كان شاكا يمتلك كفاءات الرجل القادر على تشكيل مجتمع بقوة السلاح، سواء كان هذا التشكيل يمثل نقلة للأفضل أم للأسوأ. لقد كان مقدراً له العظمة بقوة الإرادة والتصميم والمقدرة.

ولقد تلقى شاكا تدريباته العسكرية الأولى كرئيس لإحدى أفواج (فرق) إحدى فئات العمر أيام دنجسوايو. وسرعان ما اعترف دنجسوايو بكفاءاته في

مضمار الشجاعة والمثابرة. ومهما يكن فإن الفرصة لم تتح لشاكا كمقاتل لاستخدام كفاءاته لتحقيق مكاسب تحسب له حتى عام ١٨١٦، ففي هذا الوقت مات والده وخلفه في الزعامة ابنه سيجوجانا Sigujana، ولكن شاكا قرر أن يحارب للحصول على الزعامة(*) ولكنه كان واثقاً أنه لن يستطيع ذلك بمفرده، فلجأ إلى دنجسوايو رئيسه الأعلى وزعيمه طالباً منه العون العسكري، فأمده به، وبدا تمت هزيمة سيجونجا، وأصبح شاكا حاكماً على الزولو.

لقد تعلم شاكا تكتيكات قتالية جديدة أثناء تلقيه التدريبات تحت قيادة دنجسوايو Dingiswayo، وقد وضع شاكا هذه التكتيكات موضع التنفيذ بمجرْد توليه السلطة. ورغم أنه قد قام بعد ذلك بتطوير كثير من التقنيات القتالية، إلاّ أن خبراته العسكرية الأولى هي التي مهدت الطريق للدور العسكري والسياسي المميّز الذي قُدِّر لشاكا أن يلعبه بين الزولو والشعوب المجاورة. فبكل المقاييس كانت الاصلاحات العسكرية التي بدأها شاكا تمثل انطلاقة ثورية. فقد أوجد قوّة عسكرية مستقلة ودائمة أي لا تنفض بانتهاء الحرب، وأعاد تنظيم الأفواج (الفرق) القديمة المشكلة على أساس فئات العُمر، لتكون أكثر كفاءة وتأثيراً في الحروب واسعة النطاق. لقد تم تأسيس هذه الأفواج (الفرق) في كل أنحاء المنطقة (بلاد الزولو) وكان لكل فوج (فرقة) لون خاص تصبغ به تروس المقاتلين فيه وما يضعونه على رؤوسهم. وكان المقاتلون يعيشون في مستقرات أو مدن عسكرية خاصة (معسكرات) وكان كل معسكر تحت قيادة قائد Commander يُسمى إندونا Induna يساعده عدد من الضباط الأقل درجة، يأتمرون بأمره، وكل ضابط من هؤلاء يترأس وحدة عسكرية، ومن جملة هذه الوحدات يتكون المعسكر (أو المدينة أو المستوطنة العسكرية)، وكان قوّاد المعسكرات يتم تعيينهم عادة من بين أفراد الأسرات أو العشائر العادية

(*) فضلنا ترجمة Throne هنا بلفظ الزعامة بدلاً من التاج أو العرش لأن الزعامة هنا أقرب للمعنى. (المترجم)

Commaner(*) وذلك حتى يكون وضعهم القيادي مستمداً من الحاكم شاكا فتكون تبعيتهم له كاملة. وكانت كل مدينة عسكرية (معسكر) تضم مقصورة ملكية وحظائر مسيَّجة للماشية وأكواخ للمقاتلين. وفي هذه المدن العسكرية (المعسكرات) كان المقاتلون يتسلحون بالسهام والـدروع، وكانت تكـاليف تدريباتهم ولباسهم العسكري وطعامهم على حساب الملك، أو بمعنى أوسع على حساب الشعب. لهذا كانوا لا يفتأون يرددون أغاني المديح في شاكا، زعيمـهم وسيدهم. لقد كانوا محاربين طول الوقت إذ كانت الحرب هي مورد حياتهم الوحيد. لقد أضبحت الحرب في ظل شاكا مهنة حقيقية.

ولتجاوز القصور في الرماح طويلة الذراع التي يتم قذف العدو بها، أدخل شاكا سلاحاً جديداً، وهو رماح الطعن Stabbing Spear التي كانت أقصر ذراعاً، والتي كانت تمكن المقاتل من الاحتفاظ بها في يده، وقد جعلت هذه الرماحُ القتالَ أقل صعوبة وأكثر فاعلية. فقد أصبح المحاربون الآن قادرين على حماية أنفسهم بالدروع ويكثفون هجومهم عند اندحـار العدو مستخدمين رماحهم التي تشبه السكين، إنهم لم يعودوا بغير وسيلة دفاع إذا ما قذفوا رماحهم، ولم يعودوا بحال تحت رحمة العدو. ولقد قسم المقاتلون إلى فرق (أفواج) وكتائب. ولم يسمح لهم بالزواج إلا في الوقت المناسب. والوقت المناسب هو ما يحدده شاكا نفسه. ومهما يكن، فإنه عندما يحين الوقت المناسب يتحرر كل الفوج (الفرقة) من الخدمة العسكرية، ويتم زواج الفوج كله من فوج (فرقة) النساء المماثل لهم في العمر. لقد كانت النساء أيضاً منظمات في فرق وفقاً لفئات العمر، لأسباب كثيرة، منها أن تكون كل فرقة من النساء جاهزة عند تسريح فرقة (فوج) الرجال المماثلين لهن عمراً، فيتزوجوا منهن، ومنها أن فرق النساء هذه تخدم في الاحتفالات والمهرجانات بتقديم عروض

(*) المقصود غير القوية أو غـير المُميزة، حتى لا يغلب الانتـماء العشائـري، انتماءهـم للسلطة المركزية.

(المترجم)

وغير ذلك. ومنها أنهن يقمن بالأعمال(*). وفي ظل قيادة شاكا كان الشباب الواقعون في الأسر أثناء الحروب مع أعداء الزولو، يتم تذويبهم في جيش الزولو ويعاملون كمحاربين من الزولو إذ يتم إلحاقهم في معسكرات وفقاً لأعمارهم ويتم استيعابهم وتوزيعهم على سائر معسكرات البلاد، وإذا ما كانوا صغاراً لدرجة لا تؤهلهم للخدمة العسكرية، فإنهم يخصّصون للعناية بالماشية ويعملون كحملة سلاح للمقاتلين تماماً كما يفعل الصبية من الزولو. أما الأسرى من العجائز والعجزة فإن حظاً نكداً في انتظارهم إذ لا مكان لهم في مجتمع عسكري منظم وفقاً لفئات العمر، لذا فهم يُقتلون، أما الأسرى من البنات والنساء فيسوقهن الزولو المنتصرون للعمل في الحقول.

وقد أدخل شاكا أيضاً التكنيك الحربي الشهير المعروف بتكنيك تشكيل قرون البقرة. وليس من الواضح ما إذا كان شاكا مسؤولاً بالفعل عن إدخال هذا التشكيل العسكري أم أن معاصريه كانوا يستخدمونه أيضاً. على أية حال فإن تشكيل قرون البقرة قد اسُتخدم على نطاق واسع وبنجاح كبير على يد شاكا. وبهذه الوسائل القتالية كانت هناك كتلة من فِرَق (أفواج) فئات العمر تنتظم بكثافة مكونة، على هذا، قاعدة أو مركزاً قوياً، ومن كل طرف من طرفي هذه الكتلة القوية يخرج المقاتلون مشكلين منحني (من كل طرف منحنى) في اتجاه العدو، متخذين شكل قرني البقرة، ويحاول القرنان (القوات المتخذة شكل قرني البقرة) الالتفاق حول العدو (الاحاطة به) بينما كتلة الفرق الرئيسية تضغط عليه (على العدو) من الأمام وعلى هذا يتم محقه (العدو) محقاً.

التغييرات الإدارية :

لقد أصبح من المعروف دون نقاش أن أمة الزولو كانت دولة عسكرية

(*) في حالة انشغال الرجال بالقتال خاصة، أو لنقص الأيدي العاملة، وهذا طبيعي ما دام كل القادرين على القتال يتم تجنيدهم وانتظامهم في معسكرات وفقاً لفئات العمر.

(المترجم)

يحكمها ملك مستبد. فقد كان الجيش مصدر كل السلطات. وكان قادة الفِرق (الأفواج) هم مستشارو الملك الذين يناقشون الأمور معه رغم أنه كان يستطيع إغفال نصائحهم وتجاهلها، بل إنه غالباً ما كان يفعل ذلك. أما المجالس القديمة التقليدية التي كانت مكونة من الزعماء التقليديين وكبار السن فقد عطلت نظراً لأن جهاز الدولة قد أصبح بشكل متزايد دكتاتورياً يخضع إرادات الأفراد للدولة كما أصبح متسماً بالروح العسكرية، وحتى الاندوناس Indunas العسكريون الذين كان من المفروض أن يوجهوا النصائح للملك، أصبح محظوراً عليهم عقد اجتماعات بدون تصريح مسبّق بخشية التآمر على الحاكم، لقد أصبح الولاء المطلق للحاكم هو النظام اليومي المتبع. وقد طبِّق هذا النظام أيضاً على الشعوب المفتوحة والتي تم ضمها أو إدراجها ضمن الزولو، فقد فَقد زعماء هذه الشعوب سلطاتهم حيث وُضعت العوائق أمامهم ممثلة في إجراءات ومسائل روتينية وسدّ مسدهم آخرون عينهم شاكا لكونهم موضع ثقته. وفي كل الأحوال، تمركزت السلطة في الجيش والملك. تلك هي نوعية الدولة التي أوجدها شاكا. لقد ولدت أمّة الزولو في الحرب، ونُظمت لتحقيق أغراض الحرب.

وكانت نتيجة هذه الابتكارات والأفكار الجديدة، بعيدة المدى، أن عُرفت الأعوام من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٣٤، بفترة المفيسين(*) نظراً لأنها تميّزت بالحروب المدمِّرة. ومن الناحية العملية فإن كل المجتمعات القريبة من الزولو قد تأثرت بأحداث هذه الفترة. لقد أصبح الزولو أقوياء عدوانيين وطموحين متوسعين. لقد كانت دولة الزولو مملكة من المقاتلين يحمل المقاتلون عبء استمرارها، تكسب وجودها من الـ ،، ولا يمكنها البقاء بكامل قوتها إلا إذا كان لديها حروب كافية تشغل الملك والقادة (الإندوناس) والمقاتلين. فلا عجب إذن أن تركت المفيسين علامة دائمة في تاريخ جنوب أفريقيا.

(*) مصطلح يعني (حروب شاكا) وترجمته الحرفية تعني الهجوم الساحق الماحق.

(المترجم)

إنهيار الندواندو Ndwandwe :

لقد أصبح زويدي Zwide حاكم الندواندو الذي كان أكثر حكام بلاد الزولو سلطاناً ورهبة في خوف من قيادة شاكا للزولو، تلك القيادة التي تنبىء عن تطور ونمو. لقد اعتراه الرعب من مصير دولته إذا غدا الزولو أكثر قوة، واحتمال أن يهاجمه شاكا ويهزمه أمر قائم، لذا فقد قرر أن يكون هو البادىء بالهجوم قبل أن يصبح الزولو أقوياء. ومن هنا فقد بدأت حرب ضارية في تلال كوكولي Gqokoli Hill وفي هذه المعركة أثبت الزولو الذين كانوا حسنى الصف، ومنظمين قدرتهم على التفوق على المقاتلين من الندواندو المتفوقين عدداً. وفي الأخير استطاع الزولو صد هجوم الندواندو. وهنا كان تصميم شاكا وأخذه بالأساليب الجديدة قد بدأ يؤتي ثماره. ولقد تجلّى هذا واضحاً في حوالي نهاية سنة ١٨١٨ عندما أرسل زوندي كل جيشه ليحارب الزولو بقيادة شاكا وقامت حرب ضارية غير أن عسكر شاكا استخدموا تكتيكات تتسم بالمراوغة والمرونة كشن الغارات ليلاً والانسحاب السريع(*) الوقتي. وكان الغرض من هذا التكتيك المراوغ والماكر هو إجهاد وإضعاف الغزاة كما كان الزولو يتجنبون أي أضرار جسيمة كان يمكن أن تحيق بهم. وسرعان ما أحس المقاتلون من الندواندوي بالتعب والارهاق نتيجة هذه التكتيكات المراوغة كما أحسوا بالوهن وضعف الروح المعنوية وعانوا من المجاعة فما عادوا يجدون طعاماً في المستقرات (المعسكرات) التي هجرها الزولو. وفي هذه اللحظة التي أجاد الزولو توقيتها جمع شاكا قواته وهاجم المقاتلين الندواندوي المنهكين على ضفاف نهر مهلاتوز Mhlatuze، وتمت إبادة قوات الندواندوي بكل ما في كلمة الإبادة من معنى، وما تبقى من قوات الندواندوي وقع في الأسر ذليلاً تحت رحمة الزولو.

وقد خطط زويدي Zwide وعدد قليل من الندوندوي للهرب والانسياب عبر نهر نكوماتي Nkomati الأعلى. كما أن مجموعتين أخريين من المقاتلين بقيادة

(*) أسلوب الكر والفر. (المترجم)

سوشانجين وزوانجندابا Soshangane and Zwangendaba قد اتخذتا سبيلهما شمالاً فيما يعرف الآن بجنوب موزمبيق. وأخيراً، استقرت مجموعة زوانجندابا في قلب (ما يعرف الآن باسم تنزانيا) واتخذت لها اسماً جديداً هو النجوني Ngoni، بينما أسست مجموعة سوشانجين أمبراطورية جازا Gaza في موزمبيق. وسوف نعود للحديث عن هاتين المجموعتين فيما بعد.

شاكا يحطِّم مزيداً من الأمم :

بعد أنهيار الندواندوي، أصبح شاكا أكثر الحكام قوة وجبروتاً في بلاد الزولو، فقد هزم كثيراً من القبائل وأخضعها لسلطانه، بينما تحركت قبائل أخرى لمناطق نائية حيث أسست أوطاناً جديدة. واشتعلت حروب لا نهاية لها عبر منطقة واسعة. فقد هوجمت الناتال على سبيل المثال خمس مرات، في سنة ١٨١٧ و١٨١٨ و١٨١٩ و١٨٢٠ و١٨٢٤ قبل أن يتم إسقاطها وتحطيمها نهائياً. وحتى الملك سوبهوزا Sobhuza ملك النجوين Ngwane، والملك موشيش Moshesh ملك الباسوتو Basuto قد اعترفا بسيادة شاكا بدفعهم إتاوة منتظمة، أما التسونجا Tsonga وبقية السكان الأصليين في الناتال فقد اعترفوا بسلطان شاكا أيضاً، وإن كانوا من الناحية العملية مستقلين، ذلك هو شاكا في ذروة مجده.

لقد كان طموح شاكا هو إبادة جيرانه وأعدائه ومد سلطانه، لهذا فقد قاسى البوندو Pondo والاكزوسا Xhosa والثمبو Thembu من هجماته القاسية وغزوه لبلادهم. ومن الناحية العملية تأثرت كل بلاد الزولو والناتال والمناطق الساحلية تأثيرات مباشرة بهذه الحروب. ومهما يكن من أمر، ففي سنة ١٨٢٣، رغم أن الحروب كانت ما تزال مستمرة، إلّا أن ذروة المفيسين (حروب شاكا) كانت قد بدأت تخمد.

الاتصالات مع الإنجليز :

لقد شهد عام ١٨٢٤ تطوراً جديداً في سياسة شاكا، فقد تحقق من

المكاسب التي يمكن أن تعود عليه إذا كوّن علاقات طيبة مع المجتمع الإنجليزي التجاري الصغير في ميناء ناتال الذي أصبح فيها بعد ميناء دربان. فالتجارة مع الإنجليز ستمكنه من الحصول على الأسلحة النارية ذات القيمة الفائقة. لقد قرر شاكا أن يكسب تأييد ومساندة هذا المجتمع الإنجليزي في الميناء، ففي سنة ١٨٢٤ منح جانباً مما يعرف اليوم باسم ناتال، لتاجر انجليزي يسمى فارويل Farewell مقابل تقديم مساعدة طبية له وقد أصبح التجار البيض في المنطقة المتنازل عنها من رعايا شاكا وحاربوا معه رغم أنهم تُركوا يعيشون بمفردهم معظم الوقت. وقد أثبتت مساعداتهم العسكرية له جدواها عندما عاود الزولو محاربة الندواندوي في سنة ١٨٢٦ والبيجي Beje في سنة ١٨٢٧. ففي الحالتين أوقعوا بأعدائهم خسائر كبيرة، إذ فقد الندواندوي حوالي ٦٠,٠٠٠ رأس ماشية وفقد البيجي قطعاناً كثيرة. ونتيجة هذا تحلّل الندواندوي كمجتمع موحّد، وكان زعيمهم زويدي قد مات قبل ذلك بعام، أي سنة ١٨٢٥.

موت شاكا :

لقد أصبحت أيام شاكا معدودة، وقد سبقته أمه إلى العالم الآخر سنة ١٨٢٧ وقد أثر موت أمه ناندي Nandi عليه تأثيراً شديداً فأعلن الحداد في كل البلاد طوال العام وخلال فترة الحداد كان محظوراً على كل النساء السماح لأزواجهن بمضاجعتهن. ولمدة حوالي شهور ثلاثة مُنع الناس من شرب الحليب. وتم إعدام آلاف الرجال والنساء لأنهم لم يشتركوا في الحداد أو لم يظهروه بالشكل الكافي. كما وجهت التهم إلى آخرين بأنهم كانوا في موت ناندي راغبين، وهؤلاء تم إعدامهم أيضاً، كما تم إعدام كل امرأة حُبلى.

وفي مطلع العام التالي قام إخو شاكا وهو مهلنجانا Mhlangana ودنجان Dingane بالتعاون مع مبهوبا Mphopa وهو أحد الزعماء القريبين منه Induna، بطعنه طعنات أودت بحياته. وكانت كلماته الأخيرة التي انتزعها في سكرات الموت بينما كان يسقط على الأرض:

(أوه، ماذا فعلتُ لكمُ يا أولاد أبي !)

لقد مات الآن قاهر الملوك العظيم وقاهر الأمم ومثير الفزع في عصره والذي أدخل الحداثة في بلاده بكفاءة وخشونة وقسوة. وقد زعم قاتلوه أنهم إنما فعلوا ذلك لتخليص الأمة من القسوة والاستبداد، ولكنه كان واضحاً أيضاً أنهم إنما قتلوه جشعاً وتلهفاً على السلطة.

الآثار السلبية للمفيسين (حروب شاكا) :

كان لهذه الحروب تأثيرات دائمة في تاريخ جنوب أفريقيا فبينما كان كثير من هذه التأثيرات سلبياً ومدمراً، فإن من تأثيراتها ما كان إيجابياً وبناءً. وسنبدأ بذكر النتائج السلبية. لقد مات الآلاف من البشر وفقدت الممتلكات وخرِّبت، وأبيدت مجتمعات بأكملها أو تشتت. وأدت الحروب التي لا نهاية لها إلى تحويل ولايات ومديريات من مراكز آهلة بالسكان والإزدهار إلى مناطق مهجورة تماماً وامتلأت الأراضي بالجماجم والهياكل العظمية وامتلأت برائحة الموت والبؤس، فقد كان الزولو حين عودتهم من غزو جيرانهم يهاجمون كل ما يقابلونه في طريقهم، لذا فقد كانت حروب شاكا تؤدي بشكل غير مباشر إلى حروب أخرى في أماكن أبعد حيث لا يكون مقاتلوه (أتباع شاكا) قد وصلوا إلى هذه الأماكن فعلاً ـ لقد كانت مناطق كثيرة قد أصبحت خالية فعلاً، فعلى سبيل المثال نذكر منها ما يعرف اليوم بالناتال والمنطقة الشمالية الشرقية من ولاية الأورانج الحرة، والترنسفال الحالية. وحيث تبقى في هذه المناطق أحياء، كانت حالتهم يرثى لها حيث الجفاف والقحط والعوز فتحول عدد كبير منهم إلى أكل لحوم البشر والحيوانات الميتة ليبقوا على قيد الحياة وآخرون راحوا يجوسون من مكان إلى مكان للسرقة والإغارة على الجيران.

ويعتبر الفينجو Fingo، مثالاً صارخاً لهؤلاء اللاجئين المعوزين الذين اجتثوا اجتثاثاً من مجتمعهم المنظم حيث فقدوا كل ممتلكاتهم وماشيتهم وأرضهم وطعامهم فراحوا يتجولون في كل مكان يتسولون الطعام ويغتصبونه أحياناً، لدرجة أن اسمهم Mfengu أو Fingo يرجع في الأصل إلى عادتهم تسوّل الطعام. وكان الفينجو بشملون اللاجئين من النجوين Ngwane والهلوبي

بالإضافة إلى أقوام من سواحل موزمبيق. وقد استقر بعضهم بين Hlubi جماعات الاكزوسا والبوندو والشمبو حيث اشتغلوا برعاية قطعان الخيول. كما أن تمركز شعب الكولولو Kololo عبر نهر الزمبيزي يعتبر أحد النتائج المباشرة الأخرى للمفيسين.

وقد كان الكولولو يُعرفون أساساً باسم فوكنج Fokeng وكان يقودهم سيبتوين Sebetwane خارج منطقة الحرب ثم استقروا في النهاية في وطنهم الحالي ثم التحقوا بمجموعة شعب السوثو.

أما المانتاتيز Mantatees فيمثلون نموذجاً آخر لشعب تأثر بالحروب الحادثة في بواكير القرن التاسع عشر. وقد كانوا في الأساس يكونون زعامة Chiefdom هي زعامة تلوكوا Tlokwa. وخلال حروب دنجسوايو هجر النجوين ديارهم وهاجموا الهلوبي في طريقهم وهزموهم. وقد هاجم قسم من الهلوبي التلوكوا أثناء عودتهم وأخرجوهم من ديارهم واستولوا على امتعتهم وماشيتهم وطعامهم. وفي ذلك الوقت كان يحكم التولوكوا الزعيمة Mantatisi أرملة زعيمهم السابق وفي هذه المرحلة أصبح اسمهم الجديد هو المانتاتيز Mantatees.

وفي حوالي سنة ١٨٢٤ خرَّبت كل علاقات الجوار واعتراها الرعب بسبب غارات النجوين والهلوبي والمانتاتيز، فقد أرهب المانتاتيز ونهبوا كل من واجههم، فقد هاجموا الشعوب التي كانت تعيش على موارد نهر كاليدون Caledon. لقد عاشوا على قتال واغتيال المحيطين بهم، فكانوا يسرقون الماشية والغلال من ضحاياهم وكان يلتحق بهم عدد من الشعوب المهزومة. وعندما تولى قيادتهم الزعيم الجديد Zikonyela الذي كان ابنا لمانتاتيزي Mantatisi هاجموا الباسوتو عدة مرات حتى تمكن Moshesh من هزيمتهم سنة ١٨٥٣ وعندئذ هرب سيكونيلا مع عدد من أتباعه إلى مستعمرة الرأس إلاّ أن معظم أفراد المانتاتيز قد اختلطوا بأمة الباسوتو وأصبحوا منهم.

وقد أدت الحروب في هذه الفترة إلى إحداث تأثيرات أبعد، إذ زادت

الحزازات المحلية وتسببت في عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي. ففي البداية كان الأفريقيون أيضاً قد دخلوا في اتصالات طويلة مباشرة مع الأوروبيين في مستعمرة الكيب، فمنذ سنة ١٨٢٨ كان عدد من اللاجئين قد اتخذ سبيله لمستعمرة الكيب حيث أصبحوا عمالاً زراعيين. وقد نتج عن الحروب، أن كان توزيع السكان في جنوب أفريقيا غير متمش مع الواقع الفعلي لمساحة المنطقة، وهذا مما سهل عملية الزحف العظيم عندما بدأت سنة ١٨٣٥، لقد أصبح البوير الزاحفون قادرين على الاستقرار في الأراضي التي غدت الآن شاغرة، كما أن مستعمرة الرأس كانت قادرة على مزيد من توسيع حدودها.

النتائج الإيجابية للمفيسين (حروب شاكا):

رغم البؤس والخراب اللذان سببتهما هذه الحروب، إلاّ أنه من الخطأ حساب كل تأثير هذه الحروب أو حتى معظم تأثيرها، كان سلبياً. فالتأثيرات البناءة كانت عميقة وطويلة الأمد لذا كانت جديرة بالذكر هنا، ولتوضيح المسائل سنذكر هذه التأثيرات الإيجابية واحدة في إثر أخرى رغم أنها جميعاً مترابطة بعضها مع البعض الأخر.

ففي المقام الأول، وجدنا كثيراً من المجتمعات قد واجهت الظروف غير الموائمة التي فرضت عليها بإعادة تنظيم نفسها سياسياً. كما أن الجماعات الكبيرة قد استوعبت جيرانها الأقل عدداً وأهمية وهضمت الشعوب المهزومة داخلها. وخلال هذه الفترة ظهر قادة ممتازون مشهورون يتمتعون بالمقدرة والحكمة نظموا شعوبهم واللاجئين العديدين وادرجوهم في دول موحّدة قوية. وأفضل أمثلة على هذه الدول، ممالك الباسوتو والسوازي والبتشوانا. (انظر في هذا الفصلين السادس والسابع).

كما أدت حروب شاكا (المفيسين) إلى ظهور مجتمعات جديدة تماماً في جنوب أفريقيا وشرقها. وتكونت هذه المجتمعات الجديدة من اللاجئين الذين زحفوا بعيداً عن مواطنهم الأصلية إلى مناطق بعيدة. وخلال رحلاتهم الطويلة

هزموا من مروا بهم في الطريق وأدمجوهم فيهم كما أن استقرار هذه العناصر الزاحفة في مواطنهم الجديدة كان يُسبق دائماً بالحروب. وبعد تحطم جيش زويدي على يد شاكا، انقسم الندواندوي إلى أقسام مختلفة اتخذ كل قسم طريقاً. وقد انفصلت شعبتان من هذه المجموعات أو الأقسام واتخذت طريقها إلى موزمبيق بزعامة Soshanhane وZwangendaba. وفي ١٨٣١ تحاربت المجموعتان معاً، وانتصرت المجموعة أو الشعبة التي كان يتزعمها Soshangane وسرعان ما أسس القائد المنتصر أمبراطورية عرفت بامبراطورية جازا Gaza أما Zwangandaba فقد قاد أتباعه بعيداً عن موزمبيق. وفي ١٨٣٥ عبرت مجموعة من أتباعه نهر الزمبيزي Zambesi بعد أن استوعبت وهضمت جماعات أخرى في طريقها، وظلت تتحرك بانتظام وثبات حتى وصلت مالاوي سنة ١٨٣٦ وفي خلال سنوات أربع استقروا في يوفيبا Ufipa في بَرّ تنزانيا. وقد تبع هذه المجموعة مجموعات أخرى وهجرات أخرى إلى سونجيا Zongea وسافوي Safwe وبانجوا Pangwa وقد عبرت بعض هذه المجموعات نهر روفوما Rovuma. وفي تنزانيا استقرت جماعة الجوانجارا نجوني Gwangara Ngoni في سونجيا واستقرت توتا Tuta في Unuamwezi إلى الشمال من طابورا، أما ماسيكو نجوني فاستقروا في Songea. وقد أدى وصول هذه الجماعات المهاجرة إلى أن قام السكان الأصليون بإعادة تنظيم أنفسهم في وحدات أكبر وأقوى دفاعاً عن وجودهم، ولعل تنظيم نياموزي Nyamwezi بزعامة ميرامبو وكذلك تنظيم جماعة الهيهي Hehe تعد أفضل الأمثلة على ذلك.

تطور الترابط الوطني والوحدة :

لقد أدت حروب شاكا (المفيسين) إلى تغييرات أساسية في التنظيمات السياسية والعسكرية فقد تم تأسيس كثير من الدول على طول حدودمملكة الزولو. وقد استعارت هذه الدول تنظيمات الزولو العسكرية والسياسية بعد أن كيفتها مع احتياجاتها الخاصة وظروفها. وكانت كل دولة من هذه الدول تتكون

غالباً من ثقافات مختلفة ومجموعات لغوية متباينة، ومع هذا التباين والاختلاف فقد انبثقت منها دول قوية موحّدة ذات لغة عامة (مشتركة) وثقافة واحدة وحاكم واحد وحكومة واحدة. وكانت لغات الجماعات المسيطرة قد أصبحت لغات المجموعات الجديدة المنتقلة. والأمثلة على ذلك منها الزولو والسوازي والباسوتو والندبيلي والنجوني والبواتسوانا. فالدول الجديدة تبنت التقنيات العسكرية للزولو وتنظيماتهم العسكرية بنجاح كبير.

نوع جديد من القيادة :

وأخيراً قد أدت حروب شاكا (المفيسين) إلى ظهور نوع جديد من القيادة (الزعامة) في أفريقيا الجنوبية والشرقية. لقد كانت الظروف القاسية للفترة التي تناولناها تتطلب قادة يتميزون بالشجاعة والذكاء والمغامرة والثبات حتى تستطيع أممهم أن تبقى على قيد الحياة. فكل هؤلاء القادة قد تحققوا من قيمة الجيش حسن التنظيم المجهّز الكفء والإدارة الفعّالة. فالبقاء للأصلح فقط، ولا معنى للصلاح في نظر هؤلاء القادة إلا بمهاجمة أعدائهم وتدميرهم، واستيعاب جيرانهم، ومد سلطانهم. فهؤلاء القادة الجدد مثل موشيش وشاكا وشويهوزا وميرامبو(في تنزانيا)،لم يكونوا قانعين بالحدود القديمة التقليدية لدولهم. لذا كان ظهور الأمم الأضخم والأكبر والأقوى والأكثر تنظيماً، حيث كان القانون والنظام يطبقان باستمرار وكفاءة وحيث فُرضت الطاعة والنظام بقسوة. وأصبحت دعائم القوة في الدول الجديدة ولدى القادة الجدد وحكوماتهم تعتمد على الجيش أكثر من اعتمادها على روابط القرابة والنسب التقليدية ـ لتحقيق البقاء والنجاح.

الفصل السادس

تطور الأمم الجديدة : ١ ـ النديبلي والزولو

في الفصل السابق رأينا كيف تحلّلت مجتمعات كثيرة قديمة، وكيف ظهرت في نفس الوقت دول أخرى أقوى وأكبر، نتيجة لعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الناتج عن الحروب الناشبة في مطلع القرن التاسع عشر. وكما سبق أن ذكرنا فإن أي دولة من هذه الدول قد شكل أصولها وأحيا قادتها الجدد ذوي النوعية الجديدة، تلك الأيام القاسية التي مرّت بها. وفي هذا الفصل سوف أقدم وصفاً للتطورات الحادثة في أمتي النديبيلي والزولو.

النديبيلي :

في الوقت الذي كان شاكا قائداً للزولو، كان للنديبيلي قائدهم الكبير المؤسس المدعو مزيليكازي Mzilikazi، الذي كان ابنا لماشوبين Mashobane زعيم الكومالو Khumalo وهي جماعة ناطقة بلغة النجوني Nguni — Speaking Group. وكان مزيليكازي قائداً ذكياً باسلاً نادراً ما أورد شعبه موارد التهلكة. لقد خاض غمار حروب كثيرة وكسب معارك هامة ورغم أنه قد عرف عنه الاسراف في القتل أثناء الحرب، إلا أنه كان معتدل التصرّف لم يمعن في استخدام القسوة مع شعبه وأتباعه.

وللنديبيلي صلات لغوية وثقافية بالزولو والاكزوسا. وترجع تسميتهم إلى أصول من السوثو Sotho ثم تضمنت الكلمة في لغة النجوني Nguni. وبينما كانت غالبيتهم تعيش في روديسيا، كان جانب منهم ما زال في الترنسفال. وإلى حد بعيد كانت مجموعة الكومالو (الخومالو) Khumalo هي أكثر جماعات

النديبيلي تميزاً حيث وجدنا دولة النديبيلي في روديسيا بزعامة مزيليكازي. لقد كان الكومالو في الأساس تحت حكم زويدي Zwide في الفترة السابقة على حروب شاكا، أثناء الفترة التي حكم فيها دنجسوايو Dingiswayo المثيثوا Methethwa، وحكم فيها زويدي الندواندوي وحكم فيها سوبهوزا النجوين.

وخلال الحرب بين المثيثوا والندواندوي، والتي قتل فيها دنجسوايو، قتل أيضاً ماشوبين Mashobame والد الزعيم الذي نحن بصدده (مزيليكازي)وكان قتله بناء على أوامر زويدي، لأن زويدي شك في حصوله على مساعدات من المثيثوا. وبعد موته أصبح مزيليكازي هو الحاكم الجديد للكومالو Khomalo رغم بقائه تابعاً لزويدي. وأخيراً نقل مزيليكازي ولاءه إلى شاكا الذي كان متأثراً بكفاءته كقائد لامع قادر. لذا فقد عينه شاكا رئيساً على إحدى فرقه وكانت الفرقة مكونة في غالبها من الكومالو. وفي سنة ١٨٢١ ـ على أية حال ـ خلع مزيليكازي طاعة شاكا وأعلن استقلاله واستقلال شعبه وكان هذا لأن قوات شاكا قد هاجمت الكومالي وشتتهم. وعلى إثر هذا قاد مزيليكازي شعبه بعيداً حتى لا تصل إليهم قوات شاكا، وفي سنة ١٨٢٤ حطوا رحالهم عند مجرى نهر أوليفانت الأعلى Oliphant River. واتخذ من هذا المستقر منطلقاً لشن الغارات على جيرانه، فاستولى على النساء والأطفال والماشية وكان من بين من هاجمهم البيدي في الترنسفال الشمالية، والتسوانا والكولولو.

حروب مزيليكازي :

بين عامي ١٨٢٥ و١٨٣٤ نهب المقاتلون من النديبيلي المناطق الشمالية والوسطى من الترنسفال. وقبل هذا كانت هذه المناطق عامرة بأناس مسالمين منتعشين اقتصادياً واجتماعياً، أما الآن بعد هذه الغارات التي شنها النديبيلي والحروب التي أشعلوها بلا نهاية، فقد تحطَّمت وخَربت هذه المجتمعات تماماً. لقد حطّم الغزاة كثيراً من المستقرات والمحاصيل في الحقول ومخزون الطعام، أما الماشية فقد استولوا عليها. أما النساء والأطفال فقد استولى عليهم النديبيلي وأذابوهم في مجتمعهم. أما الذين نجوا في هذه المناطق وظلوا على قيد الحياة بعد

غارات وحروب النديبيلي فقد لاقوا في أمرهم نصباً حيث الفقر. لقد غدت الحياة بالنسبة لهم غير مثمرة، فامتلأوا يأساً في أرض مليئة بالاسود. ولعل الكوينا Kwena يعدون مثالاً واضحاً على هذه المجتمعات التي تم تدميرها تماماً أثناء هذه الحروب.

إلا أن سنة ١٨٢٩ قد شهدت تراجعاً في النجاحات العسكرية للنديبيلي، ففي هذا العام، قام الكورانا Korana بالتعاون مع جماعات تانج Taung ورولونج Rolong بالهجوم على النديبيلي واستولوا على أعداد كبيرة من قطعان مواشيهم. وعقب هذه الهزيمة، تتابعت الهجمات على النديبيلي من جماعات أخرى، فقد تحالفت قوات عسكرية من الكورانا والجريكا والتانج (أو التونج) والرولونج، مرة أخرى وهاجموا النديبيلي الذين خسروا مرة أخرى كثيراً من الماشية. والواقع أن المقاتلون من النديبيلي كانوا بعيداً يحاربون جماعات النجواتو Ngwato عندما وقع الهجوم السالف الذكر. ومهما يكن، ففي أثناء عودتهم، قاموا بهجوم مفاجىء على أعدائهم واستعادوا ماشيتهم واستولوا على عدة بنادق وبعض الذخيرة وقتلوا عدداً كبيراً من المقاتلين الغزاة. وفي الأعوام التالية قام النديبيلي بعدة هجمات على الباسوتو والنجواكتسي Ngwaketsi (جماعة التسوانا المسيطرة) حيث دفعوا بهم إلى صحراء كلهاري وإلى كوينا في بوتسوانا. وفي بداية سنة ١٨٣٦ هاجم النديبيلي جانباً من البوير الزاحفين وكان البوير يمتلكون البنادق فهزموا النديبيلي الذين لم تغن عنهم أسلحتهم البسيطة وتكتيكاتهم شيئاً. وفي العام التالي أُجبر النديبيلي على الانسحاب شمالاً نتيجة هجمات البوير، والتلوكوا، والجريكا والكودانا، وعندما حل أكتوبر سنة ١٨٣٧ قام البوير بهجوم بقيادة بوتجيتر Potgieter فحطم مُستقرّات النديبيلي تحطيماً نهائياً، وعلى هذا فقد استقر البوير في المناطق التي كان يشغلها النديبيلي قبل ذلك.

التحرّك إلى روديسيا :

ونتيجة انتصار البوير قرر النديبيلي الرحيل صوب الشمال حيث ما يعرف الآن باسم روديسيا. وكانت إحدى المجموعات مكونة من النساء والأطفال وما

تبقى من الماشية، وقد قادهم الزعيم (الاندونا) المسمّى جندوانا نديـويني Gundwana Ndiwene وبنـوا لأنفسهم مستقراً بـالقرب من تـلال ماتـوبو Matoppo. وأسموا هذا المستقر الجديد باسم جيبيكزهيجو Gibixhegu تخليداً لذكر إحدى مدن شاكا التي كانت تحمل نفس الاسم. وثمة مجموعة أخرى كان يقودها زعيم (إندونا) آخر اسمه سيزول Magqekini Sithole ـ وكانت تضم Mzilikazi ـ قد انقطع الاتصال بينها وبين المجموعة الأخرى، وقد اهتدت المجموعة الأولى بواسطة الرُسل إلى مكان المجموعة الثانية وكانت المجموعة الأولى ـ كما سبق القول قد استقرت في روديسيا ـ وبعد أن اجتمع شمل المجوعتين في روديسيا، قام مزيليكازي ببناء عاصمته بالقرب من بولاوايو Bulawayo. كما قام بإعدام جندوين والزعماء الآخرين (الإندونات) الآخرين وكولومان ـ مجلس الوراثة ـ لتآمرهم في تنصيب كولومان حاكماً أثناء الفترة التي فقدت أثناءها المجموعتان اتصال احداهما بالأخرى. وقـد تم تنفيذ حكم الاعدام في تل عُرف فيما بعد باسم تل الاندونات Indunas، وسرعان ما تم تشييد عاصمة ملكية، هي إنياتي Inyati بالقرب من مكان تنفيذ حكم الإعدام في المتآمرين الذين أشرنا إليهم آنفاً.

ولم يواجه النديبيلي صعوبات كبيرة في هزيمة وحكم الشعب المحليّ(*) ويرجع هذا إلى أن الغزو الذي قام عليه غزاة سبقوا النديبيلي إلى هذه المناطق، فقد أسقط النجوني Ngoni امبراطورية الروزوي The Rozwi Empire وقتلوا آخر حاكم لها لذا لم يواجه النديبيلي إلا مقاومة غير مؤثرة من جماعات ضعيفة ومشتتة من الروزوي والكالانجا. وقد عرفت هذه الجماعات على وجه العموم باسم الشونا. وقد نما النديبيلي في موطنهم الجديد هذا وغدوا أغنى وأقوى وزاد تعدادهم. ومن العوامل التي ساعدت على زيادة السكان وصول بعض النجوني الذين انسلوا من جيش زوانجندابا Zwangendaba. ويتضح الرخاء الذي نعم به النديبيلي خلال هذه الفترة النموذجية من إزدياد عدد المستقرات والمدن التي

(*) يعني الجماعات الأصلية التي وجدوها عند وصولهم إلى الموطن الجديد. المترجم

ظهرت وازدهرت في مختلف أنحاء المنطقة. وكانت أهم المدن والمستقرات التي أشرنا إليها هي إنياتي Inyati وماهلوكوهلوكهو Mahlokohlokho وإم هلاهلاندهليلا Em Hlahlandhlela.

وكانت دولة النديبيلي في كثير من جوانبها تشبه مملكة الزولو فقد أثر الزولو بدرجة كبيرة في النظام الإداري والعسكري للنديبيلي. فكما في مملكة الزولو، كان كل معسكر أو تجمع سكاني، على رأسه أندونا، وهذا الإندونا يتم تعيينه مباشرة من قِبَل الحاكم، من بين العشائر العادية وليس من العشائر أو القبيلة الملكية. فهؤلاء الإندونات Indunas هم الذين يدعمون النظام الملكي ويُنَفِّذون تعليماته وسياسته. وكان الحاكم هو الذي يمد الأفواج (الفرق) بالسلاح والطعام. وكانت أفواج (فرق) النديبيلي مثل نظيرتها عند الزولو، متفرِّغة للخدمة العسكرية الفعلية، إلى أن يباح لهم الزواج، فيطلق سراحهم. وكان النديبيلي يستوعبون ويذيبون معظم الشعوب التي يهزمونها مثل الشونا والتسوانا وشعوب أخرى مختلفة ناطقة بلغة السوثو، فيصبحون منهم وضمن مجتمعهم.

ومهما يكن، فقد كانت تنظيمات النديبلي تختلف عن تنظيمات الزولو في جانبين هامين. أولهما، أنه من الناحية العملية كان كل السكان من النديبيلي يمثلون جيشاً من المحاربين لأن النديبيلي كانوا يعيشون وسط شعوب معادية وكان يتحتم عليها بالتالي أن تكون في حالة حرب معظم الوقت وعلى هذا فقد تم تنظيم مجتمع النديبيلي لمواجهة هذا التحدِّي. وكان هناك طبقتان من المحاربين؛ طبقة مكونة من قوات نظامية من شباب غير متزوجين ويطلق عليهم اسم الماشاكا Machaka، والمجموعة الثانية تتكون من محاربين كبار (غير شباب) متزوجين يستدعون للقتال حال إعلان التعبئة العامة، أو عندما يستلزم الأمر تشكيل تجريدات عسكرية كبيرة العدد. وفي الأحوال العادية كان هؤلاء الكبار يزرعون الحبوب ويهتمون بالماشية. أما الفارق الثاني بين تشكيلات النديبلي وتشكيلات الزولو، أن النديبيلي لم يكن لديهم نوعان من الزعماء

(الاندونات) زعماء (اندونات) عسكريون، وزعماء إداريون (مكرسون للأعمال الإدارية) وهو الوضع الذي كان سائداً لدى الزولو، فلا شيء عند النديبيلي سوى التشكيلات العسكرية. إن الأمة كلها جيش واحد كبير، فالاندونات العسكريون عند النديبيلي يقومون بكل الأعمال والمهام التي يقوم بها زعماء (اندونات) المديريات (الأقسام) عند الزولو. فالجيش عند النديبيلي هو مركز السلطة رغم أن الملك هو الذي يرأسه ويديره ويوجه إليه الأوامر.

لوبنجولا وانهيار النديبيلي :

لقد عاش مزيليكازي Mzilikazi حتى سنة ١٨٦٨، ومات في هذا العام بعد أن بلغ من العمر عتيّاً. وقد خلفه على عرش النديبيلي ابنه لوبنجولا Lobengula لكن الزمن سُرعان ما تغير، وأصبح مستقبل دولة الزولو متأرجحاً. ففي سنة ١٨٩٣ حاربت شركة جنوب أفريقيا البريطانية British South Africa Company أمة المحاربين المشهورة(*) وهزمتها. لقد أثبتت وسائل القتال التقليدية التي كانت ناجحة في الأيام الخوالي في ظروف مختلفة عن الظروف الحالية ، عدم فعاليتها في مواجهة بنادق المكسيم Maxim Guns الأوروبية. وثار النديبيلي سنة ١٨٩٠، لكن ثورتهم قُمعت بغير رحمة وانهارت أمة النديبيلي تماماً، وفقدوا خير أراضيهم بعد أن أستولى عليها البيض. ومروا بتجربة مؤلمة وهم يرون مستقراتهم العسكرية المؤسسة على فئات العمر، يتم تحطيمها بأيدٍ بيضاء، بقسوة.

مَمْلكة الزولو ١٨٢٨ - ١٩٠٦ :

لفترة لم تطل، بعد اغتيال شاكا، اشترك دنجان Dingane ومهالنجانا Mhalangana في السلطة بدعم وتأييد من مبهوبا Mbhopa . إلاّ أن الغيرة والخلاف سرعان ما أنشبا أظفارهما بين الثلاثة فغدو أعداء مُمْعنين في العداوة. وكان مهالجانا أوّل من تم اغتياله بأوامر من دنجان. وأعقب اغتياله، مزيدٌ من الاغتيالات للمنافسين المحتملين وكان من بينهم مبهوبا. وهكذا أصبح دنجان

(*) يقصد النديبيلي. (المترجم)



دنجان ، زعيم الزولو
(١٨٢٨ - ١٨٤٠)



مباندي، زعيم الزولو ، على عرشه
(١٨٤٠- ١٨٧٣)

حاكماً فرداً. وحاول دنجان أن يتقرب من الشعب بالتخفيف من النظام الصارم لأفواج (فرق) العمر العسكرية الذي وضعه شاكا، فقد سمح للمحاربين بمغادرة المعسكرات، وسمحت لهم النظم الجديدة بالزواج في سن أصغر ووقت أقرب مما كان مسموحاً لهم به قبل ذلك. وفي الوقت نفسه وضع دنجان نهاية للتجريدات العسكرية. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الوضع لم يكن ليستمر طويلاً. فسرعان ما كانت هناك محاولات لفرض نظام صارم مستقل مرّة أخرى، ليكون الجيش عاملاً فعّالاً. فقد بدأ المقاتلون الزولو هجماتهم ضد البوندو Pondo والنديبيلي الذين كان يقودهم مزيليكازي Mzilikazi والنجوين الذين كان يقودهم، سوبهوزا، واستولوا على كثير من الماشية.

وأثناء حكم دنجان، دخل الزولو في أول اتصال حاسم لهم مع البيض. وبوجه عام كان دنجان في علاقة صادقة مع الإنجليز في الناتال، لكنه كان مهتماً بأمن دولته، وكان غير سعيد أيضاً لأن عدداً كبيراً من رعاياه قد انْسلوا إلى الناتال كلاجئين، فأي شعب كان يمكن أن يهدد استقرار الدولة بالهجوم عليها. وعلى هذا قرر دنجان الدخول في اتفاقات مع رجل إنجليزي اسمه الكابتن آلن جاردنر Captain Allen Gardiner كان يتمتع بشيء من السلطة والنفوذ على البيض في الناتال وقد أشرنا لهذه الاتفاقية في الفصل الثالث. وتناولت الاتفاقية قيام سلطات الناتال بإرجاع اللاجئين من الزولو إلى بلاد الزولو (زولولاند). وتناولت أيضاً السماح للإرساليين بممارسة عملهم الإرسالي في بلاد الزولو، وفي سنة ١٨٣٦ بدأت إرسالية إنجليزية وثلاث إرساليات أمريكية عملها في بلاد الزولو إذ بدأوا في تعليم الإنجيل والتبشير به. وأخيراً في سنة ١٨٣٨ ـ على أية حال ـ غادرت الإرساليات بلاد الزولو نتيجة الحروب الناشبة بين البوير والزولو.

فالعلاقات مع البوير كانت صعبة بسبب جشعهم الشديد وحاجتهم المتزايدة للأرض. ففي نوفمبر سنة ١٨٣٥ وصل بيت رتيف Piet Retief إلى منزل دنجان في الناتال وطلب منه حصول البوير على الأراضي الخصبة في بلاد

الزولو (كان البوير في هذه الفترة في مرحلة الزحف العظيم). لقد صَمَّم البوير على احتلال الناتال سواء وافق دنجان أم أبى. ففي ٣ فبراير ١٨٣٨ عاود رتيف الاتصال بدنجان ليكرر طلبه في الحصول على الأراضي، وفي نفس الوقت كان البوير يزحفون على الناتال ويحتلونها قبل أن يقرر دنجان شيئاً، ولما وجد دنجان نفسه في موقف صعب وقع على ميثاق يعطي الناتال للبوير، وكان ذلك هو الطريق الوحيد لمنع حرب مدمرة غير متكافئة، ولكنه لم يكن سعيداً بهذه الاتفاقية التي أُجبر على قبولها وأمر باغتيال جماعات البوير الذين هاجمهم الزولو فجأة في جبال ماتيوين Matiwane Hill . لقد كان الزولو يأملون في التخلص من تهديد البوير وإزاحتهم من طريقهم، ورغم أن رتيف وعدداً كبيراً من البوير قد لاقوا حتفهم إلاَّ أن الهزيمة قد حاقت أخيراً بالزولو، فولوا هاربين بعد أن تعرضوا لخسائر جسيمة. وأرسل بريتوريا دعماً من الجند من الكيب وشن البوير بزعامة بريتوريا هجوماً كبيراً ساحقاً على الزولو وهزموهم في المعركة الشهيرة التي عرفت بنهر الدم في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٣٨.

واكتمل انهيار مقاومة الزولو بتوقيع اتفاقية أنهت الحرب. ووفقاً لبنود هذه الاتفاقية كان على الزولو إخلاء الناتال تماماً، التي شغلها الآن البوير. وبعد ذلك بعامين، في فبراير ١٨٤٠ خلع مباندي Mpande أخاه دنجان واستولى على العرش بمعاونة البوير في مقابل أن دفع ـ أي مباندي ـ للبوير بعض قطعان الماشية.

وقد تمتعت المنطقة التي يشغلها الزولو تحت حكم مباندي برخاء واستقرار نِسْبيّين ويرجع هذا إلى حد كبير لدعم البوير له ولانعدام الحرب بين الطرفين. وخلال هذه الفترة الطويلة التي حل فيها السلام ازداد عدد سكان الزولو بثبات بسبب عودة اللاجئين وبسبب التوالد الطبيعي أيضاً، فضاق المكان ولم يعد هناك مجال للتوسع. وقد أدت فترةالسلام الطويل هذه إلى تأثيرات سلبية على نظام الأفواج العسكرية (الفرق) الذي كان يهدف أولاً وأخيراً لخدمة أغراض الحرب، فغدا المحاربون في حالة سأم وضجر من هذه الحياة الجديدة الرتيبة

المُملّة الخالية من المغامرة وروح التحدي. وغدا الموقف أكثر سوءاً بسبب النزاع الناشب بين أبناء مباندي على العرش. فقد أصبح أبناء الملك في ضجر متزايد بسبب عمر والدهم الذي يمشي رتيباً مملاً، وتمضي الدولة معه في طريق الضعف.

حُكم سيتيوايو Cetewayo :

وعلى أية حال، ففي سنة ١٨٧٣، أصبح سيتيوايو من الناحية الرسمية هو الحاكم، وهو ابن دنجان، وقد قام بتنصيبه السير ثيوفيلس شبستون Theophilus Shepstone، المسؤول الناتالي عن الشؤون الداخلية (الوطنية) Native Affairs. لقد فاز حزب سيتيوايو (المسمى أوسوتو Usutu) إذن في صراعه على العرش ضد المنافسين. وفي عهد سيتيوايو استعاد الجيش قوته مرّة أخرى. وعلى أية حال، ففي هذا الوقت، كان استقلال الزولو متأرجحاً غير محسوم، ثم أتى يوم حاسم في تاريخ الزولو خلال شهر إبريل سنة ١٨٧٧ حيث تم إلحاق الزولو ببريطانيا، وكان التعليل الرسمي هو أن الزولو يشكلون تهديداً للترنسفال وأن زعيم البيدي Pedi المسمى سيكوكوني Sekukuni قد تسبب في هزيمة مخزية للترنسفال. وعلى أية حال لم تكن هذه هي الأسباب الحقيقية، فقد تم عصر الزولو ومحقهم لإيجاد الظروف المواتية والمناخ الضروري لتشكيل اتحاد فدرالي بين دول البيض في جنوب أفريقيا. لقد كان من المأمول أن يُزيل إلحاق بلاد الزولو ببريطانيا مخاوف مستعمرة الكيب بالدخول في اتحاد فدرالي مع الناتال التي كانت عرضة لهجمات الزولو. ولم يكن لدى البوير شك في مقدرة بريطانيا على التباحث مع الأفريقيين لجعل أراضي الزولو ميسرة مباحة لاستقرار البوير. فإذا كان ثمة قرار لهزيمة وإذلال الزولو، فذلك قرار لا رجعة فيه، وفي وقت سابق وجه السير بارتل فرير Bartle Frere حاكم مستعمرة الكيب أمراً إلى الزولو بحل كل تنظيمات دولتهم، ولم يكن من الممكن قبول هذا، فقامت القوات البريطانية في يناير ١٨٧٩ بغزو بلاد الزولو، غير أنها واجهت هزيمة منكرة في معركة إيزاندهلوانا Isandhlwana. وقد أدى انتصار الزولو إلى ثلم

القوة البريطانية، وهز معنوياتها، كما أدى إلى تشجيع البوير في الترنسفال على الثورة كما نتج عن هذه الهزيمة أيضاً إبطال محاولات إقامة الاتحاد الفدرالي. وبعد انقضاء ستة شهور على هزيمة إيزاندهلوانا، أرسل البريطانيون حملة ضخمة العدد والتجهيزات ضد الزولو فألحقوا بالزولو الهزيمة واستولوا على عاصمتهم أولوندي Ulundi وتم القبض على سيتيوايو وأُرسل إلى مدينة الكيب. لقد تفوقت الأسلحة النارية للأعداء (الإنجليز) على تكتيكات الزولو العسكرية العتيقة وأسلحتهم. وبذا وضعت معركة أولوندي نهاية لاستقلال مملكة الزولو.

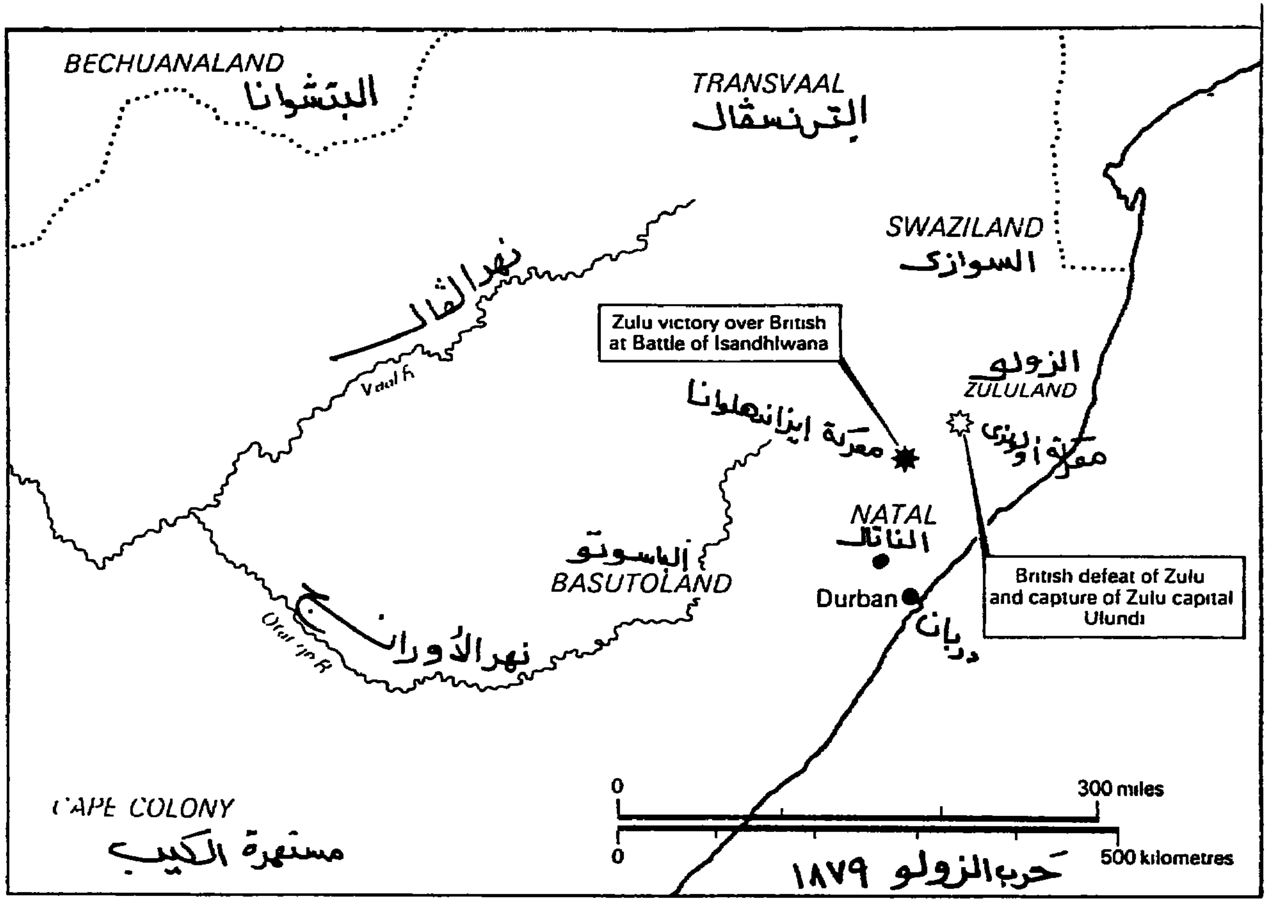
ورغم أن مملكة الزولو لم تُلحق مباشرة ببريطانيا إلاّ أنه تم تقسيمها إلى ١٣ ولاية على رأس كل منها زعيم عينته بريطانيا. وكان واحد من هؤلاء الزعماء تحت رئاسة جون دن John Dunn وهو إسكتلندي. وقد فشل هذا النظام ونتج عنه اضطرابات ونزاعات كثيرة بين هذه الأقسام، وعاد التنافس من جديد بين الأحزاب (التكتلات) القديمة مثل الأوزيبيبو Usibebu والأوسوتو Usutu.

وقد أثبتت إعادة سيتيوايو المؤقتة للعرش سنة ١٨٨٣ عدم جدواها لذا كان يتعيّن عليه مغادرة البلاد مرّة أخرى، وقد مات في المنفى في العام التالي.

حكم دينيزولو وانهيار بلاد الزولو :

بعد فترة اضطرابات، تميزت بنزاعات وخلافات ومكائد، محورها وراثة العرش برز دينيزولو Dinizulu الابن الأكبر لسيتيوايو، كحاكم جديد. ورغم أن عمره كان ١٥ سنة فقط عند نفي والده، إلا أنه لقي تأييداً من بعض مستشاري أبيه السابقين الذين كانوا ينظرون إليه كوريث شرعي لعرش الزولو. وإزداد وضعه قوة عندما نجح المستشارون في الحصول على تأييد الفلاحين الأفريكانر(*) Afrikaner Farmers في شمال الزولولاند (بلاد الزولو) وساعده

(*) اطلق اسم الأفريكانر على البوير في مرحلة من المراحل.


BECHUANALAND
TRANSVAAL
SWAZILAND
Zulu victory over British at Battle of Isandhlwana
ZULULAND
NATAL
Durban
BASUTOLAND
British defeat of Zulu and capture of Zulu capital Ulundi
Vaal R
CAPE COLONY
0
300 miles
0
500 kilometres
حرب الزولو ١٨٧٩

المزارعون الأفريكانر ضد منافسيه (حزب الايسيبيبو Isibebu) وأعادوا تشكيل أتباعه كزعيم أعلى للزولو. وأعلن هؤلاء المزارعون الأفريكانر منطقة الزولو الشمالية الغربية كجمهورية جديدة لهم دون غيرهم وأعلنوا هيمنتهم على بقية بلاد الزولو ما عدا مستوطنة الزولو التي تلي الناتال The Zulu Reserve . وفي سنة ١٨٨٦ اعترفت بريطانيا بهذه الجمهورية الجديدة التي تقلّص حجمها عمّا كان مبيناً في بيان إعلان قيامها. وفي نفس الوقت إدعت هذه الجمهورية الجديدة حقها في الاشراف على دينيزولو Dinizulu وتبعيّته لها. وفي العام التالي اختفت هذه الجمهورية من الوجود عندما اندمجت في الترنسفال.

ولم يكن دينيزولو ومستشاروه متوائمين مع وضعهم الجديد كشعب تابع وقد حاول هو ومستشاروه أخيراً أن يثوروا، ولكن السلطات قبضت عليه ونفته إلى جزيرة سنت هيلينا، ولكنه عاد إلى وطنه سنة ١٨٩٧ كمجرد زعيم محلي في منطقة أسوتو Usutu.

ثورة البامباتا سنة ١٩٠٦ The Bambata Rebellion :

في بواكير سنة ١٨٩٤، أُلحق ما تبقى من دولة الزولو الأصلية بالناتال. ونتج عن هذا أن خسر الزولو مزيداً من الأراضي لصالح الأفريكانر خاصة في الفترة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٤، عندما تحوّل ثلثا المنطقة لأماكن مفتوحة لإقامة المستقرّات البيضاء. لقد كانت علاقة الزولو بالسلطات في الناتال غير حميمة خاصة بعد فرض ضريبة الرؤوس ومقدارها جنيهاً استرلينيعلى الرأس، ورغم أن هذه الضريبة فرضت كإجراء لحل المشاكل الاقتصادية إلا أنها لم تكن مرغوبة ولا شائعة بين الزولو. وفي أوائل سنة ١٩٠٦، على سبيل المثال، واجه المسؤولون في مناطق الأومجيني Umgeni والجريتون Greytown عقبات عند ممارسة عملهم في جمع الضرائب فقد ظهر زعيم سابق اسمه بامباتا Bambata كانت الحكومة قد عزلته، لكنه عاد للظهور وأيده الآلاف من الثوار حول نهر توجيلا Tugela River واصطدم الثوار مع قوات الحكومة التي سرعان ما استعادت السيطرة على الموقف. وتلك هي ثورة البامباتا التي راح ضحيتها ٢٣ من البيض و٣٠٠٠ من الأفريقيين.

الفصل السابع

تطوّر الأمم الجديدة : ٢ ـ السوازي والباسوتو

كما رأينا في الفصل السابق، كان من نتيجة التغييـرات الكبرى في الظروف الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية منذ نهاية القرن الثـامن عشر فصاعداً، أن ظهرت إلى الوجود دول أقوى وأضخم. وفي هذا الفصل سنتناول دولتي السوازي Swazi والباسوتو Basuto.

السوازي ـ حُكم سبهوزا **Sobhuza** :

ترجع جذور وتطورات دولة السوازي إلى زمن الملكين سبهوزا ومسواتي Mswati. فبعد أن هزم الندواندوي Ndwandwe جماعات النجوين قام سبهوزا بقيادة شعبه المهزوم وسط ما يعرف اليوم باسم سوازيلاند (بلاد السوازي). وفي موطنهم الجديد شنوا حروباً على النجوني Nguni والجماعات الناطقة بلغة السوثو Sotho، وأعادوا تنظيم أنفسهم في دولة جديدة كبيرة، ولقد كان النجوين قادرين على هزيمة خصومهم ويرجع هذا إلى عاملين رئيسيين. أولهما أنهم كانوا أكثر عدداً من خصومهم، وثانيهما أنهم كانوا أفضل تنظيماً إذ كان أعداؤهم منتظمين في جماعات صغيرة، وبالتالي فقد كانوا ضعافاً، لأنهم كانوا جماعات منفصلة إحـداها عن الأخرى. وكان النجوين منظمين في أفواج (فرق) وفقاً لفئات العمر تماماً على نفس النسق الذي اتبعه المثيثوا تحت زعامة دنجسوايو كما سبق أن وضحنا في الفصل الخامس.

ونتيجة السياسة التي اتبعها سبهوزا حققت هذه الأمة الجديدة الضخمة وحدتها وترابطها، وتلك ضرورة خاصة لنجاح دولة متعددة الأعراق (القبائل).

وتحت قيادة سبهوزا كانت الجماعات المهزومة تعامل برفق بعد إلحاق الهزيمة بها. فالجماعات المهزومة كانت تفقد استقلالها ويتم تجنيد شبابها وإدراجهم ضمن فرق (أفواج) فئات العمر المشكلة من النجوين الناطقين بالنجوني — Nguni Speaking Ngwane لكن سبهوزا كان رفيقاً بهم بل وكان يسمح لهم باستعادة زعاماتهم القديمة Their Old Chiefs. وبالإضافة لهذا فقد كان المحاربون المشهود لهم بالكفاءة، من غير النجوين، يحصلون على نفس المزايا والوضعية الاجتماعية التي لزملائهم من النجوين. لهذه المعاملة الودودة، سرعان ما تطور ولاء الشعوب الأخرى من غير النجوين لهذه الدولة الجديدة. فعلى سبيل المثال، أصبحوا يتحدثون بلغة النجوين وتبنوا ثقافتهم رغم احتفاظهم إلى حد كبير بهويتهم الأصلية على المستوى المحليّ.

أما عن علاقة سوبهوزا بالدول المجاورة له فقد اتبع سياسة واضحة وحذرة مع الجميع، فطالما كان هدفه الرئيسي هو تقوية وضعه ودولته الجديدة، لذا فقد تجنب الحروب غير الضرورية ضد جيرانه. فعلى سبيل المثال نجده قد احتفظ بعلاقات صادقة مع الندواندوي، كما تزوج سبهوزا من بنات ذويدي، كما كان شعب سبهوزا في حالة تفاهم مع شاكا، وعلى هذا، فلم يشن عليهم هجوماً. وحتى عندما أرسل دنجان (الذي تولي مُلك الزولو بعد شاكا) جيوشه ضد السوازي، قام سبهوزا بتوجيه النصيحة لشعبه بالانسحاب إلى منطقة آمنة لتجنب الدمار الذي قد ينتج عن المقاومة. وفي النهاية وجدنا السوازي يستدرجون الغزاة بعيداً مما أرهقهم وأضعفهم. ومن سوء الحظ فإن هذه الفترة التي نعم فيها بالسلام والاستقرار لم تستمر للأبد. ففي سنة ١٨٤٠ مات قائدهم الموفق وخلفه في الحكم ابنه مسواتي Mswati.

حكم مسواتي Mswati ١٨٤٠ - ١٨٧٥ :

كان مِسْواتي ابنا لسبهوزا، أنجبه من ابنة زويدي. وقد حكم لمدة طويلة وأصبح أعظم ملوك السوازي، فأعطى اسمه للشعب الذي يحكمه، فتحت حكمه أصبح السوازي شعباً قوياً ومغامراً، وتم تحسين وتدعيم تنظيماتهم

السياسية والعسكرية لتتمشى مع المتطلبات العصرية. وكان حكم مسواتي يتسم بالأهمية أيضاً للاتصالات التي أقامها مع البوير.

أ ـ النظام الإداري :

كان نظام الحكومة عند السوازي متأثراً على نحو ما بنظام الزولو. فقد كان لدى الزولو نظام الزعماء الاقليميين الذين كان معظمهم ينحدرون من الأسرات الحاكمة الأصلية قبل غزو النجوين. وفي نفس الوقت كان هناك زعماء قد عُيّنوا في مناصبهم من قِبَل الملوك مباشرة كسبهوزا ومسواتي. وكان كل الزعماء Chiefd خاضعين مباشرة للسلطة المركزية وكانوا مرتبطين بالمقر الملكي في مناطقهم ولم يكن لهم الحرية في التصرف واتخاذ القرارات كحكام مستقلين. وإن كان هؤلاء الزعماء من السوثو يتميزون عن نظرائهم الزعماء الزولو، في أنهم كانوا يمارسون ـ على أية حال ـ قدراً معتبراً من السلطة. وكان هؤلاء الزعماء بالإضافة للشخصيات القيادية الأخرى يشكلون مجلساً هاماً لمناقشة الكبرى للدولة. كما كان في مقدور الزعماء استخدام المحاربين الشباب الخاضعين لسلطتهم في الصراعات المحلية، كما كانوا يميلون لتدعيم وتقوية وضعهم المحلي بحيث لا يهدد هذا بأية حال من الأحوال، الحكومة المركزية، وكان نظام السوازي يختلف عن نظام الزولو أيضاً في جانب آخر هام، فكل الذكور الكبار في مقدورهم حضور اجتماعات منتظمة لدى قادة الدولة وهم بهذا الاجتماع يشكلون جمعية عمومية أوسع وأضخم من مجلس الزعماء Chief's Council، كما كان هذا الاجتماع الموسّع مجالاً للمناقشة المفتوحة وتوجيه النقد. وكان يعقد دورياً وفي هذا الاجتماع كان يمكن نقد الملك نفسه بل ويمكن استدعاؤه إذا كان متغيّباً. وبالإضافة لهذا، كان يمكن للمجتمعين تعديل قرارات الزعماء العموميين أو مجالس الزعماء أو رفضها. وكانت الحكومة تقبل ذلك على أساس حرية الكلمة. وهذا النظام يختلف اختلافاً كبيراً عن النظام الأوتوقراطي عند الزولو والنديبيلي.

وعلى عكس الزولو، كان السوازي يحتفظون بأهمية كبيرة وتقدير بالغ

للملكة الأم The Queen Mother رغم أنها لم تكن تمارس أي سلطة فعلية ومع هذا فقد كانت تلقى احتراماً بالغاً كما كانت تشرف على الملك وكان مقرها هو العاصمة الرسمية للمملكة وإذا مات الملك فإنها تصرف الأمور كوصية على العرش إذا كان الوريث ما زال صغيراً، وكانت تكبح جماح وليدها إذا ما جنح للخشونة وعدم المسؤولية. لكل هذا تبوّأت الملكة الأم مكاناً علياً، وكانت هي قطب الرحى، ومحور الولاء الوطني.

وكما في كثير من المجتمعات المُمَاثلة، كالزولو والنديبيلي فإن الولاء للأمة يعتبر قوّة ورابطة حقيقية وليس مجرد مسألة عاطفية. حقيقة أنه من الطبيعة المتأصلة للتنظيمات العسكرية والسياسية لهذه الشعوب، أن يكون مجرد التعبير الرمزي عن الولاء للدولة، غير ممكن وغير ضروري . فليكون الولاء للدولة مؤثراً وذا معنى يجب أن يكون الفرد جزءاً من بنائها الحياتي المعتمد (المقبول) ونتيجة له. وقد كان هذا البناء الحياتي بين الزولو يعتمد في أحد جوانبه على الرابطة الشخصية بالمجتمع بمعناه الواسع انطلاقاً من العشيرة باعتبارها أصغر وحدات المجتمع. ولأن كل الأفراد لهم ارتباطات حميمة والتزامات إزاء العشائر الأخرى من خلال الأفواج العسكرية (الفرق) المعتمدة على فئات العمر، والزعامات التي تضم أكثر من جماعة والمجالس العامة، وعلى هذا، تصبح الأمة كبيرة، ويتطور معنى الولاء القوي للدولة. فهذه الولاءات (الانتماءات) المتعددة تعمل على تدعيم وتقوية الوحدة في الدولة متعددة العشائر ، متعددة القبائل Multi — Clan and Multi —Tribal State.

ب ـ التنظيم العسكري :

لقد كانت طبيعة التنظيم العسكري هي التي جعلت ـ إلى حد كبير ـ دولة السوازي تتطور سريعاً وبفاعلية نحو المركزية(*) وهذا النظام متأثر إلى حد كبير بنظام الأفواج (الفرق) العسكرية المعتمدة على فئات العمر لدى الزولو خاصة

(*) يقصد تحول الانتماء إلى الحكومة المركزية بدلاً من تحلقه حول القبيلة أو العشيرة.

(المترجم)

في استخدامها لرماح الطعن واستيعاب الشعوب المهزومة، وقد تعرضنا لهذا في الفصل الخامس. لقد أسس السوازي مستقرات (معسكرات) عسكرية كما شَكلُّوا فرقاً (أفواجاً) معتمدة على فئات العمر كان يندرج فيها شباب من مختلف أنحاء المنطقة(*). وفي الظروف العادية كان غالب الشباب يخضعون لسلطة زعمائهم القبليين أو العشائريين Chiefs ولكن إذا حان وقت الحرب اتخذوا جميعاً طريقهم للعاصمة الملكية واندرجوا في وحداتهم العسكرية وفقاً لفئات أعمارهم. وإن كان بعض الشباب يستقرون في العاصمة الملكية حتى في وقت السلم للعناية بالسلاح والاهتمام بالماشية. وفي العاصمة كانوا يختلطون بشباب آخرين من مختلف أنحاء الأمّة وعند التدريب يلتحق كل منهم بفئة عمره المناسبة ويظلون في معسكرهم حتى يحين حين تسريحهم. وكل قادة أفواج العُمر (الفرق) يتم تعيينهم مباشرة من قِبل الملك من بين أفراد الأسرات العادية (غير ذات الزعامات السابقة) هذاالنظام الكفء خلط الناس من كل ركن من أركان الدولة ليجعل منهم أمة واحدة لها مصالح وخبرات مشتركة. حتى الشعوب أو القبائل المهزومة غدت جزءاً من هذه الدولة الكبيرة، وهذا النظام أدى إلى مزيد من التأثير على وضع الملك، فجعله أقوى.

وقد أتيح لجيش مسواتي Mswati أن يجرب فعاليته عندما اشتبك مع مملكة شانجان Shangane Kingdom في جنوب موزمبيق (انظر الفصل السادس) فبعد موت شانجين سنة ١٨٥٦ تصارع ابناه ماويوي Mawewe ومزيلا Mzila على العرش، فاستنجد الوريث الشرعي وهو مواوي طالباً مساعدة مسواتي وعندما تدخلت قوات السوازي هزمتها قوات مزيلا الذي كان يلقى مساعدة وتأييداً من البرتغاليين عن طريق خليج دلجوا Delagoa واستمرت هذه الحرب حتى سنة ١٨٦٢ وفي نهايات هذه الحرب كان السوازي قد حطموا كثيراً من ممتلكات أعدائهم وضموا قراهم.

(*) أي أن الرابطة التي تجمعهم هي فئة العمر، وليس القبيلة أو العشيرة.

(المترجم)

وبعد موت مسواتي سنة ١٨٧٥، كان وريثه مباندزيني Mbandzeni أكثر منه مغامرة واستخدم الجيش الذي ورثه عن أبيه في شن الغارات على أعدائه. لقد أرسل جيش السوازي المقاتل ليحارب ضد شعب جمهوريتي زوتبانسبرج Zoutpansberg وليدنبرج Lydenberg في الترنسفال وسبب لهما كثيراً من الخسائر. وفي سنة ١٨٨٠ حارب مقاتلوه جنباً إلى جنب مع البريطانيين ضد البيدي Pedi الذين كان يقودهم سيكوكوني Sekukuni وحاقت الهزيمة بالبيدي. وفي سنة ١٨٩٠ مات مباندزيني وخلفه بونو Bunu.

الاتصالات بالأوروبيين :

لقد نجح السوازي إلى حد بعيد في دمج الغرباء في مجتمعهم. إلّا أن قدوم البيض قد غير الوضع إذ كان من الصعب دمجهم في مجتمع السوازي بسهولة كما أن البيض على أية حال لم يكونوا راغبين في أن يصبحوا من رعايا الملوك السوازي، كما أن البيض كانوا طامعين في الحصول على أراضي السوازي الخصبة. وفي البداية كان قدوم البوير سلمياً ولاقوا من السوازي ترحيباً حاراً، وفي سنة ١٨٤٥ قدَّم لهم مسواتي منطقة واسعة لاستخدامهم الخاص ثم سُمح لهم بعد ذلك برعي ماشيتهم في أنحاء الاقليم (الذي يسيطر عليه مسواتي) وخلال هذه الفترة زاد البوير من نفوذهم بتقديم مساعدة للسوازي ضد البوكو Poko سنة ١٨٦٤، كما قدموا مساعدة لمباندزيني Mbandzeni للوصول للسلطة.

وكلما زاد عدد البوير ونفوذهم زاد قلق السوازي على أمنهم. ولأن البوير قد استولوا على أراضي السوازي الخصبة كان على السوازي أن يحاربوا البوير حرباً وقائية ضد هجوم محتمل. ولمواجهة هذا الخطر، أعاد مباندزيني تنظيم إدارته وعين للبيض المقيمين في بلاده زعيماً Chief عليه الرجوع إلى ملك السوازي، ووقع الاختيار على السير ثيوفيلس شبستون وهو ابن Theophi-lus Shepstone الذي كان الضابط البريطاني المسؤول في الناتال. وقد كان على خبرة بالأمور التي تمس الأوروبيين في السوازيلاند (بلاد السوازي) ولكنه كان

تابعا للملك ويتعين عليه وضع رأيه موضع الاحترام. ولمساعدته في عمله، تم إنشاء لجنة من البيض مكونة من أعضاء منتخبين وآخرين معينين من قِبَل الملك. ومهما يكن، فإن الوضع لم يكن هيناً بسيطاً فلم يكن من السهل حكم البيض والسيطرة عليهم ولا حتى بواسطة شبستون. فقد كان البوير مزارعين راغبين في المزيد من الأراضي كما كانوا يعملون على ضم المنطقة بأسرها للترنسفال. وفي نفس الوقت كان البريطانيون في بلاد السوازي طامعين في معادن هذه البلاد ولهم مصالحهم التجارية فيها وراغبين في بسط الحماية عليها. وقد أعطى مباندزيني للإنجليز حق تصدير التمباك وامتيازات تعدينية. وكانت هذه الحقوق التي حصل عليها الإنجليز ستتعرَّض للتهديد إذا ما تم إلحاق بلاد السوازي بالترنسفال وخضعت بالتالي لسيطرة البوير.

إلحاق بلاد السوازي:

لقد أدى فشل اللجنة المكونة من البيض White Committee في العمل بطريقة مناسبة إلى انحلالها، وحلَّت محلها حكومة مؤقتة Provisional Government تمثلت فيها مصالح السوازي والبوير والإنجليز، ولكن التجربة فشلت بسبب الفساد والرشوة والسيطرة البيضاء والكبر والعجرفة. وفي النهاية لاقت طلبات البوير الملحاحة بإلحاق بلاد السوازي دعم البريطانيين، وفي ١٨٩٤ أصبحت بلاد السوازي ملحقة بالترنسفال وتخضع للحكم هناك. ولم يكن هذا التغيير مألوفاً لدى السوازي ولم يكن من الممكن الموافقة عليه. وفي نفس الوقت كان البوير ممتعضين لخضوع حكمهم لحكومة السوازي. وقد وصل الأمر بالبوير إلى حد محاولة القبض على بونو Bunu الملك الجديد الذي نجح في الوصول إلى العرش بعد موت مباندزيني سنة ١٨٩٠. وفرض البوير ضرائب جديدة حققت مكاسب لهم ولكنها أضرت بالسوازي. ويرجع الفضل لنشوب الحرب بين البوير والإنجليز Anglo - Boer War (١٨٩٩ - ١٩٠٢) في انتهاء حكم البوير وإعلان بريطانيا السوازيلاند (بلاد السوازي) محمية بريطانية رغم أنه عند إعلان الحماية كان السوازي قد فقدوا فعلاً معظم أراضيهم

الخصبة لصالح البيض. ورغم حصول السوازي على استقلالهم منذ سنة ١٩٦٦ إلّا أن الاقتصاد السوازي ما زال ضعيفاً بحيث ما زال يتحتم على كثير من أفراد الشعب السوازي أن يعملوا في مزارع جنوب أفريقيا ومناجم الذهب والماس الغنية فيها. كما أن دولة السوازي تعتمد على جنوب أفريقيا أيضاً في مواصلاتها الرئيسية التي تربطها بالعالم الخارجي.

الباسوتو :

دولة الباسوتو هي ما تعرف الآن باسم ليسوتو Lesotho . وكانت هذه البلاد في الأساس وطناً للبشمن Bushmn والكوينا Kwena وفروع جماعات الفوكنج Fokeng المنحدرين من السوثو Sotho، والجماعات الناطقة بلغة النجوني Nguni — Speaking People. وكل هؤلاء البشر عاشوا في مُسْتقرات (مستوطنات) صغيرات منعزلات، أما البشمن فكانوا يعيشون في كهوف في المناطق الجبلية. وعلى أية حال، ففي مطلع القرن التاسع عشر كان كوانا Kwana زعيم الموتلومي Motlomi منشغلاً بمحاولة دمج المجموعات المختلفة معاً في مجتمع أكبر. وخلافاً لكثيرين من معاصريه الكَلِفين بالحرب وبث الرعب كان موتلومي يفضِّل الوسائل السلمية في دمج الشعوب والجماعات الأخرى. وبهذه الطرق، وأيضاً بارتباطاته عن طريق الزواج بالجماعات الأثنية المختلفة، كان له تأثير ـ أي لموتلمي ـ على نطاق واسع. وقبل وفاته سنة ١٨١٥، كان قد نجح في التأثير على موشيش Moshesh ابن موكاشين Mokachane أحد الزعماء الصغيرين في الكوانا Kwana فقد علّمه أن الحكام الطيبين هم الرفيقون برعاياهم، المحتفظون بعلاقات سلمية مع جيرانهم.وفي رحاب هذه التعاليم نشأ موشيش قائداً عظيماً حكيماً.

عظمة موشيش :

لنفهم طبيعة وعظمة موشيش نحن في حاجة إلى معرفة ما انجز للباسوتو. لقد كان موشيش مسؤولاً عن تأسيس وإيجاد أمة الباسوتو، على نحو ما كان شاكا ومزيليكازي مسؤولين عن إيجاد امتى الزولو والنديبيلي. لقد أدمج

موشيش مجموعات عرقية مختلفة ليجعل منها أمّة واحدة، تلك المجموعات التي أُخرجت من أوطانها بسبب حروب بداية القرن التاسع عشر، وجعل منها دولة موجدة راسخة الأركان. فمن خلال سياسته السلمية وبسبب صبره وفهمه، أعاد للقانون احترامه، وفرض النظام والاستقرار بين هذه الشعوب (الجماعات) التي كان عددها قد قل بسبب الحروب المتواصلة كما كانت قد اضطرت لأكل لحوم البشر، كما اضطرتهم ظروفهم لأن يكونوا قساة لا مبالين. لقد قدم لهم موشيش الأرض والماشية ليستقروا ويكونوا قوماً مطيعين للقانون.

لقد أتى بعض اللاجئين من الناتال، بينما كان آخرون من جماعات الرولونج Rolong (وهم من الهوتنتوت غير المنغلفين على أنفسهم تماماً — Half Caste Hottentots) كما قدمت جماعات من الكوراناس والثمبو Koranas and Thembu كما سُمح للهلوبي Hlubi والمثلوماكهولو Mehlomakhulu من بلاد البوندو Pondoland بالاستقرار لفترة قصيرة في بلاد الباسوتو، أثناء فترات الاضطراب التي اجتاحت جنوب أفريقيا. وبعودة السلام عاد كثيرون من الجماعات الناطقة بلغة السوتو Sotho Speaking Peoples إلى بلادهم قادمين من مستعمرة الكيب حيث كانوا قد التجأوا إليها طلباً للحماية، وقد أعادوا معهم قطعانهم وفاخروا السكان المحليين(*).

الحرب والدبلوماسية :

رغم أن موشيش كان يكره الحرب إلا أن أعداءه كانوا كثيرين راغبين في تحطيم دولته. فعلى سبيل المثال شن الجريكا والكورانا ـ الذين كان مقاتلوهم يمتلكون البنادق ويحاربون من فوق صهوات الخيول ـ العديد من الهجمات المخربة على الباسوتو. فاستولوا على قطعان ماشية الباسوتو ودمروا قراهم ومزورعاتهم. كما كان التلكوا والنجوين طامعين أيضاً في ماشية الباسوتو، فهاجموهم بُغية الاستيلاء عليها، إلّا أن التلكوا (الذين أصبح اسمهم المانتاتيز) لاقوا الهزيمة سنة ١٨٥٣ وتم إدماجهم عقب ذلك في الباسوتو، وهرب

(*) تعالوا عليهم بما يملكون من قطعان. (المترجم)

سيكونيلا Sikonyela قائدهم مع جماعة من أتباعه إلى شمال شرق مستعمرة الكيب. وقد قام موشيش لانقاذ شعبه باستخدام الدبلوماسية جنباً إلى جنب مع الحرب، فدفع إتاوة إلى شاكا وقدم بعض الماشية إلى النديبيلي. ونتيجة لكل هذا تركهم أعداؤهم يعيشون مستقلين.

وكان أحد أسباب نجاح موشيش هو إدراكه لقيمة المواقع الدفاعية الجيدة. فقد بنى عواصم بلاده في مواقع يمكن الدفاع عنها ضد الأعداء بسهولة. وقد وضع هذا في الاعتبار في تلك الأيام التي ساد فيها الاضطراب وانعدم الأمن، وكانت الحرب عادة يومية. وكانت أول عاصمة هي بوثا بوثا Butha — Butha في الشمال الشرقي من المنطقة (منطقة الباسوتو) وعندما أثبتت الأحداث أن هذه العاصمة غير كافية أثناء هجمات التلكوا Tlokwa تم نقل العاصمة إلى Thaba Bosiu ومعناها تل المساء وقد سميت بهذا الاسم لأن المهاجرين إليها كانوا يحطون رحالهم فيها ليلاً. وكانت هذه العاصمة من الضخامة بحيث تستوعب الناس جميعاً بماشيتهم وأطعمتهم خلال فترات الحصار الطويلة التي يفرضها الأعداء وكان موقعها على التلال يجعل الدفاع عنها سهلاً. وفي أوقات السلم كان يمكن للناس العيش فيها ويباشرون عملهم في السهول.

الإدارة :

لقد ترابطت وتكاتفت الدولة التي يحكمها موشيش بسبب عامل واحد رئيس: إنه التهديد الخارجي. لقد فرضت المصالح المشتركة والمشاكل المفروضة على الناس معنى العمل معاً، فلم يكن النظام الإداري الذي اتبعه موشيش وحده قادراً على إنجاز مثل هذه الوحدة الفعّالة. حقيقة أن كل الزعماء قد اعترفوا بسلطته إلا أنهم أيضاً كانوا يتمتعون بقدر لا بأس به من الحكم الذاتي في أمور الإدارة والعادات والتقاليد(*) ولم يطبق نظام الأفواج (الفرق) المؤسسة

(*) ترجمنا في هذا السياق مصطلح Culture بالعادات والتقاليد ذلك أن الثقافة بالمعنى الأنتروبولوجي تشمل ذلك كله. (المترجم)

على فئات العمر بنفس الصرامة التي طبق بها بين الزولو والنديبيلي، كما احتفظ زعماء الشعوب المهزومة بكثير من سلطاتهم فلم يستبدلهم الملك، وعلى عكس ما كان يحدث لدى الزولو، كان من حقهم ممارسة مهرجانات وحفلات تولي منصب الزعامة.

الاتصالات مع الارساليين :

استقبل موشيش في دولته الجديدة الإرسالايين وقدم لهم الأراضي لبناء محطاتهم أو مراكزهم التبشيرية عليها. وفي سنة ١٨٣٣ وصلت إرسالية باريس الانجيلية Paris Evangelical Missionary وبنت مراكز لها في موريجا Morija وبيرشيبا Beersheba وفي نفس العام وصلت إرساليات وزليان واستقرت بالقرب من Thaba Nchu وقد اعترفت هذه الإرساليات جميعاً بسلطة موشيش.

العلاقات بالأوروبيين :

كان انجاز موشيش الكبير - إلى حد بعيد - يتمثل في مقدرته على الاحتفاظ باستقلال الحكم في بلاده في مواجهة العداء المتزايد مِن قِبَل البوير. ورغم أن البوير كانوا يأتون إلى هذه المنطقة للرعي منذ العشرينات من القرن التاسع عشر إلا أن قدومهم بأعداد كبيرة وتهديدهم لسلامة ووحدة الدولة لم يكن قبل قيامهم بحركة الهجرة الكبرى (أو الزحف العظيم) لقد استقبلهم الباسوتو بقبول حسن وقدموا لهم الأراضي للرعي المؤقت والاستقرار غير الدائم ومع هذا فقد رفض البوير الاعتراف بسلطة موشيش، واعتبروا الأرض التي قُدمت لهم للرعي والإقامة المؤقتة حقاً وملكاً دائماً لهم. لقد أتوا ليقيموا ويستقروا واستعدوا لقتال الشعوب المحلية. وفي ظل هذاالتهديد والتصرف الغريب الخَطِر طلب موشيش الحماية البريطانية كأحد الوسائل لإنقاذ سلطته. لكن البريطانيين رفضوا طلبه مرتين، ولكن في سنة ١٨٤٦ دخل موشيش في مفاوضات مع بريطانيا بهدف إزالة الصراع بين شعبه والبوير. ولم تكن الترتيبات التي اتفق عليها مع الإنجليز مرضية، لكنها في ظل هذه الظروف كانت أفضل من لا شيء. ووفقاً لبنود المعاهدة كان على موشيش تخصيص

بعض الأراضي لاستيطان الأوروبيين وحدهم. وكان على الباسوتو إخلاء هذه المنطقة والانتقال إلى منطقة أخرى. وقضت الترتيبات أن يدفع البيض مقابلاً لحقهم في استخدام الأرض. وفي نفس الوقت كان محظوراً عليهم أن يعيشوا أو يزرعوا خارج المناطق المخصصة لهم في بلاد الباسوتو وعلى المقيمين في بلاد الباسوتو الرحيل عنها. وأكثر من هذا فإن على البيض الذين يعيشون في المناطق المخصصة لهم أن يكونوا تحت السلطة العامة للباسوتو رغم أنهم - أي البيض - يخضعون للحكم المؤقت للبريطانيين، مع أن المقيم البريطاني يتخذ مقراً له في بلومفونتين Bloemfontein.

حدود واردين وانتصارات الباسوتو :

لقد فشلت اتفاقية سنة ١٨٤٦ في حل مشكلة الباسوتو مع البيض، فلم يكن البيض راغبين في ترك مزارعهم التي كانت في حوزتهم فعلاً خارج المناطق التي خصّصت لهم، ووجد المقيم البريطاني في Bloemfontein صعوبة في السيطرة عليهم. وفي سنة ١٨٤٨ ألحق الحاكم هاري سمث Harry Smith كل المنطقة بما في ذلك السلطة العليا على نهر الأورانج، لكن الصراع بين البوير والباسوتو لم يكن ليزول بسهولة. فلا زالت الحدود غير واضحة ولا مقبولة بين البيض والباسوتو في الباسوتولاند. فرغم أن عدد سكان الباسوتو كان في تزايد، إلا أنهم كانوا غير قادرين على التوسع بسبب مستوطنات البوير. لذلك سرعان ما وجد الباسوتو أنفسهم في وضع حَرِج، طالما كان الماجور هـ. د. اردن، المقيم البريطاني متعاطفاً مع السلطة الجديدة في منطقة نهر الأورانج ويقدم للبيض وغيرهم مزيداً ومزيداً من الأراضي بدون إذنهم (أي إذن الباسوتو) لقد رسم واردن حدوداً مفروضة بين مزارع البوير ومستقرّات الباسوتو. ونتيجة هذا فقد الباسوتو أراض كثيرة كما أصبح كثيرون منهم ضمن مناطق البيض. وأعقب هذا مزيداً من الحدود المصطنعة بين الباسوتو وجماعات الرولونج Rolong والتلوكوا Tlokwa الذين كانوا في صراع مع الباسوتو للاستحواذ على الأراضي. وهنا نجد مرة أخرى الباسوتو قد فقدوا مزيداً من الأراضي. وكان موشيش مجبراً على قبول هذه الترتيبات الحدودية غير المرضية، وظل متمسكاً

بسياسته في السلام والتسوية، ولم يكن هذا رأي رعاياه، فقد كان الباسوتو يزدادون قلقاً ونفذ صبرهم لرؤيتهم أراضيهم تنقص وتنقص ولاضمحلال سلطتهم، لهذا سرعان ما اشتعلت الحرب في أكثر من مكان في المنطقة (الباسوتولاند) ودعم الباسوتو جماعات الرولونج ضد التانج Taung وانتصر الباسوتو وحلفاؤهم. وأعقب هذا تحالف بين الإنجليز والجريكا والرولونج أثمر عن غزو ـ بناء على أوامر واردن ـ وكان أمراً يدعو لدهشة الجميع أن لاقى الغزاة هزيمة منكرة وانسحبوا، وأخيراً فقد قاسى التلكوا Tlokwa مرارة الهزيمة على أيدي الباسوتو.

العدوان البريطاني :

لقد أصبح أكثر اضطراباً وتوتراً عندما أصبح سير جورج كاثكارت Goerge Cathcart حاكماً بدلاً من سيرهاري سميث Sir Harru smith لقد صمَّم على قهر الباسوتو ليعيد الهيبة البريطانية. فنية العدوان كانت مبيتة، وقد أعطى الباسوتو مهلة أيام ثلاثة لدفع تعويض قدره ١٠,٠٠٠ رأس ماشية ودبر موشيش دفع ٣,٥٠٠ في اليوم الثالث وطلب مهلة لدفع الباقي إلا أن طلبه رفض وفي ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٥٢ غزا البريطانيون بلاد الباسوتو واستولوا على أعداد كبيرة من الماشية. وقد اعترض المحاربون الباسوتو طريقهم، واستدرجوهم بعيداً حتى لا يحدثوا مزيداً من التخريب. لقد بدأ الخطر الحقيقي، لكن موشيش أدرك أن نجاة أمته في الاعتدال، فقد كان البريطانيون مصممين على هزيمة وتحطيم الباسوتو، وعلى هذا قرر موشيش أن يكتب خطاباً للحاكم جورج كاثراكت قبل أن يتمكن البريطانيون من القيام بهجوم كاسح. وكانت لهجة الخطاب وتوقيته تظهر لنا مرة أخرى حكمة موشيش ودبلوماسيته:

«يا صاحب السعادة

لقد حاربت شعبي هذا اليوم وأخذت كثيراً من الماشية، وطالما كان هدفك الذي أتيت من أجله هو تعويض البوير فأتوسل إليك أن تكتفي بما استحوذت عليه. أنا أطلب منك السلام. لقد أظهرت قوتك وعاقبت. وهذا

يكفي، أتوسل إليك ولا تدعنا ندخل في مزيد من العداوات مع الملكة. إنني أحاول بقدر طاقتي أن احتفظ بشعبي للمستقبل».

وانتصرت دبلوماسية موشيش ولم يهاجمهم البريطانيون، لكن أوضاع الباسوتو اهتزت وضعف إلى حد كبير سلطانهم ومعنوياتهم.

ميثاق بلومفنتين ١٨٥٤ Bloemfontein Convention :

كانت إحدى النتائج الهامة لهذه الصراعات، هي أن بريطانيا قررت إنهاء دورها في هذه الصراعات التي لا نهاية لها بأن منحت الاستقلال لسلطة البوير(*) القائمة على منطقة نهر الأورانج The Orange River Sovereignty ولم يكن البوير مهيئين لخطوة كهذه، وإن سعد بها قليل منهم، ولم يكن من غير الطبيعي، كانوا أيضاً خائفين من الباسوتو الذين أثبتوا قوتهم العسكرية ضد البريطانيين، وكان البوير يخشون فقد الدعم والتأييد البريطانيين. وبناء على ميثاق بلومفنتين سنة ١٨٥٤ أصبحوا (البوير في منطقة نهر الأورانج) مستقلين وعرفت الدولة باسم دولة الأورانج الحرة Orange Free State. وقد وافق البريطانينو على بيع البنادق والذخائر لهم (للبوير) وفي نفس الوقت تعهد البريطانينون بعدم بيع الذخيرة للباسوتو. وبهذه الطريقة، كان من المأمول، أن يصبح البوير أقوياء، ويصبح الباسوتو بلا وسائل دفاعية.

وفي سنة ١٨٥٨، ومرة أخرى في سنة ١٨٦٦، هاجم البوير الباسوتو. ففي الحرب الأولى، عانى البوير من الخسائر الجمّة التي غرموها في حربهم مع الباسوتو كما فشلوا في الاستيلاء على Thaba Bosiu المستقر الجبلي الحصين للباسوتو. أما الحرب الثانية فقد كانت مدمِّرة للباسوتو، فرغم أن عاصمتهم صمدت ونجت إلا أنهم فقدوا كثيراً من ممتلكاتهم بما في ذلك ماشيتهم ومحاصيلهم. لقد خربت بيوتهم ومات منهم خلق كثير فقد كان البوير يحاولون إبادة كل السكان للاستيلاء على أراضيهم. وفي نفس الوقت كان الباسوتو

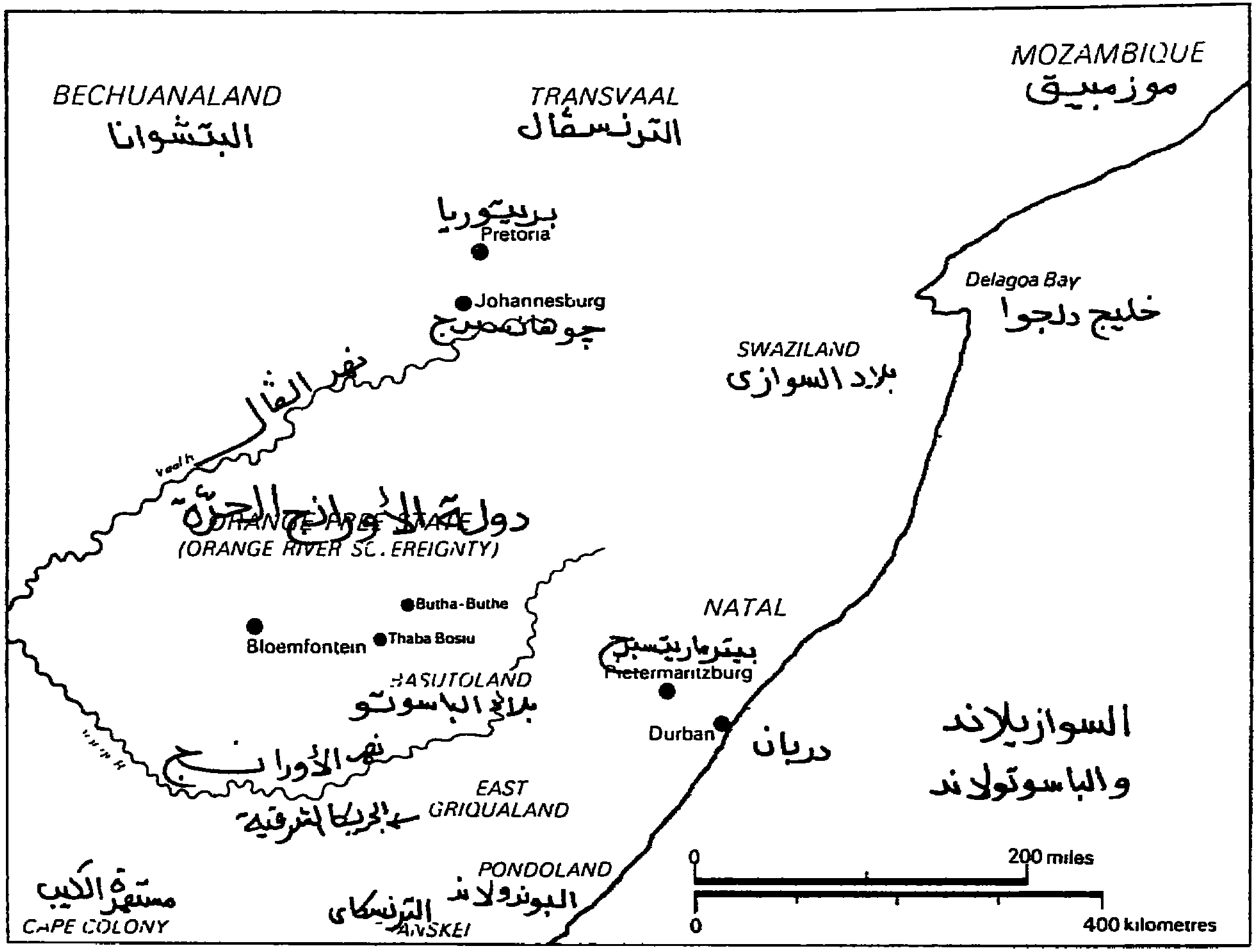
(*) أو حكومة البوير، ولكننا التزمنا في هذه الحالة بالترجمة الحرفية لما قد تحوي من دلالة.
(المترجم)

يعانون من عدم استقرار داخلي وكان الضعف قد اعتراهم. كما كان موشيش قد غدا عجوزاً ضعيفاً، وكان أولاده يتصارعون على العرش. ومرّة أخرى اضطر الملك للتنازل عن معظم أراضي شعبه الخصبة للبوير الجشعين.

إنهيار الباسوتولانـد، والحماية البريطانية سنة ١٨٦٨ :

لقد كان خطراً حقيقياً أن يغدو الباسوتو بلا أرض. فهم الآن قد فقدوا أرضهم الزراعية ولم يعد أمامهم متسع لمواجهة زيادتهم. وفي محاولة يائسة لانقاذ بلده، طلب موشيش مرّة أخرى الحماية البريطانية ووافق الحاكم البريطاني لمستعمرة الرأس فيليب وودهوس Philip Wodehouse على هذا، وفي سنة ١٨٦٨ أصبحت بلاد الباسوتو (الباسوتولاند) محمية بريطانية. وبضم بلاد الباسوتو كان أملاً للبريطانيين أن يؤسسوا حكومة قوية وفعّالة في المنطقة. وبهذه الطريقة سيعود السلام والاستقرار للمنطقة وسينتهي النزاع بين الأوروبيين والأفريقيين. أو هكذا كان أملهم، إذ ـ في الواقع ـ أدى ضم الباسوتولاند إلى شعور معاد لدى المستوطنين البيض في دولة الأورانج الحرَّة. وثار الشعور المعادي للبريطانيين وعبر كثيرون عن رغبتهم في الحكم الجمهوري على نسق جمهورية جنوب أفريقيا. وبتحوّل الرأي العام في دولة الأورانج الحرّة، كان ضمّ بلاد الباسوتو، قد قلل من فرص وحدة وثيقة العرى. ولكن يجب أن نضيف أنه طالما كانت جنوب أفريقيا تخضع بالتدريج شيئاً فشيئاً للهيمنة البريطانية، فإن هذا أدعى لتطبيق سياسة واحدة.

لقد مضى وقت طويل قبل أن تنعم بلاد الباسوتو بالسلام والرخاء. ففي سنة ١٨٧٩ أصبحت تحت الحكم المباشر لمستعمرة الكيب. وفي العام التالي دخل الباسوتو الحرب مرّة أخرى، وفي هذه المرّة كانت حربهم ضد إدارة مستعمرة الكيب. وعرفت هذه الحرب الشهيرة باسم «حرب البنادق» وكان سبب هذه الحرب هو رفض الباسوتو تسليم بنادقهم كما يقضي بذلك قانون عرف بقانون حفظ السلام أصدرته حكومة لمستعمرة سنة ١٨٧٨ The Peace Preservation Bill، وكان الغرض من هذا القانون هو نزع سلاح الأفريقيين.


BECHUANALAND
البتشوانا
TRANSVAAL
الترنسفال
MOZAMBIQUE
موزمبيق
بريتوريا
Pretoria
Johannesburg
جوهانسبرج
نهر الفال
Vaal R.
Delagoa Bay
خليج دلجوا
SWAZILAND
بلاد السوازى
دولة الأورانج الحرة
ORANGE FREE STATE
(ORANGE RIVER SOVEREIGNTY)
Butha-Buthe
Bloemfontein
Thaba Bosiu
BASUTOLAND
بلاد الباسوتو
NATAL
بيترماريتسبرج
Pietermaritzburg
Durban
دربان
السوازيلاند
والباسوتولاند
نهر الأورانج
EAST
GRIQUALAND
الجريكا الشرقية
PONDOLAND
البوندولاند
مستعمرة الكاب
CAPE COLONY
الترنسكاى
TRANSKEI
0
200 miles
0
400 kilometres

لقد رفض الباسوتو أن يكونوا بلا أدوات يدافعون بها عن أنفسهم في عالم مليء بالشرور، فتصدوا لنزع أسلحتهم وخاضوا غمار حرب استمرت حوالي عامين. كما أن حكومة الكيب كانت قد قررت أيضاً زيادة مقدار ضريبة الكوخ Hut tax المقررة على السوثو Sotho بالإضافة إلى قرارها بجعل منطقة السوثو الجنوبية مفتوحة للاستيطان الأوروبي وأصدرت بذلك إعلاناً في إبريل سنة ١٨٨٠ وقد قاد موروسي Moorosi حاكم الباسوتو الجنوبية شعبه لمقاومة الحكومة، لكنه هزم وقتل في نوفمبر ١٨٧٩. عندئذ، ونتيجة إعلان سنة ١٨٨٠ التحق عدد أكبر من الباسوتو بقوات ليروثولي Lerotholi الذي بلغت قواته في وقت من الأوقات ٢٣,٠٠٠ محارب مسلّح، وكان بعض محاربيه يحاربون من فوق صهوات الجياد. وانتشرت الحرب بالتدريج إلى ترانسكي Transkei وشرق بلاد الجريكا حيث ثارت بعض جماعات الثامبو Thembu والجريكا وبعض جماعات ترجع في أصولها إلى السوثو، ضد السلطات. وقد استخدم الباسوتو في حربهم إسلوب الحروب الفدائية أو حرب العصابات إذ تجنبوا مواجهة القوات الحكومية وراحوا يهاجمون بغتة وبهذه الطريقة ضعفت معنويات القوات الحكومية واستنزفت طاقاتها وفشلت في احتواء الموقف رغم قمع الثورة في ترنسكي Transkei وشرق بلاد الجريكا، في إبريل سنة ١٨٨١، وأخيراً وفي نفس العام تدخل المندوب السامي البريطاني سير هرقليوس روبنسون Hercules Robinson بين الأطراف المتقاتلة فوضعت الحرب أوزارها. ورغم أن بنود السلام نصت على ضرورة أن يقوم الباسوتو بتسجيل أسلحتهم والحصول على تراخيص لها ودفع تعويضات لحكومة الرأس (الكيب)، إلا أنه من الناحية العملية كانت هذه البنود قليلة القيمة لأن حكومة الكيب كانت قد سحبت قواتها ولم يعد أمامها وسيلة لفرض هذه الشروط. ورغم هذا النصر الواضح الذي حققه الباسوتو، إلا أن الضعف أيضاً كان قد اعتراهم بشكل واضح بسبب هذه الحرب التي نتأت جروحاً قديمة وفجرت عداوات كانت قد انطمرت بين أفراد أسرة موشيش، وأحيت الكراهية بين فريقين حارب أحدهما الحكومة، ووقف ثانيهما في صفها مؤيداً لها. وعلى أية

حال، فقد تجاوز الباسوتو الأزمة وراحوا يعدون أنفسهم لتحدِّيات المستقبل.
وفي سنة ١٩٦٦ حصلت دولة الباسوتو على استقلالها وأصبح اسمها ليسوتو Lesotho غير أنها - مثلها في ذلك السوازي Swaziland - ظلت تعتمد على جمهورية جنوب أفريقيا في اقتصادياتها ومواصلاتها، كما يعيش عدد كبير من شعبها ويعمل في جمهورية جنوب أفريقيا.

الفصل الثامن

مقدمات التوحيد السياسي

في سنة ١٨٥٧، كان في جنوب أفريقيا، ثمان وحدات سياسية يحكمها أوروبيون. ومن بين هذه الوحدات، خمس جمهوريات للبوير، هي: دولة الأورانج الحرة وجمهورية جنوب أفريقيا وليدنبرج Lydenburg وزوتبانزبرج Zoutpansberg وأوترخت Utrecht، أما بقية الوحدات السياسية فكانت مستعمرات بريطانية، وهي مستعمرة الكيب والناتال وكفراريا البريطانية British Kaffraria، وهي ولاية الأميرة أديلادي السابقة Province of Queen Adelaide. وفي مايو سنة ١٩١٠ أصبحت جنوب أفريقيا كياناً واحداً تحت حكومة مركزية واحدة لها برلمان واحدوعلم واحد. وسوف نتناول الخطوات الفعلية للتوحيد السياسي في الفصل التالي. أما في هذا الفصل فسنستعرض أحداث الفترة من حوالي سنة ١٨٥٨ إلى ١٨٩٩ وهو التاريخ الذي انفجرت فيه الحرب بين البوير والإنجليز.

وكانت الخصائص الرئيسية لهذه الحقبة تتمثل في الجنوح إلى الاتحادات الكبيرة Greater Union وبصفة رئيسية تلك التي وجدت برعاية بريطانية والتي اتخذت سياسة استعمارية أكثر عدوانية وتوسعاً ـ مما أدى إلى صدام بين الإدارة البريطانية من ناحية والبوير من ناحية أخرى. وبلغ هذا الصدام ذروته في حروب الترنسفال الاستقلالية سنة ١٨٨٠ وفي غارة جيمسون سنة ١٨٩٥ Jameson Raid.

وقد شهد عام ١٨٥٨ إتحاد جمهوريتين هما ليدنبرج وأوترخت، كما شهد قبول زوتبانسبرج Zoutpansberg دستور جمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال)


خريطة جنوب
افريقيا السياسية
فى نهاية القرن التاسع عشر
GERMAN SOUTH WEST AFRICA
جنوب غرب أفريقيا الألمانية
Walvis Bay
خليج وليفز
Angra Paquena
انجرا بكوينا
BECHUANALAND
البتشوانالاند
Salisbury
سلسبورى
MASHONALAND
ماشونالاند
بلاد الميتابيلى
MATABELELAND
Bulawayo
ZOUTPANSBURG
زوتبانسبرج
MOZAMBIUUE
موزمبيق
LYDENBURG
ليدنبرج
SOUTH AFRICAN REPUBLIC
Wonderfontein
Heidelberg
SWAZILAND
Delagoa Bay
خليج ديلجوا
UTRECHT
Majuba
Vaal R
ORANGE FREE STATE
دولة الأورانج الحرة
Kimberley
ZULULAND
الزولولاند
NATAL
الناتال
BASUTOLAND
الباسوتولاند
Orange R
CAPE COLONY
مستعمرة الكيب
BRITISH KAFFRARIA
Cape Town
مدينة الكيب
0 300 miles
0 500 kilometres

وأعقب هذا اتحاد الجمهوريات الصغيرة مع جمهورية جنـوب أفريقيـا سنة ١٨٦٠.

وفي هذه الأثناء كان الإنجليز مشغولين في إيجاد طريقة مناسبة لجعل الوحدة أوثق بين هذه المستعمرات. وعلى هذا، ففي سنة ١٨٥٨ خوّلت الحكومة البريطانية جورج جراي Grey الحاكم البريطاني على مُسْتعمرة الكيب في بحث إمكانية قيام اتحاد فدرالي بين المستعمرات البريطانية الثلاثة في جنوب أفريقيا. وكان التقرير الذي تقدم به جراي يُظهر تعاطفه مع الفكرة الفدرالية كما بين التقرير أن دولة الأورانج الحرة التي كانت متعاطفة جداً مع فكرة الاتحاد الفدرالي، يمكن أن يسمح لها لتكون عضواً في الاتحاد فيها بعد . وحتى بالنسبة لجمهوريةجنوب أفريقيا (التي اتخذت موقفاً معادياً من مسألة الاتحاد الفدرالي) أوصى جراي بترك الباب مفتوحاً في حالة ما إذا قررت هذه الجمهورية أن تنضم للاتحاد الفدرالي في وقت متأخر. ومهما يكن، فقد كان جراي فائق الحماسة متعجّلاً نافذ الصبر. فقد طلب من برلمان مستعمرة الرأس أن يوافق على طلب دولة الأورانج الحرة للانضمام للاتحاد الفدرالي، وذلك قبل أن يتلقى رد الحكومة البريطانية على تقريره وبهذه الخطوات المتعجلة السابقة لأوانها دمّر جراي فرص قبول مضمون تقريره القيِّم، فقد تم استدعاؤه إلى بريطانيا حيث وجه له اللوم لتصرفه هذا.

وباستثناء اتحاد مستعمرة الكيب مع كافراريا البريطانية سنة ١٨٦٦، فإننا يمكن أن نقول مطمئنين أن حركة بريطانيا نحو إيجاد اتحاد متين، قد اعتراها نكوص. لكن أحداث سنة ١٨٦٨ و١٨٧١ في الباسوتولاند والجريكالاند Gri-qualand West قد قدمت لبريطانيا فرصة ثانية لايجاد اتحاد فدرالي يمد نفوذها وسيطرتها في جنوب أفريقيا. لقد غدا جانب أكبر من جنوب أفريقيا تحت الهيمنة والإدارة البريطانيتين، وأصبح من السهل تطبيق سياسةموحّدة. وكما سنوضح في الفصل الحادي عشر كان هذا أحد العوامل المسؤولة عن إيجاد اتحاد في جنوب أفريقيا.

إلحاق الجريكالاند الغربية Griqualand West :

مثلما حدث عندما احتل البريطانيون بلاد الباسوتو (الباسوتولاند) حدث عند إلحاق بريطانيا لبلاد الجريكا الغربية Griqualand West فسرعان ما تسمّمت العلاقات بين الإنجليز والبوير، وزاد احتمال عقد وحدة وثيقة في المنطقة ضعفاً، ومع هذا فقد كان امتداد السلطة البريطانية عبر منطقة شاسعة بإلحاق الجريكالاند بالحكم البريطاني عاملاً من العوامل التي مكنت من ممارسة سياسة ذات نمط واحد على منطقة واسعة في جنوب أفريقيا. وقد مهد هذا ـ بلا شك ـ الطريق لإقامة وحدة وثيقة.

فبعد اكتشاف الماس في بلاد الجريكا الغربية سنة ١٨٦٧، غدت الأرض هناك ـ على حين غرّة ـ عليها العيون ترنو إليها ويسيل اللعاب لها(*)، لقد غدت مركزاً للفتنة، موضوعاً للصراع. ورغم أن المنطقة الفعلية التي وقعت الكشوف في زمامها (حيث توجد مناجم Kimberley الآن، تقريباً) كانت جزءاً من دولة الأورانج الحرة من الناحية الرسمية، إلا أن هذه الحقيقة قد رفضها ووتربور Waterboer زعيم الجريكا، فقد شجع رجل إنجليزي يدعي دافيد أرنوت David Arnot الزعيم الأفريقي على إدعاء أن أرض الماس أرض تابعة لحكمه، وبناء على نصيحة أرنوت، طلب ووتربور تأييد الحكومة البريطانية له في دعواه. وعلى هذا دخلت بريطانيا في الصراع. وفي سنة ١٨٧١ أعلنت بريطانيا أن الجريكالاند الغربية أرض بريطانية، وأعقب هذا ضمها إلى مستعمرة الكيب سنة ١٨٨٠، وقد أثار الحدثان ـ الاعلان والضم ـ الغضب والتحدي في دولة الأورانج الحرة، واعترت العلاقات بين المجتمعين الأبيضين في جنوب أفريقيا نكسة قاسية.

لقد شعر البوير أن الإنجليز يعملون على جعل حياتهم ـ أي حياة البوير ـ لا تطاق، بدلاً من تركهم في حالهم يعيشون بمعزل. وكان تصدي بريطانيا لتوسع جمهورية جنوب أفريقيا حول خليج دلجوا Delagoa، عاملاً، يكفي

(*) Shot up

لتقوية هذا الشعور لدي البوير. لقد كان يتحتم على الجمهورية أن ننسحب من منطقة الخليج، وهذا ما تم فعلاً سنة ١٨٦٨. وبعد هذا بسنوات سبع استولى عليه البرتغاليون نتيجة التحكيم Arbitration. لقد اتخذت مواجهة هذه الأحداث أشكالاً متعددة، ففي جمهورية جنوب أفريقيا، كان السُخط العام في ذروته، كما أن البرلمان المحلي (الفولكسراد Volksraad) كان ممتعضاً للغاية من ضعف الجمهورية ذلك أن الرئيس بريتوريوس Pretorius كان عليه أن يتنحى، ورغم دفع تعويض لدولة الأورانج الحرة مقداره ٩٠,٠٠٠ جنيهاً استرليني سنة ١٨٧٦، إلاّ أن العلاقات مع بريطانيا ظلت غير منسجمة لفترة طويلة بعد ذلك.

إلحاق جمهوريةجنوب أفريقيا:

ومما زاد العلاقات بين البريطانيين والبوير سوءاً، تلك الأحداث التي وقعت سنة ١٨٧٧. ففي هذا العام عانى البوير من إحساسهم المتفرِّد بالخزي والمهانة فلم يحترم الإنجليز كبرياءهم كأمة، وحطّوا من شأنهم ووضعهم بضم جمهورية جنوب أفريقيا التي كان البوير يعتبرونها قاعدة الوطنية البويرية The Seat of Boer Nationalism.

لقد كانت الأوضاع المالية في الجمهورية قد غدت سيئة للغاية عشية سقوط بريتوريوس، فرغم التفاني الذي أبداه الرئيس الجديد برجرز Burgers في خدمة الأمة، إلا أنه لم يحرز إلا قليلاً من التقدم لإعادة الفعالية والاستقرار في الدولة. ولم تكن الدولة قد اهترأت فحسب بل لقد غدت ضعيفة عسكرياً، وكان هذا واضحاً من عجز الحكومة عن قمع الاضطرابات التي أحدثها الأفريقيون المحليون. وزاد الامتعاض بين العامة من البوير، إذ كيف تستطيع أية حكومة أن تقدم الحماية الضرورية لرعاياها(*) إذا لم تكن قادرة على إخضاع الأفريقيين لسلطتها؟

(*) يقصد الرعايا البوير.

(المترجم)

وقد كان البريطانيون الذين كانوا مهتمين بأمن مستعمراتهم يراقبون بقلق بالغ ما يحدث في جمهورية البوير. فالاضطرابات في جمهورية جنوب أفريقيا يمكن أن تمتد ببساطة إلى الناتال المجاورة فتهدد أمنها وتعوق تقدمها. لقد حل الإنجليز هذه المشكلة سابقاً في حالة الباسوتولاند بضمها (إلحاقها) وكان هذا الإجراء الذي ثبتت فعاليته قائماً في هذه الحالة الجديدة، فقد رأى كارنارفون Carnarvon وزير المستعمرات البريطاني النظر بِعَطْف لضم (إلحاق) جمهورية البوير وربما كانت المشاكل الداخلية للجمهورية قد ساعدت كمبرر لهذا الضم (الإلحاق) وعلى هذا، فعندما أشار وزير المستعمرات البريطاني على ثيوفيلس شبستون Shepstone بأن يبحث الظروف والملابسات المحيطة بالاضطرابات في الترنسفال، فإنه قد أوعز إليه سراً بضم (إلحاق) الجمهورية. وقد تم إنجاز هذا على نحو وافٍ في إبريل سنة ١٨٧٧.

ولقد أدى إلحاق جمهورية جنوب أفريقيا إلى تأثير لا يرغبه الإنجليز، إذ أدى هذا إلى اشتعال أوار الوطنية البويرية وتماسكها Boer Nationalism لقد غدا التعاون بين المجتمعين (الكتلتين) البيضاوين (الإنجليز والبوير) مستحيلاً، لفترة من الزمن على الأقل. وعلى أية حال، فعلى المدى الطويل، استطاعت السياسة التوسعية البريطانية خلال هذه الفترة إخضاع جانب كبير من جنوب أفريقيا تحت إدارتها وسيطرتها. وبعبارة أخرى، لقد مهدت السياسة البريطانية - بطريق غير مباشر - السبيل إلى الوحدةالنهائية لجنوب أفريقيا.

الآراء السياسية لبعض القادة:

بينما كانت هذه التطورات تستقر على صفحة الزمن، كانت هناك محاولات يقوم بها بعض ذوي النفوذ في جنوب أفريقيا لايجاد علاقات يسودها الاتساق والتعاون Harmonious بين الجانبين الأوروبيين. وقد مثل هذه المجموعة إنجليزي يُدعى سيسل رودس Cecil Rhodes، وبويري يُدعى جان هوفماير Jan Hofmeyer. وكان يعمل في الاتجاه المضاد لهذه المجموعة جماعة أخرى من قادة جنوب أفريقيا كانوا متأثرين ومقتنعين بأفكار مسبقة مرتبطة

بقضايا كنسية (أبرشية) Parochial Issues(*) كما كان ولاؤهم الشديد للوطنية البويرية حائلاً يحول بينهم وبين قبول اتحاد وثيق العرى. وكان بول كروجر Paul Kruger أقوى أعضاء هذه المجموعة، وكان كروجر هو الرئيس السابق لجمهورية جنوب أفريقيا. ولم يكن الفلاسفة السياسيون في كلا المجموعتين ليتفقا أبداً.

سيسل رودس:

سيسل رودس إنجليزي، أتى للناتال سنة ١٨٧٠ وهو في سن السابعة عشر ليمارس زراعة القطن. وفي سنة ١٨٧٢ قرر الذهاب إلى كمبرلي ليعمل في صناعة الماس التي كانت وقتها في مراحلها الأولى، فأسس شركة سيطرت على تجارة الماس في جنوب أفريقيا وكان اسمها De Beers Company. ومن خلال العمل الشاق المصحوب بالحظ الحسن، أصبح سيسل غنياً واستطاع إكمال تعليمه في جامعة أكسفورد. وفي سنة ١٨٨١ أصبح عضواً في برلمان مستعمرة الكيب وبعد هذا بتسع سنوات غدا رئيساً للوزراء. لقد كان رودس باني الامبراطورية المتحمس، وأراد أن يمد الامبراطورية البريطانية من الكيب إلى القاهرة. لقد أراد أن يمنع الألمان والبرتغاليين من بسط سيطرتهم على المناطق الداخلية بالامتداد في الداخل شرقاً أو غرباً لأن هذا سيعوق التوسع البريطاني شمالاً. وقد اعتقد رودس أنه يمكن إعاقة هذا التوسع غير البريطاني بالاستيلاء على الأرض الواقعة شمالاً وخطط لإنشاء سكة حديد الكيب ـ القاهرة، ـ ذلك المشروع الشهير ـ خلال المناطق التي يستولي عليها لربط الامبراطورية البريطانية في أفريقيا الشرقية من الجنوب إلى الشمال(**). وعند هذه النهاية، قام رودس بتأسيس شركة جنوب أفريقيا البريطانية الحاصلة على براءة ملكية Chartered

(*) أو بقضايا لا تتسم باتساع الأفق، وعلى أية فقد كانت منظمات البوير الكنسية ضد أي اندماج مع الآخرين سواء كانوا أفريقيين أو بيضاً لا يتفقون مع آراء الكنيسة.

(المترجم)

(**) يقصد القسم الشرقي من أفريقيا، بما فيها مصر، ولا يقصد شرق أفريقيا بمعناه الاصطلاحي (كينيا وتنزانيا وأوغندا ورواندا وبوروندي).

سنة ١٨٩٠. وبين عامي ١٨٨٨ و١٨٩٣ استطاع رجال رودس بالحرب حيناً وبالدبلوماسية حيناً وبهما معاً أن يحتلوا ماشونالاند (بلاد الماشونا) والماتابيليلاند (بلاد الماتابيلي) وأسسوا مدينة سلسبوري Salisbury في بلاد الماشونا واستولوا على مدينة النديبيلي وبذلك وضعت أسس مستعمرة روديسيا البريطانية حيث رفع العلم البريطاني في سالسبوري سنة ١٨٩٠، وقد غدت هذه المدينة فيما بعد عاصمة لروديسيا.

وباعتبار رودس مؤيداً عظيماً للامبراطورية البريطانية والحكم البريطاني في العالم بما في ذلك جنوب أفريقيا، فقد كان يعتقد بقيمة التراث البريطاني والمؤسسات البريطانية، وأنهما ـ التراث والمؤسسات ـ من أفضل ما هو موجود في العالم، وعلى هذا، فيجب أن يسودا وينتشرا. وعلى أية حال، فإن أفكاره هذه قد تغيرت بعد ذلك وأصبح مدافعاً عن الحكم الذاتي للأفريقيين الجنوبيين. لقد رأى أن الاستعمار يجب أن يمهد الطريق لحكومة ذاتية في جنوب أفريقيا. على أية حال لقد كانت المستعمرة في هذا الوقت لا تزال ضعيفة لهذا كان يجب الاحتفاظ بالروابط الاستعمارية لأغراض الدفاع. وقد أصبح رودس ـ بعد أن تخلى عن معتقداته السياسية الأولى ـ من المدافعين عن التعاون بين المجتمعين الأوروبيين (الإنجليز والبوير) في المنطقة. ومثل هذا التعاون كان ضرورياً إذا ما اتخذت المنطقة سبيلها سلمياً لايجاد أمة واحدة، في جنوب أفريقيا الموحدة ذات حكومة واحدة.

جان هوفماير Hofmeyer:

لاتجاه وأفكار هوفمير مغزى كبير في هذا الصدد، لأنه ركز كثيراً على نفس الأفكار. ففي سنة ١٨٧٨ أسس جمعية حماية المزارعين التي ناضلت في البداية لرعاية مصالح منتجي البراندي(*) لكنها في وقت لاحق أصبحت ذات أهداف سياسية وطالبت باستخدام الهولندية كلغة رسمية في مستعمرة الكيب. ولأنه معتدل، كان هوفمير معارضاً للوطنية (القومية) الضيقة بمفهوم الأفريكانر،

(*) نوع من الخمور. (المترجم)

وهي ما كان ينادي بها دي توات De Toit(*) ـ وبدلاً من ذلك فقد كان ينادي بكيان واحد في جنوب أفريقيا، يتمتع كل البيض (إنجليز وبوير) في ظلاله بحقوق متساوية. كما كان متعاطفاً مع فكرة الحكم الذاتي لكل سكان أفريقيا الجنوبية البيض مع الابقاء على العلاقات البريطانية، فهذا مما يجعل قدر جنوب أفريقيا يحكمه المواطنون البيض. فالاحترام المتبادل والمساواة ـ فيما كان يرى ـ هما الأساسان الذان، عليهما تقوم دعائم بناء الأمة. لقد كان معارضاً لإعادة الجمهوريات Republicanism وهي تلك الأفكار التي كان يؤيدها كروجر ودي توت. وفي مايو سنة ١٨٨١ أصبح هوفمير وزيراً في حكومة مستعمرة الكيب لكنه تنحّى بعد ذلك بستة شهور. ورغم أنه التحق برابطة الأفريكانر سنة ١٨٨٢ وأذاب جمعية حماية المزارعين فيها في العام التالي، إلّا أن هوفمير كان ما يزال معتدلاً. وكان الهدف النهائي للرابطة الجديدة التي كان هوفمير عضواً فيها وقائداً لها، هو إنشاء أفريقيا جنوبية متحدة. ورغم أن إنجاز الرابطة الأساسي كان في مجال أدب ولغة الأفريكانر إلّا أنه انتعش كحزب سياسي في مستعمرة الرأس، تحت قيادة هوفمير. وظل حزباً سياسياً منظماً فقط في المستعمرة حتى سنة ١٨٩٨، وبين سنة ١٨٨٤ و١٨٩٨ كان يحتفظ على الأقل بأربعين في المائة (٤٠٪) من المقاعد في مجلسي البرلمان بمستعمرة الرأس. وفي أماكن أخرى كدولة الأورانج الحرّة والترنسفال كانت الرابطة أقل نجاحاً في المجال السياسي.

بول كروجر Paul Kruger:

ولد في شمال شرق مستعمرة الرأس سنة ١٨٢٥ واشترك كروجر في الزحف العظيم (الهجرة الكبرى) عندما كان طفلاً. وقد التحقت أسرته

(*) كان دي توات متعصباً لقومية الأفريكانر، وكان يهدف إلى إيجاد أمة من أفريكانر جنوب أفريقيا. وقد كان محرراً لصحيفة Patriot التي تبنت فكرة الوطنية الأفريكانرية وثقافة الأفريكانر ولغتهم. وفي سنة ١٨٧٩ أسّس رابطة الأفريكانر كحزب سياسي في مستعمرة الكيب، وفي مايو ١٨٨٣ كان للرابطة ٢٣ فرعاً في المستعمرة و ١٠ في دولة الأورانج الحرة والترنسفال.

بالمجموعة التي كان يقودها بوتجيتر Potgieter والتي استقرت أخيراً في الترنسفال. وهناك لعب كروجر دوراً في الصراع بين البوير والأفريقيين وقد أثرت هذه التجربة أخيراً في اتجاهه كله إزاء مسألة الوطنية (القومية) الأفرنكانرية. حقيقة لقد أصبح كروجر مصدر إلهام لثورة شعبه ضد البريطانيين. ويرجع نجاحه كقائد لشخصيته الهائلة واقتناعه المطلق بعدالة قضيته.

لقد كانت جنوب أفريقيا دائماً أرضاً للصراعات والتناقضات ولذا لم يكن غريباً أن تكون أفكار كروجر السياسية مثل الأفكار المضادة لأفكار رودس وهوفمير. فبالنسبة لكروجر كان الحل لمشكلة جنوب أفريقيا يكمن في تقسيم المنطقة إلى قسمين: أفريقيا الجنوبية الناطقة بالأفريكانية وأفريقيا الجنوبية الناطقة بالإنجليزية. والمنطقة التي عناها كروجر يتحتم أن تتخلى عن كل ارتباط لها ببريطانيا وأن تغدو جمهورية. لكن كروجر هنا كان يهتم أساساً بمنطقة البوير فإذا ما تُرك البوير وحالهم دون تدخل من أحد، فإنه لم يكن ليهتم بما يحدث في بقية أجزاء جنوب أفريقيا. فإذا ما تُرك البوير بمفردهم فإنهم سيوحدون أنفسهم في ظلال حكومة واحدة وتحت علم واحد وإذا ما اقتضى الأمر فإنهم سيعيشون في عزلة كاملة عن سائر أنحاء المنطقة.

وقد كان رفض حكومة الكيب لطلباته فيما يتعلق بالتعاون في مجالات التعريفة والسكك الحديدية سنة ١٨٨٥، مما قوّى ودعَّم فلسفته. لقد أجبرته (كروجر) الظروف الاقتصادية على طلبه هذا الذي لاقى إخفاقاً، لذا فقد قرر أن يطور جمهورية جنوب أفريقيا، ليمكنها من أن تعيش بمعزل عن الآخرين. فالخط الحديدي كان قد تم مده إلى خليج دلجوا والترنسفال (جمهورية جنوب أفريقيا سابقاً). ورفضت الحكومة ربط اتحاد جمارك جنوب أفريقيا South Afri-cam Customs Union الذي كان قد شكل سنة ١٨٨٩ بدولة الأورانج الحرة وحكومة الكيب. وفي وقت سابق يرجع لسنة ١٨٨٦ كان كروجر قد إزداد قوة بسبب اكتشاف المعادن النفيسة بما فيها الذهب في Witwatersrand

بالترنسفال. وهكذا لم يجد كروجر حاجة لمساعدة جيرانه.

التطورات الداخلية بعد سنة ١٨٧٧ :

قبل العمليات الفعلية لتوحيد جنوب أفريقيا، تعرضت سياسة المنطقة لأمور كثيرة. ويجب أن نركز الآن على التطورات الداخلية في المنطقة منذ إلحاق جمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) في سنة ١٨٧٧. فبوجه عام كانت الفترة تتميز بحروب من نوع آخر. فضم الترنسفال قد جعل البوير يحسون بمرارة وامتعاض أكثر من أي وقت مضى إزاء السياسة البريطانية في جنوب أفريقيا. وقد ذهب بوير الترنسفال إلى حد إرسال وفد منهم إلى لندن لاقناع الحكومة البريطانية برد استقلالهم السليب إليهم. وكان الوفد يضم كروجر وجوريسن Jorissen نائب الرئيس، ولكن طلبهم رُفض وعاد الوفد بُخفَّي حُنين. وكان الامتياز الوحيد الذي قدمته الحكومة البريطانية للبوير هو ما يتعلق بلغة الأفريكان، إذ جعلتها الحكومة البريطانية، إحدى اللغات الرسمية في الترنسفال. لقد تزايد السخط بين البوير في ظل هذه الظروف إذ لم يكونوا يدركون سبباً لضم بلادهم وتقليص وضعها داخل المستعمرة. ومما شجع البوير على الثورة زوال خطر الزولو بهزيمتهم في معركة أولندي Ulundi، بالإضافة للدعم الهائل الذي قدمته دولة الأورانج الحرة ومع هذا فلم تُتخذ خطوات فعالة للثورة حتى ديسمبر ١٨٧٩ فمنذ هذا التاريخ تبنت الترنسفال سياسة أكثر فعالية وبدأت الاستعدادات للحرب. ففي هذا الشهر (ديسمبر) التقى أكثر من ٦٠,٠٠٠ بويري في وندرفونتين Wonderfontein وتعاهدوا على بدء سياسة جديدة تقضي بمقاطعة كل من يتعاون مع السلطات البريطانية ورفع علم الجمهورية القديم الذي كان خفاقاً قبل إلحاق المنطقة للحكم البريطاني، والأكثر أهمية أنهم قرروا عودة الفولكسراد القديم Volksraad للاجتماع في إبريل من العام القادم سنة ١٨٨٠.

حروب الترنسفال الاستقلالية:

ليس هناك من حاجة إلى الدخول في التفاصيل المعقدة لحرب الاستقلال

الترنسفالية التي انفجرت سنة ١٨٨٠. فقد كانت هذه الحرب مطلباً شعبياً للبوير الذين كانوا يحاربون لاستعادة سلطتهم والاحتفاظ بها. لقد أتت آلافهم للمساعدة في هزيمة بريطانيا. لقد قرر البوير إعادة الجمهورية للترنسفال وشكلوا لجنة من ثلاثة هم كروجر وبريتوريوس وجوبرت Joubert لإدارة الترنسفال. ولاظهار نواياهم الطيبة نحو جيرانهم أبدوا رغبتهم في التحالف مع الدول الأخرى في جنوب أفريقيا. وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠ رفرف علمهم التاريخي الذي رفعوه يوم انتصارهم على دنجان Dingane's Day، وبدا أن استقلال الترنسفال قد تحقق. وفي ٢٧ فبراير سنة ١٨٨١ عندها هزم البوير القوات البريطانية في موقعة جبال ماجوبا Majuba Hills لم يعد أحد ـ ولا حتى القلة ـ نادماً على قرار دخول الحرب.

ميثاق بريتوريا سنة ١٨٨١:

بعد انتصار البوير في ماجوبا Majuba، لم تنته الحرب فجأة ونهائياً على أية حال. بل انها حقيقة قد استمرت حتى أغسطس سنة ١٨٨١ عندما أنهاها ميثاق بريتوريا. ووفقاً لبنود هذا الاتفاق قبلت الترنسفال الحكم البريطاني، وفي مقابل هذا مُنِحَتْ حكومة ذاتية لها مطلق التصرف في الأمور الداخلية، أما السياسة الخارجية فظلت تحت السيطرة البريطانية. وحدد الاتفاق أيضاً حدود الترنسفال مما أزاح أي احتمالات للاحتكاك والصدام بعد ذلك مع المناطق المجاورة. وأخيراً، فقد نص الاتفاق على ضمان الحقوق المدنية للشعب وتحرير الرقيق. والسبب الرئيسي الذي جعل بريطانيا تعيد للترنسفال استقلالها هو أن حكومة جلادستون (حزب الأحرار) قد حلت محل حكومة دزرائيلي Dizraeli (حزب المحافظين) في إبريل سنة ١٨٨٠. وكانت الحكومة الجديدة معارضة في استمرار إقحام بريطانيا نفسها في سياسات جنوب أفريقيا المعقدة والمكلِّفة. لذا فقد قررت التخلّي عن إدارة الأمور الداخلية للترنسفال.

وإذا كانت حرب الاستقلال الترنسفالية قد جعلت العلاقات بين

الإنجليز والبوير سيئة، فإن ميثاق بريتوريا الذي تمخّضت عنه هذه الحرب قد أثر في تلطيف العلاقة بينهما بمنح الحكم الذاتي للترنسفال. وليس معنى هذا أن العلاقات بينهما عادت متناغمة تماماً بعد الحرب، بل على العكس فلم يكن البوير راضين عن وضعهم، فقد حملوا السلاح بعد ذلك لحرب البريطانيين ولكن كما يقول المثل إن «نصف رغيف أفضل من لا شيء».

دخول الألمان لجنوب أفريقيا:

وفي هذا الوقت حدثت تطورات في جانب آخر من جنوب أفريقيا أثرت على مجرى الأحداث فيما بعد. ففي جنوب غرب أفريقيا كان الألمان مشغولين بتدعيم وجودهم. فبعد توحيد المانيا بزعامة بسمارك سنة ١٨٧١ غدت المانيا أكثر عزّة بقوميتها، وأكثر عدوانية. وكأمة جديدة فتية أرادت المانيا أن تغدو محترمة في مجتمع الدول، ولها وجود ملحوظ ومحسوس. فالثقافة الألمانية كانت موضع احترام على نطاق واسع بل ومتفوقة على ثقافات الآخرين، وما دام من الملائم للقوى الكبرى أن يكون لها مستعمرات فيما وراء البحار، فماذا يمنع ألمانيا من القيام بنفس الشيء؟ لقد كان هذا هو رأي المغامرين والتجار الألمان. إنه رأي غير رسمي. فالمستعمرات ستكون ذات قيمة كمورد للمواد الخام وكسوق للمنتجات الألمانية. كما أن هذه المستعمرات يمكن أن تكون مستوطناً لفائض السكان الألمان.

لقد كان هذا الحماس، والقصد إلى بث الثقافة وهداية الآخرين ـ سواء كان هذا حقيقة أم خيالاً ـ ممتزجاً بدوافع اقتصادية قوية، كل هذا هو الذي قاد الإرساليات والتجار والمغامرين الألمان إلى اتخاذ سبيلهم إلى جنوب غرب أفريقيا. وكانت حجتهم أنهم إن لم يفعلوا ذلك بسرعة فإن منافسيهم من الإنجليز والفرنسيين سيسبقونهم لفعله. لقد استقر الإرساليون والتجار الألمان حول خليج ويلفز Walvis رغم إدعاء البريطانيين بامتلاكه. وتم تأسيس جمعية جنوب أفريقيا الألمانية German Africa Society سنة ١٨٧٨ والجمعية الألمانية الاستعمارية German Colonial Society سنة ١٨٨٢. وبأساليب الحرب

والخداع وقعت المانيا معاهدات مع القوى المحلية حصلت بمقتضاها على مستعمرات في شرق أفريقيا (تنزانيا الآن) والكمرون وجنوب غرب أفريقيا.

وفي سنة ١٨٨٣ سمحت الحكومة الألمانية للتاجر الألماني فرانز لودرتس Franz A. E. Luderitz ببناء مركز تجاري في أنجرا بكوينا Angra Pequena في جنوب غرب أفريقيا حيث كان قد حصل على أرض لهذا الغرض من الحاكم الأفريقي المحلي. وفي العام التالي ضمت ألمانيا الأراضي الواقعة بين نهر الأورانج وأنجولا. وهكذا أصبحت جنوب غرب أفريقيا محمية ألمانية في نفس العام. وفي هذه الأثناء كانت منطقة جنوب غرب أفريقيا مسكونة بثلاثة جماعات (مجتمعات) هي: الأوفامبو Ovambo والهيرورو Herero والهوتنتوت (كالناما مثلاً Nama).

بريطانيا تضم بتشوانالاند (بلاد البتشوانا):

لقد امتد التكالب على أراضي المنطقة من قِبل البريطانيين والألمان والبوير إلى بتشوانالاند. لقد هدد الألمان بمد سلطانهم إلى المنطقة التي كان يعتبرها الإنجليز في مستعمرة الرأس مجالاً لامتداد حدودهم شمالاً. ومما أضاف مزيداً من الاضطراب أنه كان في المنطقة فعلاً جمهوريتين بويريتين هما Stellaland وGoshen. ونتيجة إصرار رودس اعتمدت بريطانيا فكرة إلحاق البتشوانا، وألحقتها بالفعل سنة ١٨٨٥ وجعلت جنوب البتشوانالاند جزءاً من مستعمرة الكيب، وجعلت الجزء الشمالي محمية بريطانية. وفي سنة ١٩٦٦ أصبحت محمية بتشوانالاند مستقلة وهي ما تعرف الآن باسم بتسوانا.

غارة جيمسون The Jameson Raid:

بينما كان الوضع السياسي ما زال مائعاً والتوتر في ذروته، نشأت على حين فجأة أزمة تطاير الشرر منها في ديسمبر ١٨٩٥، من خلال الفعل الاجرامي الذي قام به الدكتور ليندر ستار جيمسون Leander Starr Jameson مواطن وصديق رودس. ولم تكن غارة جيمسون الشهيرة هامة بسبب أي نجاح أو إنجاز، فلم تحرز الغارة شيئاً من هذا يستحق الحديث عنه. إن هذه الغارة لم

تحقق شيئاً إيجابياً بل لقد أدت إلى تكاتُف البوير معاً لتقديم الدعم لكروجر في الترنسفال.

لقد كان غزو الترنسفال أو الغارة عليه تحت قيادة الدكتور جيسمون. لقد كان ثمة اهتمام لبعض الوقت - على الجانب البريطاني - بحقوق ما يسمّى بالأغراب أو الأجانب (Uitlanders (Foreigners ويقصد بهم الإنجليز الذين كانوا يعملون في مناجم Witwatersrand بالترنسفال وكونوا ثروات طيبة، فقد رفضت حكومة كروجر منحهم حق التصويت، ولكن هؤلاء الإنجليز طالبوا بهذا الحق بحماسة وصخب شديدين.

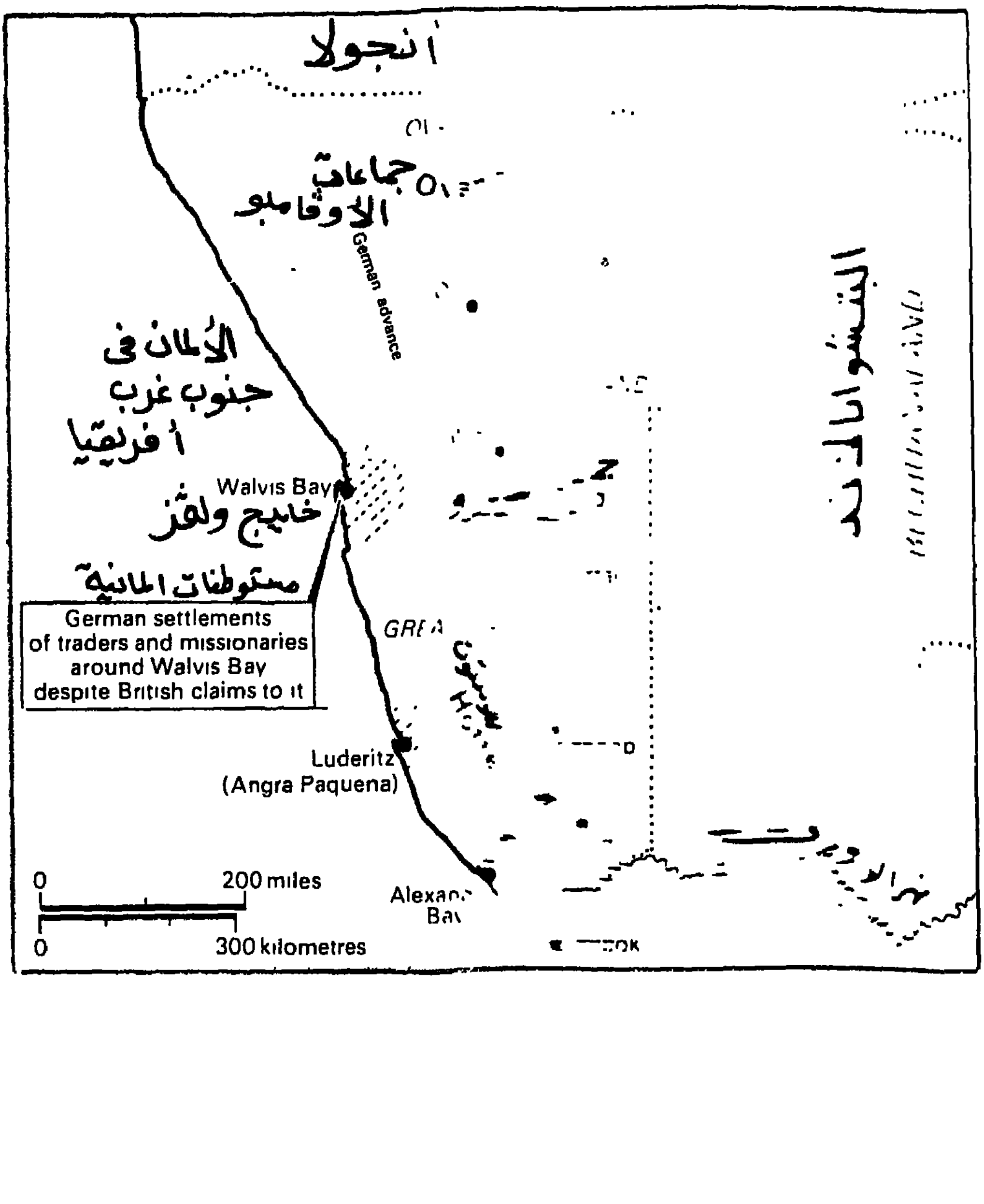
لقد كان الموقف صعباً لاعتبارات الثروة والسياسة والاختلافات القديمة بين الطرفين بالإضافة لاعتبارات أخرى متداخلة. لقد كانت حكومة كروجر وكروجر نفسه يعارضان منح حق التصويت لأناس غير محسوبين من ضمن السكان البوير المحليين الريفيين في منطقة التعدين. إذ يمكنهم بسهولة السيطرة على الحكومة إذا ما نجحوا في الوصول للبرلمان. وبالإضافة لهذا كانت مصالح هؤلاء الغرباء تبدو مؤقتة ومالية. لقد أتوا للمنطقة، فقط ليكونوا أثرياء من خلال استثمارهم لهذه الاكتشافات المعدنية الجديدة، ومن ثم يعودون للجانب البريطاني في أفريقيا الجنوبية. لقد شعر البوير أنه لا يجب عليهم السماح لهؤلاء الغرباء بالتصويت، فهم على أية حال ينتمون للقومية البريطانية، التي حارب البوير ضدها سنوات عديدة كما أنه من الممكن أن يهددوا أسلوب البوير في الحياة إذا واجهوهم (أي واجههم البوير) بلين.

وقبل سنة ١٨٨٢ لم يكن أي إنسان يستطيع الإدلاء بصوته إلَّا بعد قضاء عام واحد من الإقامة المستقرة في الترنسفال. وفي ١٨٨٢ رُفع الحد الأدنى للإقامة إلى خمس سنوات. وفُرضت قيود أخرى على المستوى المحلي في مناطق التعدين حيث أقامت الحكومة مجلساً خاصاً Special Council ووفقاً لقانون إنشاء هذا المجلس كان على الغرباء (Outlanders) أن يقيموا في المنطقة عامين على الأقل قبل أن يكونوا مؤهلين للتصويت في انتخابات أعضاء المجلس

المحلي. وعلى أية حال، كانت أقوى العقبات هي تلك المتعلقة بأعضاء البرلمان. فالذين أقاموا في المنطقة ١٤ عاماً أو أكثر هم فقط المؤهلون للتصويت في الانتخابات البرلمانية. وكانت هذه القيود لا بد حتماً أن تؤدي إلى صراع بين البوير من ناحية والإنجليز الغرباء في الترنسفال Outlanders.

وكان سيسل رودس رئيس وزراء مستعمرة الكيب هو محور الترتيبات التي أدت للغارة التي أعقبت هذه التطورات. ففي هذا الوقت كان رودس مصمّماً على إخضاع الترنسفال بالقوة للحكم البريطاني كما كان كروجر يمتلك نفس التصميم والاصرار للاحتفاظ باستقلال إقليمه وتأمين ذلك الاستقلال. لقد تخلى رودس في أواخر أيامه عن سياسته المعتدلة المتسمة بالصبر والتنسيق بين المجتمعين البيضاوين (البوير والإنجليزي) في جنوب أفريقيا، وأصبح الآن يدافع عن سيطرة البريطانيين. لقد كانت الترنسفال غنية للغاية بمناجمها، وكان رودس راغباً في ضمها قبل أن تنضب ثرواتها.

وبعلم وزارة المستعمرات البريطانية، الكامل، نظّم جوزيف شامبرلين Joseph Chamberlain ورودس تهريب الأسلحة إلى الترنسفال، وتم الإيعاز لعدد معين من الإنجليز العاملين في مجال صناعة التعدين في المنطقة ليخططوا لقيام ثورة في ديسمبر سنة ١٨٩٥. وكانت الخطة تقضي بأن قيام الغرباء Outlanders في الترنسفال بالثورة سيعطي للقوات الإنجليزية أساساً شرعياً للتدخل بحجة حماية مصالح وأمن الرعايا البريطانيين ومنهم نساء وأطفال. وبهذه الطريقة يتم الغزو تحت مظلّة الشرعية، وبعد أن تتم هزيمة كروجر يتم إلحاق الترنسفال للتبعية البريطانية. وبعد موافقة رودس قاد جيمسون ٥٠٠ محارب من بتشوانالاند (حيث كان يرأس جيش رودس الخاص) إلى الترنسفال لكن الهزيمة حاقت بجيمسون دون عناء من البوير ووقع هو نفسه أسيراً. لقد كان الغزو سيئاً في تخطيطه وتنظيمه. وعلى عكس ما كان يتوقع رودس لم يثر الغرباء Outlanders الإنجليز ضد حكومة الترنسفال. وبعد الغارة حوكم جيمسون وسُجن في لندن مدة شهور أربعة. كما أن عدداً من قادة



أنجولا
جماعات الأوفامبو
German advance
الألمان فى جنوب غرب أفريقيا
Walvis Bay
خليج ولفز
مستوطنات ألمانية
German settlements of traders and missionaries around Walvis Bay despite British claims to it
Luderitz (Angra Paquena)
نهر الأورنج
0 200 miles
0 300 kilometres

الغارة والذين كانوا متعاطفين معها أو مؤيدين لها قد تم سجنهم أو تغريمهم. لقد كانت غارة جيمسون نهاية مأسوية لا مبرر لها إذ كان من نتائجها التي لا مفر منها إزدياد العلاقات بين البوير والإنجليز سوءاً. لقد كان يتحتم على رودس أن يتنحّى من منصبه كرئيس لوزراء مستعمرة الكيب وكرئيس لشركة جنوب أفريقيا البريطانية المعتمدة. وقد أدت هذه الغارة إلى تدعيم موقف كروجر والقومية البويرية، والاستقلال البويري.

وكان للغارة آثار أبعد إذ أدى إلى مزيد من التقارب بين دولة الأورانج الحرّة والترنسفال إذ أن كليهما كانا عرضة للعدوان البريطاني. لذا فقد تلقى كروجر دعماً معنوياً غير متوقع في حربه ضد البريطانيين مما أطلق يده ودعّم موقفه إزاء الغرباء (الإنجليز العاملين في الترنسفال) ولا يقل أهمية عما ذكرناه أن هذه الغارة قد أثرت في العلاقات البريطانية الخارجية مع الدول الأوروبية، ففي ٢ يناير ١٨٩٦ أرسل الامبراطور الألماني برقية تهنئة إلى كروجر لكفاءته ونجاحه في صد الغارة. ورغم أن الأمبراطور الألماني لم يعد بتقديم أية مساعدة للترنسفال في حربها ضد أعدائها إلاّ أن هذا التأييد المعنوي كان ذا دلالة هامة. فقد شجعت هذه التهنئة البوير فاعتقدوا أن ألمانيا ستساعدهم إذا ما هاجمهم الإنجليز سواء كان هذا الاعتقاد صحيحاً أم خاطئاً. كما أفزع هذا التصرف الألماني البريطانيين وجعلهم ممتعضين من هذا المسلك الألماني، وأصبحوا أكثر تصميماً على سياستهم المعلنة في جنوب أفريقيا للحفاظ على مصالحهم وتأمينها. وقد أثرت الحملة في عزل بريطانيا دولياً لاعتدائها على دولة صغيرة وضعيفة. كما مهدت هذه الغارة لتعميق الشك والغيرة وسوء الفهم مما مهد للحرب بينهما ١٨٩٩ - ١٩٠٢.

الفصل التاسع

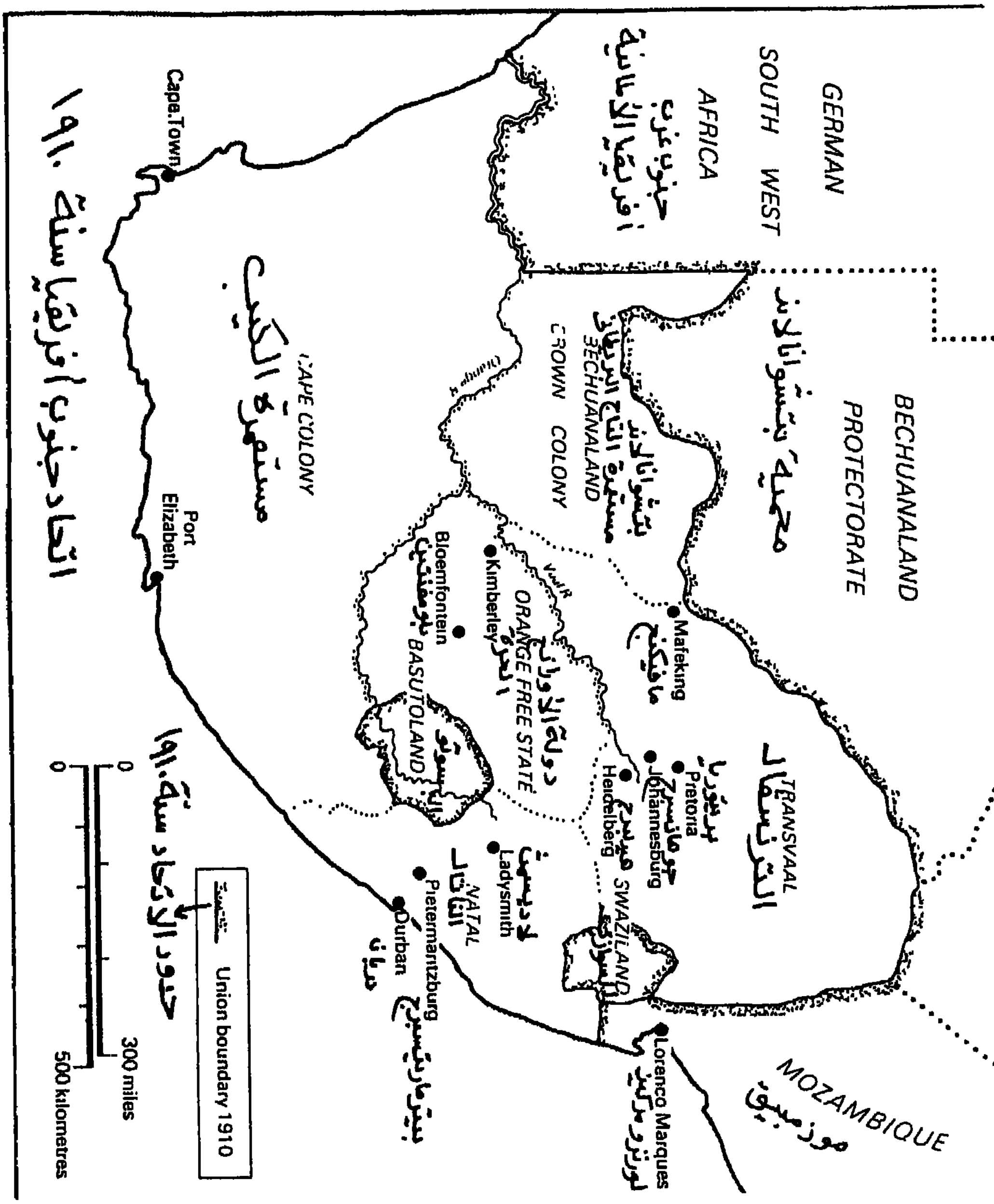
خطوات التوحيد السياسي

١٨٩٩ - ١٩١٠

الحرب بين الإنجليز والبوير ١٨٩٩-١٩٠٢ The Anglo — Boer War:

كانت الحرب بين الإنجليز والبوير (١٨٩٩-١٩٠٢) تمثل ذروة عدم التفاهم والشك والمنافسة عبر عدة أجيال إنجليزية وبويرية. وبعبارة أكثر وضوحاً، لقد سبقت هذه الحرب صدامات متزايدة وكراهية، كانت غارة جيمسون مثالاً دالاً عليها. وبعد فشل الحملة زادت حدة الكراهية والسخط بين الجانبين. لقد كان وزير المستعمرات البريطاني جوزيف شمبرلين، الذي كان متورطاً في غارة جيسمون، يعتقد أن البوير يريدون السيطرة على جنوب أفريقيا كله، ولا يمكن إنجاز هذا العمل إلا على حساب بريطانيا. كما كان يعتقد أن الطريقة الممكنة لدرء هذا الخطر هو أن تمارس الحكومة البريطانية سياسة ملؤها الحزم والخشونة مع حكومة كروجر في الترنسفال. وقد أيده في هذا السير ألفريد ميلنر Alfred Milner الذي عين - بناء على نصيحة شمبرلين، حاكما لمستعمرة الكيب ومندوباً سامياً في جنوب أفريقيا سنة ١٨٩٧. وكان ميلنر يعتقد بثبات وإصرار في مد الاستعمار البريطاني ليشمل الشعوب الأخرى بما فيها البوير. حقيقة أنه كان يرى أن البريطانيين كشعب لهم الحق في حكم الشعوب الأخرى، ونتيجة لهذا، فإن ملنر قد ضخّم من الشعور المعادي للإنجليز ونشاطاتهم بين الأفريكانر (البوير) مما أعاق تكوين علاقات متوائمة في جنوب أفريقيا.

وبينما كانت السلطات البريطانية تتبنى هذا الاتجاه السلبي كان البوير في


GERMAN SOUTH WEST AFRICA
جنوب غرب افريقيا الألمانية
BECHUANALAND PROTECTORATE
محمية بتشوانالاند
BECHUANALAND CROWN COLONY
CAPE COLONY
مستعمرة الكيب
Cape Town
Port Elizabeth
Mafeking
Kimberley
Bloemfontein
ORANGE FREE STATE
BASUTOLAND
TRANSVAAL
الترنسفال
Pretoria
Johannesburg
Heidelberg
Ladysmith
NATAL
Pietermaritzburg
Durban
SWAZILAND
Lorenco Marques
MOZAMBIQUE
موزمبيق
Union boundary 1910
حدود الاتحاد سنة ١٩١٠
0
300 miles
500 kilometres
اتحاد جنوب افريقيا سنة ١٩١٠

الترنسفال لا يقلون قناعة بعدالة قضيتهم، ولا يقلون تصميماً على الدفاع عن أراضيهم وسيادتهم. لقد كانوا مصممين على حماية استقلالهم والزود عنه مهما حدث، كما أنهم استخفوا بالبريطانيين الذين لم تكن قواتهم العسكرية المحلية ملحوظة الاستعداد والقوة. فعلى سبيل المثال كان البوير قد هزموا البريطانيين سنة ١٨٨١ في معركة ماجوبا Majuba، وانتزعوا منهم الحكم الذاتي. وفي وقت سابق على هذا، في عام ١٨٧٩ (يناير) هزم الزولو الإنجليز في معركة Isandhlwana. وعلى هذا فقد تزايد إحساس أهل الترنسفال بالشجاعة والقوة وقوّى من هذا الاحساس أملهم في مساعدة وتأييد أبناء جلدتهم في الناتال ومستعمرة الكيب بالإضافة إلى دعم وتأييد دولة الأورانج الحرة التي لتأييدها أهمية خاصة. كما كانت آمال بوير الترنسفال في تلقيهم مساعدة وتأييداً من أعداء بريطانيا في أوروبا وبالذات ألمانيا ـ تتزايد.

ولقد كان للغرباء (Outlanders) دورٌ متزايد الأهمية كعناصر محورية في الصراع، بالرغم من افتقارهم للحقوق السياسية التي كانت المطالبة بها مجرد ذريعة بريطانية لشن عدوان على الترنسفال. وبعد إعادة انتخاب كروجر كرئيس للترنسفال سنة ١٨٩٨ (كان قد انتخب رئيساً سنة ١٨٨٣ ومرة أخرى سنة ١٨٩٣) صعّد ملنر من حدّة الصـراع بتشجيعه وتأييده للجماعات المعادية للأفريكانر، وللجماعات الإنجليزية الموجودة في الترنسفال في حربهم ضد الحكومة. وكان الهدف من ذلك هو إيجاد وضع مضطرب وفوضوي لإيجاد مبرر لتدخل الإنجليز بدعوى حماية رعاياها (Outlanders) من الظلم والاضطهاد. بل لقد ذهب شمبرلين إلى أبعد من هذا إذ أعلن عن حق بريطانيا القانوني في المنطقة وفقاً لبنود ميثاق بريتوريا سنة ١٨٨١. لقد كان واضحاً أنه لا ميلنر ولا شمبرلين يريدان إنهاء الصراع بالوسائل السلمية. وعبثاً حاولت حكـومة مستعمرة الكيب أن تتوسط، غير أن ملنر كان قد عقد العزم على التدخل والغزو. لقد كان هذا واضحاً بما فيه الكفاية خلال محادثات ملنر مع كروجر في بلومفنتين بدولة الأورانج الحرّة. فخلال المناقشات التي استمرت من ١٣ مايو

إلى ٦ يونيو سنة ١٨٩٩ قصر ملنر برنامج المناقشات على مشكلة الإنجليز العاملين في الترنسفال Outlanders، فقد طالب بحق التصويت لمن قضى منهم في المنطقة خمس سنوات بدلاً من أربعة عشر سنة لكن ملنر اعترض على هذا وأوقف المحادثات فجأة عندما كان الطرفان على وشك الاتفاق. ورفض ملنر قبول وساطة حكومة مستعمرة الكيب وفي أغسطس رفض ملنر قبول الترنسفال فترة الخمس سنوات كمدة إقامة، يمنح بعدها الغرباء Outlanders حق الانتخاب، ومعنى هذا الرفض أن بريطانيا قررت إقحام نفسها في الشؤون الداخلية للإقليم وفرض سيطرتها.

في هذا الوقت كان من الواضح أن بريطانيا راغبة في الحرب وأن مسألة حق التصويت لرعاياها في الترنسفال، ما هي إلّا مبرر. ففي خطاب لمجلس الوزراء لاحظ شمبرلين:

«إن بريطانيا في جنوب أفريقيا مشدودة إلى خازوق، وأصبح نفوذنا وسلطاننا في مستعمراتنا في العالم كله مهددان بالضياع»(*) لقد بدأت بريطانيا في تدعيم قواتها في جنوب أفريقيا استعداداً للحرب، وكلما تقدمت القوات البريطانية صوب حدود الترنسفال مع الناتال، كلما أدرك كروجر أن الحرب آتية لا ريب فيها، وهنا قرر الرئيس العجوز أن يكون هو البادىء بالضّرب، ففي ٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩ وجه إنذاراً للحكومة البريطانية بالابتعاد عن الحدود في ظرف ٤٨ ساعة ولم تستجب بريطانيا للانذار فانفجرت الحرب بعد ذلك بيومين.

وليس من الضروري هنا أن نقص تفاصيل الحرب، فتكفي بعض الحقائق الدالة. رغم أن القوات البريطانية كان قد أعيد تدعيمها وتقويتها، إلا أنها إذا ما قورنت بقوات جمهوريتي(**) البوير، كانت أقل إعداد وتنظيماً. فقد كان البوير يترقبون وقوع الحرب منذ أمد بعيد، وقد استعدوا لها، كما أنهم كانوا

(*) Quoted in Wilson, M. and Thompson, L. Oxford History of South Africa. Vol II, Oxford University Press, London, 1971. P.324.

(**) الترنسفال ودولة الأورانج الحرّة.

يحاربون على أراض خبروها ويعرفونها جيداً، وتلك ميزة قتالية لهم. لقد عبأوا قواتهم بسرعة فائقة وأحرزوا نجاحاً في Ladysmith بالناتال وKimberley ومافكنج Mafeking في مستعمرة الكيب. وعلى أية حال لقد بذل البوير جهوداً فائقة وحاولوا الكثير بسرعة فائقة، لهذا سرعان ما اعتراهم الضعف ونفذت طاقاتهم. وهذا الخطأ التكتيكي الذي ارتكبه البوير أتاح الفرصة لقوة إنجليزية صغيرة من ٢٥٠٠ مقاتل من لم شعتها،، وانضم إليها مزيد من الجنود من بريطانيا والهند، فكانوا دعماً لها، ولم تستطع المقاومة البويرية بسهولة أن تتصدى لهذه القوى الإنجليزية المتعاظمة فعانوا مرّة أخرى من هزائم منكرة في Stormberg و Magersfontein و Colenso، وعرف الأسبوع الذي واجهت فيه قوات البوير هذه الهزائم باسم (الأسبوع الأسود) وفي أوائل سنة ١٩٠٠ عانى البوير من هزائم حاسمة واحتل الإنجليز بلومفونتين Bloemfontein عاصمة دولة الأورانج الحرة ولاديسمث Ladysmith في الناتال وبريتوريا عاصمة الترنسفال وتم ضم الترنسفال وأُجْبر كروجر العجوز الضعيف اليائس على الرحيل إلى أوروبا في أغسطس سنة ١٩٠٠ حيث لاقى منيته في ١٤ يوليو سنة ١٩٠٤ ورغم استمرار المناوشات لمدة ثمانية عشر شهراً إلا أنه في سبتمبر سنة ١٩٠٠ كان يمكن إعتبار الحرب الحقيقية قد انتهت.

فمنذ سنة ١٩٠٠ اتخذت المقاومة البويرية شكل حرب العصابات. وكان يقود حروب العصابات تلك في دولة الأورانج الحرة دي وت De Wet، وفي الترنسفال، دي لا راي De La Rey بالإضافة إلى لويس بوثا Botha القائد العام لقوات الترنسفال، ولقد وصل الأمر بالمقاتلين البويريين إلى غزو مستعمرة الرأس. وهنا فَزِع لورد كتشنر الذي كان قد حل محل لورد روبرتس Roberts في سنة ١٩٠٠ كرئيس للجهاز الإداري The Chief of Staff في الأيام الأخيرة من الحرب. لقد خشى كتشنر من استعادة البوير لقوتهم مما سيجعلهم قوّة مدمِّرة، لذا فقد اتبع سياسةحازمة وعميقة تهدف إلى إضعاف وإنهاء المقاومة البويرية مرّة واحدة وفي كل مكان من جنوب أفريقيا. فراح يحطم باستمرار

وانتظام منازل أعدائه في الحقول ويتلف محاصيلهم ويستولي على مخزون أطعمتهم ويقيم المعسكرات ليأوي إليها البوير المدنيون ليصبح عسيراً على أعدائه الاختباء بين السكان المدنيين. وسرعان ما ضعفت المقاومة البويرية وانهارت أمام الهجوم البريطاني وزاد من حدة نكبتهم شيوع الأمراض والجفاف والجوع. وكان أثر الحرب على المدنيين بشعاً ومات كثيرون من سوء التغذية والأمراض المعدية. وكان معظم الضحايا من النساء والولدان الذين قدروا بما لا يقل عن ٢٦,٠٠٠ امرأة وطفل بالإضافة إلى ١١٨,٠٠٠ بويري ماتوا في المعسكرات في أواخرالحرب.

لقد كان حوالي ٧٠,٠٠٠ بويري (بما في ذلك حوالي ١٠,٠٠٠ بويري من الناتال والكيب) يحاربون ضد حوالي ٣٠٠,٠٠٠ جندي يشكلون الكتائب الإنجليزية. وبينما كان في هذه الكتائب عدد كبير من بريطانيا ذاتها، كان هناك آخرون من أجزاء الأمبراطورية المختلفة كاستراليا وكندا، وكان هناك أيضاً أفريقيون محليون. ولقد غطت الحرب معظم جنوب أفريقيا تقريباً إذ شملت الناتال والترنسفال ودولة الأورانج الحرة والكيب والزولولاند.

وكان أحد أسباب هزيمة البوير هو فشلهم في تلقي الدعم الخارجي الذي كانوا يتوقعونه لذا فقد حاربوا بمفردهم إزاء عدو قوي ومصمِّم. وفي نفس الوقت فقد تخلى عنهم البوير في مستعمرة الكيب فقد كانوا يتوقعون أن يقوم الأفريكانر في الكيب بثورة ضد البريطانيين. وبصرف النظر عن عدد بسيط من المتطوعين من الكيب والناتال فلم يندرج في الحرب إندراجاً كاملاً مع الترنسفال سوى دولة الأورانج الحرة.

سلام فيرينجنج سنة ١٩٠٢ Vereeniging :

لقد مضت الحرب لصالح بريطانيا التي كانت قواتها الآن أكثر عدداً وكانت في كل الحالات أكثر خبرة وأفضل تنظيماً . وفي ٣١ مايو سنة ١٩٠٢ انتهت هذه الاضطرابات بصلح فيرينجنج، ولكن بسبب المرارة التي أطلقت الحرب عنانها وأخرجتها من مكنوناتها، فإن صلح فيرينجنج وإن كان قد أنهى

الحرب ببساطة، إلا أنه لم ينزع مشاعر الخوف، ولم يغرس الاحساس بالسلام الحقيقي في عقول الناس.

وإذا ما وضعنا الآثار السيكلوجية جانباً، فما هي المضامين العملية لسلام فيرينجنج؟ للإجابة عن هذا السؤال نحتاج لمعرفة شيء عن الاستعدادات المسبّقة لهذه المعاهدة. فبمجرد أن خسر البوير الحرب، فقدوا استقلالهم وأصبحت جمهوريات البوير مستعمرات بريطانية. وفي المقابل منحتهم بريطانيا المسؤولية الكاملة لإدارة وتسيير أمورهم المحلية إدارة وتسييراً ذاتياً إذا ما عاد الوضع عادياً مستقراً. وخلال فترة الحرب خُرِّبت ممتلكات كثيرة بما في ذلك المباني والحقول وغدا اقتصاد المنطقة ضعيفاً بشكل ملحوظ. وعلى هذا فقد قدمت بريطانيا ٣٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني لاعادة تعمير المنطقة اقتصادياً واجتماعياً بالإضافة إلى العديد من القروض ذات الفوائد، لأغراض التنمية.

ومهما يكن، فبالرغم من أن البوير قد خسروا الحرب إلا أنهم مارسوا تجربة أن يندرجوا جميعاً في سلك واحد للدخول في صراع قوي كانوا فيه موحّدين كافّة ضد الإنجليز، وكان هذا الاندماج والتوحيد نصراً لهم لا يقارن بما لحقهم من هزيمة في الميدان العسكري. ومع هذا ، فمن الحق أنه كان بينهم كثير من التناقضات وعوامل الغيرة، فقد كان هناك البوير الراغبون في استمرار الحرب بينما كان هناك من كان راغباً في الانسحاب منها قبل أن يحيق بهم مزيد من الخراب والدمار. لكن البوير وافقوا على نبذ خلافاتهم ظهرياً لحماية مصالحهم واستمرار وحدتهم. لقد استخلصوا من بريطانيا شروطاً مرضية للغاية خاصة فيما يتعلق بحقوق الأفريقيين مستقبلاً. لقد مرَّت قرون دون أن يتفق الطرفان (البويروالإنجليز) حول هذا الموضوع كما سبق أن أوضحنا في الفصلين الخامس والسابع , أما الآن بعد أن هُزم البوير وانتصر الإنجليز، فإن الحكومة البريطانية قدمت امتيازات وتنازلات لجمهوريات البوير المهزومة، تلك التنازلات والامتيازات التي شكلت وصاغت التطور السياسي لجنوب أفريقيا حتى أيامنا تلك ففي محاولة لاسترضاء البيض في جنوب أفريقيا جمّدت الحكومة البريطانية

مسألة الحقوق السياسية للأفريقيين، ووافقت على أن قضية ما إذا كان غير الأوروبيين لهم حق التصويت أم لا مسألة يجب إلّا يبتّ فيها حتى بعد قيام حكومة مسؤولة. ومنذ هذا الوقت تخلّت بريطانيا تدريجياً عن دورها كحامية لِلقيم الإنسانية وحقوق غير البيض، بشكل عام. وعلى هذا أصبح الطريق للتمييز العنصري والعزل العنصري Apartheid and Racial Segregation واضحاً جَليّ المعالم في جنوب أفريقيا. ولهذا السبب خاصة يمكن أن نقول بصدق إن البوير رغم أنهم قد خسروا الحرب إلا أنهم قد كسبوا قدراً كبيراً مِمّا كانوا يدافعون عنه عبر السنين.

ومن الخطأ الظن بأن نهاية الحرب الإنجليزية البويرية قد جلبت مباشرة فترة من الانسجام والوحدة السياسية، فبينما كانت المناطق الخارجة عن زمام جمهوريات البوير Ex — Republics كان يحكمها الإنجليز مباشرة فإن الكيب والناتال كان لهما حكومتاهما المسؤولتان اعتباراً من ١٨٧٢ للكيب و١٨٧٣ للناتال. فلم تكن الوضعيات السياسية في مناطق جنوب أفريقيا واحدة. ومسألة ثانية وهي أنه رغم كون كل هذه المناطق قد أصبحت الآن تحت سلطة واحدة هي السلطة البريطانية فلم يكن واضحاً ما إذا كان الاتحاد المتوقع سيأخذ شكل الفدرالية أو الوحدة السياسية الكاملة أو حتى الكونفدرالية. وأكثر من هذا، فهل ستبدأ الوحدة من خلال أهل جنوب أفريقيا أنفسهم(*) أو بدونهم بمعنى أنها ستفرض عليهم من قِبَل بريطانيا؟ كل هذه القضايا ظلت غير محلولة ولا واضحة حتى سنة ١٩١٠.

التنظيمات السياسية والتغييرات الدستورية:

وعلى أية حال، فبين سنة ١٩٠٢ و١٩١٠ ـ يمكن أن نقول مطمئنين ـ أن عمليات التوحيد السياسي في جنوب أفريقيا كانت تحرز تقدماً، فخلال هذه الفترة اتخذت خطوات هامة نحو اتحاد نهائي، فكلما عاد السلام والاستقرار الاقتصادي إلى المنطقة وئيداً ثابتاً، أصبحت النشاطات السياسية في كل من

(*) يقصد البيض. (المترجم)

مستعمرتي الترنسفال والأورانج الحرة حقيقة. ففي الترنسفال أسس بوثا Botha وسمت Smuts حزباً قوياً هو حزب الشعب Het Volk Party سنة ١٩٠٥. لقد قبل هذا الحزب كل الاستعدادات والاجراءات السابقة على معاهدة فيرينيجنج - بالإضافة لأمور أخرى، وركز هذا الحزب على ضرورة رأب الصدع والتضامن بين البيض كما طالب بحكومة مسؤولة تحكم المناطق الخارجة عن نطاق الجمهوريات Ex — Republics ـ وثمة حزب آخر تم تأسيسه في مستعمرة نهر أورانج(*) كان له نفس الأهداف، ونعني به حزب Orangia Unie Party.

وحتى مستعمرة الكيب كانت عرضة للتأثيرات السياسية في هذه الفترة. لقد نجح هوفمير في تحويل حزب رابطة الأفريكانر Afrikaner Band Party من حزب أو منظمة بويرية خالصة إلى مؤسسة أشمل وأوسع هي حزب الأفريقيين الجنوبيين South African Party وقد انضم لهذا الحزب الليبراليون الناطقون بالإنجليزية، وبذلك أصبح من الممكن للفئتين من البيض (إنجليز وبوير) أن يعملا معاً. لقد أصبح من الممكن بناء أمة جديدة رغم وجود عقبات عدة ما زالت تعترض الطريق.

وفي سنة ١٨٩٧ تم تعيين ألفريد ملنر Milner مندوباً سامياً لجنوب أفريقيا British High Commissioner وظل في منصبه هذا حتى سنة ١٩٠٥. لقد كان باعتباره ابناً مخلصاً وقادراً للامبراطورية البريطانية يعتقد أن إلحاق (ضم) الترنسفال فيه الحل لمشكلة جنوب أفريقيا. لقد أيد تكوين اتحاد جنوب أفريقيا بقيادة بريطانية وسيادة بريطانية Predominance، إذ كان يرى أن السكان البريطانيين يجب أن يسيطروا على البوير في المدن والريف والحكومة. وفي هذه، كان يلقى تأييداً من وزير المستعمرات البريطاني، جوزيف شمبرلين، الذي خوّله السلطة ليفعل كل

(*) دولة الأورانج الحرة أصبح اسمها مستعمرة نهر أورانج بعد أن غزاها الانجليز سنة ١٩٠٠، وفي سنة ١٩١٠ عاد اسمها القديم كما كان (دولة الأورانج الحرة).

ما يراه ضرورياً لتمهيد الطريق لاتحاد جنوب أفريقيا (فدرالية) بقيادة بريطانية. وهذا يوضح لنا سر اعتراض ملنر على مطالب البوير الاستقلالية. لقد كان السكان البريطانيون في مناطق البوير ما زالوا قليلين كما أن ولاء البوير لبريطانيا كان غير مؤكد. ورغم أن ملنر لم يكن مقتنعاً أن الوقت المناسب قد أتى لمنح الحكم الذاتي للمواطنين خارج الجمهوريات Ex — Republics، إذ لم يكن من الحكمة الاقدام على هذه الخطوة، كبادرة للنوايا الطيبة، ومع هذا فقد منحت الترنسفال حكومة تمثيلية Representative Government وكما كان متوقعاً فإن البوير لم يستقبلوا هذا الإجراء بترحاب إذ اعتبروه غير كاف.

الحكم الذاتي للترنسفال ومستعمرة نهر أورانج :

في ديسمبر سنة ١٩٠٦ اتخذت الحكومة البريطانية خطوة أبعد فمنحت الحكم الذاتي الكامل للترنسفال، وفي العام التالي منحت الحكم الذاتي الكامل أيضاً لمستعمرة نهر أورانج. وفاز حزب الشعب في انتخابات الترنسفال وأصبح بوثا Botha رئيساً لوزراء الترنسفال وغدا Smuts نائباً له، أما في مستعمرة نهر أورانج فقد فاز في الانتخابات حزب أورانجيا Orabgia Unie Party وأصبح أبراهام فيشر Fischer رئيساً للوزراء وكان من بين الوزراء الهامين في حكومته الجنرال هرتسوج والجنرال دي ويت. وفي سنة ١٩٠٧ ـ بناء على هذا ـ أصبح الطريق واضحاً لتكوين اتحاد جنوب أفريقيا على أساس المساواة بين العناصر البيضاء.

اجتماع (مؤتمر) سنة ١٩٠٨ :

كانت الخطوة الكبرى الأولى نحو التوحيد هي تلك التي اتخذت في مايو سنة ١٩٠٨ عندما عقد اجتماع لبحث أمور متعلقة بخط حديد داخلي، ومتعلقة بمسألة الجمارك. لقد كانت مقاصد المجتمعين غير سياسية في الغالب لكن أكثر نتائج الاجتماع أهمية لم تكن اقتصادية ولا اجتماعية. لقد اتفق المجتمعون على سياسة توثيق عرى الوحدة لإزالة العوائق والحواجز الاقتصادية وإزاحتها ليتخذ جنوب أفريقيا طريقه للتعاون والرخاء ـ وثمة توصية أبعد مدى

وهي أن على ممثلي المستعمرات الأربعة أن يجتمعوا لبحث الإجراءات التي تؤدي إلى توثيق أكثر لعرى الاتحاد بشكل عميق وتفصيلي.

الميثاق القومي (الوطني) The National Convention:

وأخيراً اجتمع ممثلو هذه المستعمرات من ١٢ أكتوبر إلى ٥ نوفمبر ١٩٠٨ في دربان Durban ومن ٢٣ نوفمبر ١٩٠٨ إلى ٣ فبراير ١٩٠٩ في مدينة الكيب لمناقشة الميثاق الوطني. وكان من بين الحاضرين مشاهير مثل جيسمون (قائد غارة جيمسون) ومن (Ex — Republicans) أشهـرهم بوثا وشتين ودي ويت. وقد اتفق على الميثاق في جو ودي وكانت نتائجه ذات أهمية فائقة لمستقبل جنوب أفريقيا(*) فمن ناحية كان هناك اتفاق بالاجماع على المساواة الكاملة بين اللغة الإنجليزية والافريكان. وثانياً، حل اسم مستعمرة نهر أورانج محل دولة الأورانج الحرة، وثالثاً، وهو الأكثر أهمية قبول المجتمعين لفكرة سلطة تشريعية واحدة للمنطقة (جنوب أفريقيا) كلها رغم التأكيد على أن المنطقة كلها (جنوب أفريقيا) يجب أن تكون وحدة سياسية تابعة للحكومة البريطانية.

والآن، وقد أصبح اتحاد جنوب أفريقيا حقيقة، غدا من الضروري وضع دستور مناسب لصياغة الأسس التي ترسخ دعائم الأمة والحكومة. وهو ما نص عليه وطالب به الميثاق.

ووفقاً للمداولات المسبقة لمسوّدة الدستور كان يتحتم تعيين حاكم عام يُعينه التاج البريطاني يعاونه من الوزراء عشراً. ويجب أن يكون للاتحاد مجلسان Two — Chamber متفرعان عن برلمان هما مجلس الشيوخ Senate (لمدة عشر سنوات ويكون به ممثلون من الولايات الأربع بقدر متساو) وجمعية عامة House of Assembly (مدتها خمس سنوات) ومن بين هذه الجمعية يتم اختيار الوزراء العشر. أما قضية حق التصويت لأعضاء البرلمان فكان قصراً على االغين من

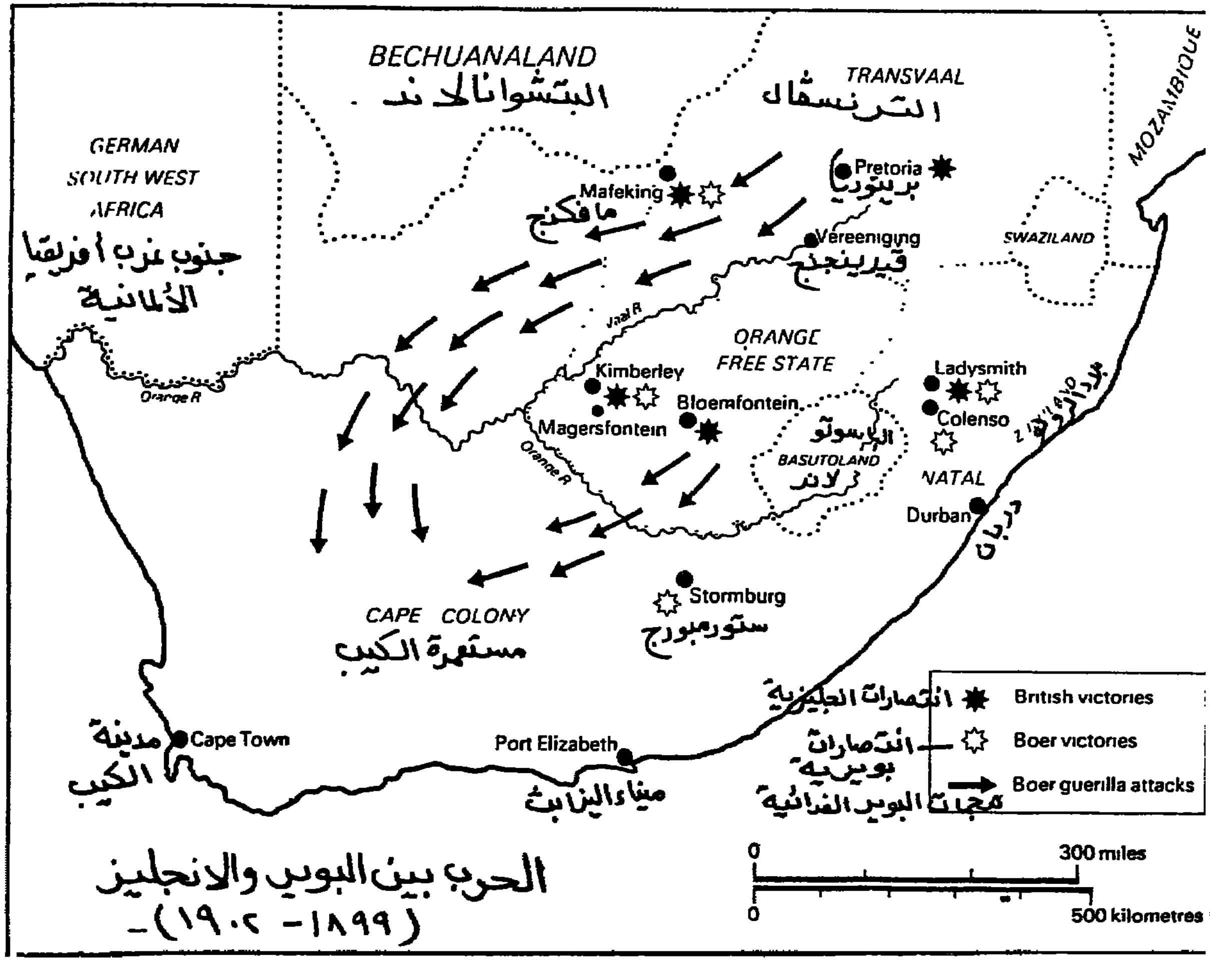
(*) استخدم المؤلف هذه العبارة: 'For the future history of South Africa»

الذكور من الأوروبيين دون سواهم، ولم يكن لغير الأوروبيين مكان في برلمان الاتحاد وظل الوضع هكذا حتى يومنا هذا (انظر الفصل الثاني عشر).

وبالإضافة لما ذكرناه آنفاً، هناك نقاط أخرى هامة في دستور الاتحاد تستحق بعض العناية. فأولاً، كان هناك تمهيد وإعداد مسبّق لتضمين روديسيا (شمالها وجنوبها) كتبعية بريطانية وكذلك بلاد الباسوتو والسوازي والبتشوانا رغم عدم تحديد تاريخ بعينه للضم الفعلي. ولإزاحة أي خوف عن صدور أهل هذه المناطق فيما يتعلق بأراضيهم خشية محاصرة البيض لها واستيلائهم عليها (خاصة وأن البيض كانوا نهمين لضم أراضي جيرانهم الخصبة) فقد أكدت السلطات للشعوب المحلية في هذه المناطق أنهم سيحتفظون بأراضيهم عند ضم بلادهم للاتحاد. وكانت بريطانيا مسؤولة عن إدخال هذه الفقرة خاصة. ومما يدعو للسخرية لم تنضم أي من البلاد التي ذكرت آنفاً للاتحاد، رغم أنها حتى يومنا هذا ترتبط اقتصادياً برباط قوي مع جمهورية جنوب أفريقيا.

ومسألة أخرى هامة في مشروع الدستور متعلقة بوضع الولايات الأربع المكونة للاتحاد، إذ تم تحويل المستعمرات الأربعة إلى ولايات، يتحتم أن يكون لكل ولاية مجلس ولاية Provincial Council مسؤولاً عن الأمور الصحية ومجالس بلدية، ومؤسسات تعليمية دنيا. وبالإضافة لهذا يجب أن تكون كل ولاية خاضعة للحكم (الإدارة) المباشر لحاكم (مدير) تُعَيِّنه حكومة الاتحاد ويتسلم مخصصاته المالية منها ويعاونه في عمله أربعة موظفين منتخبين يكونون لجنة. وهناك محكمة واحدة عليا لكل جنوب أفريقيا، بالإضافة لمحاكم في الولايات والأقاليم. وكان ثمة نص على أن بلومفنتين هي المركز القضائي، ومقر البرلمان في مدينة الكيب أما بريتوريا فالعاصمة الإدارية والتنفيذية. وبهذه الطريقة تم تحاشي الغيرة والحزازات المحلية فيما يتعلق باختيار العاصمة.

وبعد مناقشات وإلحاقات تم قبول مشروع الدستور من قبل كل البرلمانات الأربعة، وكان برلمان الناتال آخر من وافق. وكان الوفد المفوَّض


BECHUANALAND
البتشوانالاند
TRANSVAAL
الترنسفال
GERMAN
SOUTH WEST
AFRICA
جنوب غرب أفريقيا الألمانية
MOZAMBIQUE
SWAZILAND
Pretoria
بريتوريا
Mafeking
مافكنج
Vereeniging
فيرينجنج
Vaal R
Orange R
ORANGE
FREE STATE
Kimberley
Bloemfontein
Magersfontein
Ladysmith
Colenso
BASUTOLAND
NATAL
Durban
دربان
Stormburg
ستورمبورج
CAPE COLONY
مستعمرة الكيب
Cape Town
مدينة الكيب
Port Elizabeth
British victories
انتصارات انجليزية
Boer victories
انتصارات بويرية
Boer guerilla attacks
هجمات البوير الفدائية
0
300 miles
0
500 kilometres
الحرب بين البوير والانجليز
(١٨٩٩ - ١٩٠٢)

الذي يرأسه السير هنري (لورد بعد ذلك) دي فيليرز De Villiers رئيس المحكمة العليا في الكيب Chief Justice قد أرسل إلى لندن لتأمين موافقة الحكومة البريطانية. وأخيراً، وبعد إضافة بعد الملحقات وإجراء بعض التعديلات اعتمد البرلمان البريطاني المشروع باسم قانون جنوب أفريقيا South Africa Act في ١٣ مايو ١٩١٠. لقد أصبح اتحاد جنوب أفريقيا كياناً له مكانه الرسمي في العالم وغدت المستعمرات الأربع ولايات هي مكوناته. وكان على رأس الحكومة الجديدة الجنرال بوثا Botha كرئيس للوزراء. وكان جيمسون الذي يقود الحزب الاتحادي للناطقين بالإنجليزية English — Speaking Unionist Party يشكل المعارضة الرسمية لحزب الحكومة وهو حزب جنوب أفريقيا South African Party بزعامة بوثا Botha.

وكان ميلاد اتحاد جنوب أفريقيا يعني أموراً مختلفة لشعوب مختلفة. فبالنسبة للبيض فإن أمة جديدة قد ولدت، وما حدث كان آلام مخاض. أما بالنسبة للأفريقيين فالأمة الجديدة لم تعد بشيء ولا تشكل أملاً في عدالة ولا في مستقبل باهر. وبالمعنى الحقيقي فإن تشريع إيجاد اتحاد جنوب أفريقيا، كان يمثل رضوخاً كاملاً للسياسات العنصرية والممارسات العنصرية لبيض جنوب أفريقيا التي كان الاعتراف بها قد بدأ في معاهدة فيرنييجنج وربما قبل ذلك. حقيقة إن بريطانيا قد احتفظت بمستعمراتها الأفريقية في منطقة جنوب أفريقيا دون دمجها في الاتحاد، وهي بتشوانالاند والباسوتولاند وسوازيلاند والروديسيتين غير أن الحكومة البريطانية لا هي وعدت ولا هي أمّنت الأفريقيين في جنوب أفريقيا، «وبعبارة أخرى فإن دستور الاتحاد كان يمثل انتصاراً للمتطرفين البوير ووضع في أيدي هؤلاء المتطرفين مستقبل الشعوب الوطنية. فقد آمن المتطرفون من البوير أن العِرْق (الجنس) ومزايا العِرْق (الجنس) هي وحدها أسس المجتمع»(*).

(*) C.W de Kiewiet, Ahistory of South Africa Oxford University Press, London, 1966.PP.150 - 151.

الفصل العاشر

التطورات الاقتصادية والاجتماعية حتى سنة ١٩٦١

كما حدث في مجال التطورات السياسية، كانت التطورات الاقتصادية لجنوب أفريقيا تتعرض مرّة لمد وأخرى لجزر، يظللها حظ طيّب حيناً، وتتعرّض لشظف العيش مرّة أخرى. على أن الصورة العامة تشير إلى تقدم ثابت صوب التقدم والازدهار. ومن بين العوامل التي أسهمت بشكل كبير في تطور اقتصاديات المنطقة، نذكر إنتاج النبيذ والصوف منذ وقت باكر، واكتشاف الذهب والماس والفحم في القرن التاسع عشر واستغلال العمالة الأفريقية الرخيصة استغلالاً بشعاً.

لقد اتضح من خلال الفصلين الثاني والثالث أن اقتصاد جنوب أفريقيا ظل لسنوات عديدة ضعيفاً مهتزاً، فالزراعة والرعي ـ عمادا اقتصاد المنطقة ـ استغرق وقتاً طويلاً للوصول إلى مستوى إنتاجي عال. وهذا أمر طبيعي، ففي أرض جديدة، ومناخ غير مألوف، كان لا بدَّ من تجارب عديدة قبل الوصول إلى المحصول المناسب وإنتاجه بكميات معقولة. كما كان نجاح الرعي، يعتمد على نجاح تجارب مماثلة.

المشاكل الأولى:

وحتى بعد أن اكتملت التجارب، فإن المحاصيل والماشية والخراف كانت في حاجة إلى فترة زمنية لتتأقلم قبل أن تُؤتى أُكُلها كاملاً. وذلك لمواجهة سوء المناخ بما في ذلك الجفاف الذي يطول أمده، وتعرية التربة ونقص الماء في معظم الإقليم، والمرض. أضف إلى هذا، قلة خبرة المزارعين وعدم كفاءتهم

الإدارية، تلك هي أسباب الموقف الاقتصادي السيء قبل منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت الآن واضحة. لقد كان لتعدد التقسيمات السياسية وانعدام الأمن والحروب المتوالية التي هددت الاستقرار الاقتصادي وعاقت التقدم. لقد كان من الواضح أن العصر الذهبي لجنوب إفريقيا، ما زال في طيات المستقبل. ومما زاد من عرقلة التطور الاقتصادي، نقص العمالة. وكما أشرنا في الفصل الثاني كان الرقيق يتم استيراده للحاجة للعمالة منذ القرن السابع عشر. وكانت مشكلة نقص العمالة واضحة بشكل خاص في مؤسسات تصنيع السكر ومزارعه بالناتال.

الهجرة الهندية:

وكان الحل الذي تبنته السلطات لحل مشكلة العمالة يحمل في طياته شحنات من الخطر في مستقبل الأيام، فقد تم تشجيع الهنود ودعوتهم للقدوم والعمل في مؤسسات تصنيع السكر ومزارعه في الناتال. وكان هؤلاء العمال الهنود يعرفون بالعمال المؤقتين أو المتعاقدين Indentured or Coolies لأنهم كانوا يفدون إلى جنوب إفريقيا بناء على عقود. ورغم أن بعضهم عاد للهند عندما انتهت عقودهم إلّا أن عدداً كبيراً منهم استقروا في المنطقة. وبعضهم قدم للمنطقة من الهند مؤيّداً ومجنّداً من قِبل الحكومة الهندية، وقد غدا كثيرون من هؤلاء العمال الهنود أغنياء لديهم الكثير من المقتنيات بما في ذلك الأراضي.

وبعد تكوين اتحاد جنوب إفريقيا أصبحت الحكومة حذرة قلقة إزاء الزيادة في أعداد السكان الهنود وإزاء زيادة ثرواتهم. لقد أصبح الوجود الهندي في المنطقة يسبب مشكلة، رغم أنهم في الأساس قد قدموا لجنوب إفريقيا بناء على دعوة. وفي سنة ١٩١٣ اعتمدت حكومة جنوب إفريقيا قانون الهجرة Immigration Bill قاصدة به منع أي مزيد من الهجرة الهندية إلى المنطقة. لقد مُنع الهنود من دخول دولة الأورانج الحرة، وحُرِّم عليهم شراء الأراضي في الترنسفال. ولقد قاد المهاتما غاندي ـ الذي غادر الهند قاصداً الناتال بصفته محامياً ـ حركة الاعتراض على هذه المعاملة القاسية وغير العادية التي لاقاها

مواطنوه الهنود. لقد نظم الهنود في المنطقة في مجموعات مقاومة سلبية ترفض التعاون مع الحكومة. وقد تلقى غاندي تعاطفاً وتأييداً من الحكومة الهندية في ذلك الوقت. ولم تؤدِ المفاوضات بين غاندي وجان سمت Smuts وزير العدل في حكومة جنوب إفريقيا لم تؤدِ إلى نتائج كبيرة فيما يتعلق بالقوانين غير العادلة والعوائق الموضوعة أمام الهنود. وأخيراً عاد غاندي إلى الهند ليقود معركة قومية للحصول على استقلال الهند، وقد كسب معركته واستقلت الهند سنة ١٩٤٧.

ومع هذا فقد ظلت جنوب إفريقيا تستقبل العمال المهاجرين من الخارج. آلاف العمال قدموا من بوتسوانا ومالاوي وليسوتو والسوازي ليتكسبوا سواء من المناجم أو من العمل في مزارع البيض. وعلى أية حال فقد قضت سياسة الحكومة منع استخدام العمال الإفريقيين في ولاية الكيب حيث كانت الأفضلية للملوّنين، ويقصد بهم فقط الإفريقيون الذين ولدوا في ولاية الكيب أو ظلوا يعملون في ولاية الكيب لمدة عشر سنوات على الأقل، وهذا شرط للسماح لهم بالإقامة فيها.

الزراعة:

خلال السنوات الأولى، كان النبيذ هو أكثر الصادرات أهمية إن لم يكن المصدَّر الوحيد. وقبيل حركة الهجرة الكبرى (الزحف العظيم) تخلى النبيذ عن مكان الصدارة لصالح الصوف، ليصبح النبيذ في المقام الثاني. لقد كان إنتاج الصوف ناجحاً للغاية منذ حوالي سنة ١٨٤٠. إذ أصبح أساس التطور الاقتصادي لجنوب إفريقيا. ففي سنة ١٨٦٢ على سبيل المثال كانت القيمة الإجمالية للصوف المصدّر ٢٥ مليون جنيه. واستمر الصوف في الهيمنة على اقتصاد جنوب إفريقيا حتى ١٨٦٩ عندما ،ىنشف الماس في كمبرلي Kimberley عندئذ تخلى الصوف عن مكان الصدارة للماس وغدا في المقام الثاني بالنسبة للصادرات.

وكما لاحظنا تواً، لم تكن الزراعة التي يعتمد عليها اقتصاد المنطقة بلا مشكلات، فمن ناحية كانت الأراضي التي في حوزة الإفريقيين لا تستوعب

السكان الأفارقة. إذ كانوا قد حوصروا في مناطق خاصة لهم تدنّت جودتها وطريقة الزراعة التي يمارسونها قد أثرت في نوعية الزراعة الإفريقية. وكان تجريف التربة ونحتها نتيجة عوامل التعرية أخطر معـوق للتقـدم والتطور الزراعيين في كل أنحاء منطقة جنوب إفريقيا، وكانت تعْرية التربة أكثر ما تكـون إضراراً في المنـاطق الإفريقيـة (التي يسكنها أفـريقيـون) لقـد قـدر الاختصاصيون أن جنوب إفريقيا تفقد من قشرة تربتها Topsoil (وهي الجزء المنتج من التربة) حوالي ١٪ سنوياً. أضف إلى هذا تدمير الأحراش، والطرائق الزراعية غير العلمية كما أن الممارسين للزراعة كانوا من الرجال والنساء الكبار جداً في السن، والأطفال، أما الشبان الأقوياء فكانوا يذهبون للتكسب في المدن. لقد كان الموقف الزراعي نتيجة عوامل متداخلة، فمنذ سنة ١٩١٣ سُمح للأفريقيين بشغل ٢٠٪ من إجمالي أراضي المنطقة رغم تفوقهم العددي. وهذا يعني أن ٨٠٪ من الأراضي كان يمتلكها ١/٥ السكان (ومنذ سنة ١٩١٣ فصاعداً، أصبحت الأراضي التي يشغلها الأوروبيون حوالي ٨٧٪ ولم يبقَ للإفريقيين سوى ١٣٪ فقط) لقد زاد الضغط على الأراضي التي يقـطنها أفريقيون نتيجة زيادة السكان وتكدس ممتلكاتهم، فلم يعد هناك مكان للزراعة المتنقلة وعدم مقدرة الإفريقيين على تطبيق نظام الدورة الزراعية، وعدم استخدامهم للمخصِّبات والسماد. لهذا سرعان ما كان معين الخصب في حقولهم ينضب. وعلى هذا فقد تدنى الإنتاج السنوي من الطعام في الوقت الذي كان السكان الإفريقيون يتزايدون. فعلى سبيل المثال نجد في سنة ١٨٧٥ في منطقة فكتوريا الشرقية Victoria East في Cizkei، والتي يبلغ سكانها أقل من ٦,٠٠٠ تبيع منتجات زراعية تبلغ قيمتها ١٩,٠٠٠ جنيه استرليني بينما في سنة ١٩٢٥ عندما بلغ عدد سكانها ١٢,٠٠٠ لم تنتج المنطقة ذاتها إلاَّ ما قيمته ١٠,٠٠٠ جنيهاً استرلينياً. وهذا التدهور في العائد الزراعي نجده أيضاً في ترنسكي Transkei التي أنتجت ٤/٥ احتياجاتها من الذرة سنة ١٩٣٢، ونصف احتياجاتها فقط سنة ١٩٤٣، ولم يكن الوضع مختلفاً في ناماكوالاند Namaqualand والجريكالاند الغربية. وبوجه عام، فإنه بين سنة ١٩٢١

و ١٩٣٠ أنتج الإفريقيون ما قيمته ٦٤٠ مليون جنيه من الذرة الرفيعة millet بينما بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٩ انخفض إنتاجهم بالنسبة لنفس المحصول إلى ما قيمته ٤٩٠ مليون جنيه.

لقد كان الإفريقيون في المناطق المخصصة لهم مهددين بالموت جوعاً، وأصبح الحصول على أراض للزراعة مسألة صعبة وخطيرة، لذا كانوا مضطرين للرحيل للعمل في المدن والمزارع الأوروبية. لقد قدر الباحثون أنه في سنة ١٩٦٤ كان ٢٠٪ من الرجال المتزوجين في Ciskeiو ٢٥٪ من نفس الفئة بالترنسفال لا يحوزون أرضاً يزرعونها وفي نفس العام كانت الكثافة السكانية في الميل المربع الواحد ٧٩ شخصاً في Ciskei سزكي و٨٢ شخصاً في نفس المساحة بالناتال والترنسكاي. ويغدو معنى هذه الأرقام أكثر وضوحاً إذا ما عُدنا صُعُداً في الزمن، ففي سنة ١٩٢٨ - ١٩٢٩ كان ٧١,٧٪ من الرجال في Middledrift بمنطقة سزكي و٦٧٪ من الرجال في منطقة Sekhukhuneland بالترنسفال بعيدين عن بلادهم، يكسبون رزقهم في المدن والمزارع الأوروبية. حتى النساء اللائي في عمر يجعلهن قادرات على العمل، غادرن قراهن بحثاً عن العمل، ففي سنة ١٩٥٠ كان عدد الراحلات بحثاً عن العمل في المدن الأوروبية من كيزكامهوك Keiskammahoek قد بلغن ٣٠٪، وكان ثلثهن متزوجات لحقن بأزواجهن ويجب أن نلاحظ هنا أن الإفريقيين كانت تجذبهم مناطق التعدين فيفضلون العمل بها لارتفاع الأجور هناك. وقد كان الإفريقيون المخلَّفون في المناطق الريفية يعانون من الفقر المدقع. لقد كانوا يعيشون في التلال والوديان وقد فقدت أراضيهم قشرتها المنتجة نتيجة عوامل التعرية فغدت ودياناً مليئة بالأخاديد نتيجة جرف المطر، بشعة غير ذات ذرع. ولإنقاذ الموقف تبنى قسم الشؤون الوطنية Native Affairs Department مشاريع للحفاظ على التربة، وكان هدف هذه المشروعات هو تحسين الأرض بمنع وإيقاف عمليات التعرية. فشجعت الحكومة الأفريقيين على تقليل مقتنياتهم من الماشية والأغنام والماعز (*).

* - لأنها أحد عوامل التعرية. (المترجم).

وجعلتهم يحسنُّون من طرائقهم الزراعية. كما شجعتهم الحكومة على المحافظة على مناطق الرعي وبناء السدود وإنشاء مصاطب مدرجة للزراعة عليها فوق التلال TerraceTheland. وفي نفس الوقت حاولت الحكومة تجميع الأفريقيين في مستقرات (قرى) ليكون بعضهم قريباً من البعض الآخر بدلاً من وجود منازل متباعدة منعزلة. وأخيراً فمنذ سنة ١٨٣٧ كانت هناك محاولات غير ناجحة لإدخال نظام الحيازة الفردية للأرض، وكانت هذه المحاولات في بداية الأمر بمستعمرة الكيب وبعد ذلك في الناتال وسزكي وترنسكي. ورغم أن الهدف من هذه المحاولات كان إيقاف تمزيق الأراضي واستنزافها بدون طائل، إلّا أن هذا قد استمر بعناد، واستمر أيضاً تدني إنتاجية الأرض.

وبوجه عام كان رد فعل الأفريقيين إزاء هذه الإجراءات متبايناً، وفي بعض الحالات كان عدائياً. لقد كان إحساسهم أنهم كانوا جزءاً من سياسة التفرقة العنصرية، وهي السياسة الرسمية للحكومة. لقد كانوا يعتقدون أنه ما دامت الحكومة معترفة بوجود مشكلة أرض بين الأفريقيين فإن الطريق الوحيد والفعّال لحل المشكلة هو إعطاء الأفريقيين مزيداً من الأراضي. ومن هنا كان عداء الأفريقيين ومقاومتهم للإصلاح الزراعي وما يتعلق به. وأكثر من هذا لقد كان الأفريقيون يقدرون الماشية كثروة، وهي أيضاً بالنسبة لهم مدعاة للفخر وامتلاكها يعد مقياساً للوضعية الاجتماعية، كما أنها مصدر للحليب. كما أنهم كانوا قد تعودوا على تجريف الأرض Ploughing. لقد كان أي حديث عن تقليص ممتلكاتهم من الماشية غير ذي جدوى عندهم. وعلى أية حال فإن نسبة أعداد الماشية المقتناة قد بدأت تقل بين الأفريقيين من ٩,١٪ للأسرة سنة ١٩٣٩ إلى ٧,١٪ سنة ١٩٥٤. وكلما قلت أعداد الماشية قلت كميات الحليب أيضاً، وأصبح تجريف التربة أكثر صعوبة لندرة الثيران وضعفها. ومن ناحية أخرى ظل عدد قليل من الأفريقيين يحرزون بعض التقدم باستخدام المحراث Plough (منذ القرن التاسع عشر) واستخدموا المحراث الآلي (التراكتور Tractor) منذ سنة ١٩٤٨. وكان الزولو على ساحل الناتال

يزرعون قصب السكر كما كان بعض الأفريقيين يقتنون الخراف لصوفها وجلودها. لقد كان الأفريقيون يبيعون منتجاتهم وبالمال الحاصلين عليه يشترون الملابس والمحاريث والأثاث والسكر. لقد تغيرت معايير الثروة والرخاء والوضع الاجتماعي لدى الأفريقيين . وكان عدد من الأفريقيين ينفق كل دخله لتعليم أطفاله.

ورغم هذا فقد كانت الصورة العامة بعيدة تماماً عن كونها مرضية فقد وجد فلاحون أفريقيون كثيرون أنه من المحال أن يحصلوا عن طريق الزراعة على الطعام الكافي فكان عليهم استيراد حبوب الغذاء كالذرة والسرجم(*) والقمح والسكر والقهوة. لقد أصبح قليل من الأفريقيين الآن يموت جوعاً، ولكن الذين لم يموتوا لا يأكلون بما فيه الكفاية فقد ألفوا نظاماً غذائياً قاسياً (حمية) لم يتعوّدوه. وفي نفس الوقت فإن فرصهم في تجميع المزيد من الثروات عن طريق العمل في الأرض قد غدت مسألة منصوباً دونها عوائق ممثلة في سياسة الحكومة الرسمية المتعلقة بالأرض، بالإضافة لنزع أراضيهم وإعطائها للبيض alienation. لقد كان الفقر جزءاً من الحياة اليومية للأفريقيين في المناطق الريفية. لقد كانت ملايينهم لا تحصل على قدر كاف من الأراضي وقد حدّدت لهم مناطق صغيرة غير خصيبة لا يخرجون عن زمامها. لم يكن أمامهم أن يعيشوا جميعاً داخل قراهم مهما كانت نواياهم الطيبة. لذا فقد انسابوا إلى المدن والمزارع الأوروبية للعمل ولتغيير رتابة الحياة وقسوتها، وكان هذا التوجه نحو المدن ضرورياً و ملقياً، ولم يكن من الممكن وقفه طالما كانت الظروف التي أشرنا إليها مستمرة.

المعادن:

المشاكل الزراعية التي تعرضنا لها الآن، ليست قصراً على جنوب أفريقيا وإنما هي مشاكل عامة في كثير من أجزاء القارة الأفريقية. أما بالنسبة للمعادن ـ فعلى خلاف أجزاء أخرى من القارة ـ نعمت جنوب أفريقيا بأغلى

* نوع من الحبوب، به مادة سكرية واضحة (المترجم)

معادن العالم، كالذهب والماس. ولقد بدأت عمليات تعدين النحاس سنة ١٨٥٢ في سبرنجبوكفونتين Sprıngbokfontein في مستعمرة الكيب وكانت حافزاً لإنعاش الاقتصاد على نحو ما. وقد أعطى اكتشاف الماس والفحم والذهب واستخراجها للمنطقة قوّة وزخماً اقتصادياً، بدونها ما كان يتأتى للثورة الصناعية والرخاء الاقتصادي في النصف الأول من القرن العشرين أن يكون حقيقة واقعة فالفضل يعود لاكتشاف هذه المعادن، مما جعل المنطقة عبر قرون تتخطى مرحلة الاقتصاد الزراعي والرعوى الضعيف وغير الثابت، لتصبح دولة صناعية غنية راسخة قوية.

١ ـ الماس:

أعقب اكتشاف الماس في كمبرلي سنة ١٨٦٩ فترة من التغييرات ذات الدلالة، كانت في معظمها إيجابية وتنحو نحو الازدهار والتقدم بينما كان بعضها سلبياً وضاراً. فالصناعة التعدينية قدِّر لها أن تؤدي إلى مزيج من الثروة والمشاكل الاجتماعية. لقد أدى اكتشاف الماس إلى جعل جنوب أفريقيا غنياً، فمنذ سنة ١٨٧١ كانت صادرات الماس تبلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً. لقد وجدت جنوب أفريقيا نفسها فجأة في المراحل الأولى للثورة الصناعية ولم تعد تعتمد على الزراعة وحدها. فظهرت المراكز الحضرية الضخمة ونشأت المراكز الصناعية الأولى في المنطقة. وفي سنة ١٨٧١ على سبيل المثال نمت كمبرلي نمواً هائلاً وبلغ إجمالي سكانها ٥٠,٠٠٠. لقد تفوقت من حيث عدد السكان على مدينة الكيب العريقة ومقر الإدارة. أنه تطور ملحوظ خلال فترة زمنية يسيرة لا تزيد على السنتين. لقد دفع تصنيع الماس اقتصاد المنطقة دفعة عظيمة وزاد من ثروتها، وأوجد أكثر من عاصمة للاستثمار وأسرع بعمليات التحديث (فعلى سبيل المثال في مجال صناعة النقل حيث تم إنشاء خط حديدي إلى مدينة الكيب وبورت اليزابيث Port Elizabeth ولندن الشرقية (إيست لندن) ودربان)، وأوجد فرصاً جديدة للتوظيف وأسواق جديدة للفلاحين وجذب الناس للمراكز الصناعية الجديدة التي أصبحت مراكز حضرية

لهذا المجتمع الجديد. لقد انساب خلْق كثير من جنوب أفريقيا ومن مختلف أنحاء العالم إلى مدن ومراكز التعدين في كمبرلي (أكبر مركز للتعدين في جنوب أفريقيا)، و Dutoitspan دتويتسبان وبلوفونتين ودي بيرز De Beers. وغدت كمبرلي مركزاً تعدينياً وتجارياً هاماً. وقد أحدثت الثروة الناتجة عن ظهور الماس آثاراً محمودة في دفع عجلة التقدم الاقتصادي في أماكن أخرى من جنوب أفريقيا، فعلى سبيل المثال نتج عنها ارتفاع ملحوظ في صادرات الناتال ومدينة الكيب وأتاحت فرص عمل وتوظيف للناس سواء في المدن أو المناطق الريفية. ولكن إذا كان آلاف من المنقبين والرواد قد اندفعوا إلى كمبرلي فإن قليلاً منهم هم الذين أحرزوا نجاحاً، فقد كانت نهاية الغالبية العظمى منهم بائسة حزينة. وقد كانت الصناعة تفتقر إلى رأس المال والمعلومات التكنولوجية. وثمة مشاكل هامة أخرى تتمثل في زيادة عدد قرى الأكواخ (العشيش) Shanty Towns في مناطق التعدين بالإضافة للقضية القديمة، وهي قضية التفرقة العنصرية. وعلى هذا، فرغم قسوة الحياة، فإن أفريقيين كثيرين قد توجهوا مندفعين للعمل في المناجم، فكان ١٠,٠٠٠ أفريقي على الأقل يوظفون في المناجم كل عام. وفي سنة ١٩١٢ كان هناك ٢٨٥,٠٠٠ أفريقي (من جنوب أفريقيا ونباسالاند وروديسيا وباسوتولاند) يعملون في المناجم، في مقابل ,٣٦ أبيض فقط (من جنوب أفريقيا وبريطانيا وأستراليا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية) . لقد كان الأفريقيون هم العمود الفقري لتعدين الماس كما كان استغلالهم باعتبارهم (العمالة الوطنية الرخيصة) من بين العوامل المسؤولة عن التطور الاقتصادي لجنوب أفريقيا. على أن حضور أعداد كبيرة من العمال الأفريقيين غير المهرة إلى المناجم، كان مبعث خوف من البيض وقلل من أحساسهم بالأمن. لقد كان ثمة إحساس أن السود يشكلون تهديداً للبيض الفقراء إذ ينافسونهم في العمل بالمناجم، لهذا وضع على كاهل الأفريقيين أعباء ضخمة في مجال عملهم، وكانوا مع هذا يتقاضون أجوراً ضعيفة متدنية وليس لديهم أَمَلٌ في الترقي، وهو نفس الوضع غير العادل الذي كان يواجهه الأفريقيون العاملون في المزارع الأوروبية. كما صدرت قوانين ظالمة قاسية لإجبار

الأفريقيين (native) على العمل ولتجميدهم في حدود لا يتجاوزونها تجعلهم في مكان أدنى دائماً من البيض.

وحتى حوالي سنة ١٨٨١ كان الوضع في مجال صناعة التعدين ما يزال مضطرباً تماماً. وقبل هذا التاريخ كان هناك منقبون عديدون يتنافس بعضهم مع البعض الآخر، وكان لكل منقب digger أو شركة تنقيب منطقة عملها الخاصة بها، وقد تكون المنطقة كبيرة، وقد تكون صغيرة لا تتعدى سبع ياردات(*) لقد كان هناك أكثر من ٣٢٠٠ دعوى بحق التنقيب في مناجم كمبرلي ودبير وبولتفونتين ودتويتسبان. وكان النجاح حليف البعض بينما أفلس آخرون. وفي سنة ١٨٨١ تحسن الوضع بشكل ملحوظ على أية حال. ويرجع الفضل لقيادة سيسل رودس وحسّه العملي التجاري في جعل إدراج معظم المناجم تدريجياً في إدارة واحدة (تحت سلطة واحدة) فقد جمّعت جميعاً وعرفت باسم شركة دي بيرز التضامنية المحدودة للمناجم De Beers Consolidated Mines Limited. وفي سنة ١٨٩٠ سيطرت هذه الشركة على كل صناعة تعدين الماس في المنطقة وأدى التنظيم الجيد والميكنة إلى فعالية أكثر وإنتاجية أعظم.

٢ ـ الذهب:

بينما كانت دولة الأورانج الحرّة والناتال والكيب قد أصبحت في رغد نتيجة صناعة الماس، كان رخاء الترنسفال يعتمد على تعدين الذهب. فقبل سنة ١٨٦٤ كانت أشغال الذهب تتم بكميات بسيطة غير تجارية. وظل اقتصاد الترنسفال ضعيفاً حتى سنة ١٨٨٤ عندما تم اكتشاف الذهب بكميات كبيرة في وتوترسراند Witwatersrand وعرفت بأنها تحوي أكبر مخزون ذهبي في العالم ورغم أن نسبة الذهب الخالص في التبر (خام الذهب) كانت منخفضة إلاَّ أن أطنان الخام كانت هائلة وذات إنتاجية عالية.

(*) الياردة تعادل ٣ أقدام أو ٣٦ بوصة أو ٩١,٤٤ سنتيمتراً (المترجم).

وكانت نتائج اكتشاف الذهب مشابهة لما أشرنا إليه إجمالاً عن نتائج اكتشاف وتعدين الماس. لقد كانت هناك نتائج مباشرة سريعة ممثلة في «حمى الذهب» Gold Rush * والتفكير الاندفاعي، والرخاء والثـراء، والنجاح والإفلاس ونمو المراكز الصنـاعية نمـواً سريعـاً للغايـة، وتطور المجتمعـات الحضرية ـ حيث كانت جوهانسبرج أكبرها وأكثرها ثراء ـ وتطوَّرت القرى وتحولت أكواخها إلى قصور. لقد انساب الناس إلى جوهانسبرج في ويتووتر سراند Witwatersrand بعشرات الآلاف، قادمين من بريطانيا وسائر أنحاء أوروبا وأستراليا وأمريكا ومناطق جنوب أفريقيا. وبنهاية القرن بلغ عدد سكـان جوهانسبرج حوالي ١٦٦,٠٠٠. وفي الفترة الأولى كان المنقبون الصغار عن الذهب ينافس بعضهم بعضاً وينافسون الشركات. ولم ينجح من هؤلاء إلا الأكثر شجاعة والأعمق مكراً والأكثر حظاً، كما سقط الآلاف فشلاً وتنحوا مقهورين على جانبي الطريق ولقد استثمر سيسل رودس و ج. ب. روبنسون وآخرون الخبرات الصناعية في كمبرلي، فدعموا صناعة الذهب وأعطوها دفعة قوية بجعل المناجم المختلفة تحت إدارة شركة واحدة، هي شركة حقول ذهب جنوب أفريقيا التضامنية The Consolidated Gold Fields of South Africa. وتم هذا الإنجاز خلال الست سنوات الأولى من بداية هذه الصناعة، فقط. وكانت نتيجة التنظيم المتقدم الذي تزامن مع التطور التكنولوجي فعَّالة ومؤثرة. فقد غدت وتووترسراند رَخيَّة ثرية وتحولت الترسنفال إلى دولة صناعية حديثة، وكانت وتووترسراند منها بمثابة المركز والقلب. ورغم أن التطور كان في البداية بطيئاً، إلاَّ أن ما تطلبه تعدين الذهب وحركة التصنيع من حاجة إلى مد السكك الحديدية ووسائل النقل الفعّالـة وإنشاء البنوك، سرعان ما أنعشت اقتصاد المنطقة ونقلته إلى مستوى مزدهر رفيع، فبين سنة ١٨٨٧ و ١٨٨٩، على سبيل المثال، كان عائد الترسنفال وحدها قد ارتفع من ٦٣٨,٠٠٠ جنيه استرليني إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني. وفي سنة ١٨٩٦ كانت صناعة

(*) أي تدافع الناس تدافعاً شديداً وتكالبهم بحثاً عن الذهب واقتنائه والمتاجرة فيه (المترجم)

الذهب تشكل ٩٧٪ من صادرات الترنسفال ويعمل في نطاقها ١٠٠,٠٠٠ عامل وتم إنشاء سكك حديدية لسد المتطلبات الصناعية المتزايدة. ففي ١٨٨٧ تم ربط الترنسفال وخليج دلجوا Delagoa بخط حديدي، وبعد ذلك بسنوات خمس تم تسيير قطارات تربط بين خليج دلجوا وبريتوريا، وكلّما زاد الثقل الاقتصادي للترنسفال كلما تم إنشاء خطوط حديدية جديدة، فمن بين خطوط أخرى وجدنا خطاً حديدياً يصل من الناتال إلى حدود الترنسفال في سنة ١٨٩١ وفي العام التالي مُد الخط الحديدي الذي يصل بين بورت اليزابث وبلومفونتين إلى حدود الترنسفال، وفي سنة ١٨٩٢ امتد خط سكك حديد الكيب إلى راند Rand وفي سنة ١٨٩٥ ارتبطت الناتال مع راند بخط حديدي. وبالمقارنة نجد أن جنوب أفريقيا في الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٦٩ كان بها ٦٨ ميلاً من السكك الحديدية فقط، وفي سنة ١٩١٩ كان بها ٧,٦٩٦ ميل. وكان معظم السكان المشتغلين بالصناعة من الغرباء Uitlanders ومعظمهم من الانجليز الذين أتوا بحثاً عن الذهب والماس، وسرعان ما حدثت الصدمات بين الانجليز والبوير، كما سبق أن لاحظنا في الفصل التاسع، فلم يكن الانجليز ليصبرون على تقاليد البوير، وحرصهم ـ أي البوير على الاستقلال، فقد أثار هذا غيرة الانجليز. وفي سنة ١٨٩٥ زاد عدد الغرباء على عدد البوير في منطقة المناجم والتعدين في وتووترسراند، بنسبة ٧ إلى ٣، ومن هنا كان اعتراض كروجر على إعطاء الغرباء حق التصويت، فقد كان البوير يخشون من السيطرة السياسية والثقافية الدائمة للغرباء الناطقين بالانجليزية English Speaking Uitlanders.

٣ ـ الفحم:

إن التطور الكبير الحادث في اقتصاد الترنسفال خاصة، واقتصاد جنوب أفريقيا عامة، عَقِب اكتشاف الذهب قد دعّمه وجود كميات كبيرة من الفحم الجيد النوعية في وتووترسراند، وقد أدى قرب الفحم من مناجم الذهب إلى تسهيل تعدين الذهب تسهياً كبيراً، فخلال الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر اكتُشف مزيد من الفحم في الناتال ومستعمرة الكاب بكميات ذات

قيمة. وقد أدى الفحم أيضاً إلى دفع عجلة التصنيع مما أثر تأثيراً كبيراً في دفع اقتصاد المنطقة في مختلف المجالات، فقد كان الفحم مصدراً هاماً للطاقة ويسَّر التطور الصناعي. كما كان الفحم في حد ذاته مصدراً للثروة وأتاح فرصاً للعمل لآلاف البشر.

أثر الحرب الانجليزية البويرية:

لقد تعرض النمو الاقتصادي الذي تسببت فيه صناعة التعدين، إلى تدهور في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين بسبب الحرب بين البوير والانجليز. فخلال الحرب توقفت الأنشطة الاقتصادية التعدينية وتعطلت المصانع وتحطمت المزارع في دولة الأورانج الحرة والترنسفال، فقد التحق بالحرب عدد كبير من البيض وأصبحت العمالة نادرة وزاد الموقف سوءاً عندما قرر بعض العمال الأفريقيين العودة إلى قراهم. وفي سنة ١٩٠٢ لم يكن يعمل في مجال التعدين سوى ١٠,٠٠٠ أبيض و ٤٥,٠٠٠ أسود، بينما كان ضعف هذا العدد يعمل في التعدين في سنة ١٨٩٩.

وثمة سبب آخر يكمن وراء الانهيار الاقتصادي في جمهوريات البوير وهو سياسة اللورد كتشنر القاضية بتدمير مراكز البوير ومزارعهم ومحاصيلهم والاستيلاء على أعلافهم ومواشيهم. ويتضح الانهيار الاقتصادي الذي عانته جنوب أفريقيا خلال فترة الحرب إذا عرفنا حقيقة أن الصادرات تدنت من ٢٦ مليون جنيه استرليني سنة ١٨٩٨ إلى ٩ مليون سنة ١٩٠٠، وخلال نفس الفترة ارتفعت الواردات من ٢٢ مليون إلى ٢٣ مليون جنيه استرليني ثم إلى ٣١ مليون جنيه استرليني سنة ١٩٠١. وعلى أية حال، فإنه يجب أن نلاحظ أن الناتال ومستعمرة الكاب لم تتأثرا كثيراً بالحرب بل لقد انتعش اقتصادهما نتيجة وجود آلاف من العساكر الانجليز الذين أنفقوا مبالغ كبيرة من المال.

مزيد من التطورات في القرن العشرين:

رغم أن الحرب قد انتهت سنة ١٩٠٢ إلا أن الوضع الاقتصادي لم يعد كما كان في التو والحال، وهذا أمر متوقع نظراً للدمار الكبير في المناجم والمزارع

والمصانع، وفي سنة ١٩٠٦ ـ على أية حال ـ تحسن الوضع وزاد عدد العاملين في المناجم إلى ١٨,٠٠٠ أبيض و ٢٤,٠٠٠ أسود. بالإضافة إلى عدد كبير من العمال الصينيين بلغوا ٥١,٠٠٠، وكانوا قد استقدموا لسد العجز في العمالة، وقد تم الاستغناء عن أغلبهم وأعيدوا لوطنهم سنة ١٩١٢.

وبتكوين الاتحاد سنة ١٩١٠ انتعش الاقتصاد إلى حدٍ ما، نظراً لأن الاتحاد قد أدى إلى وجود سوق كبيرة لشعب تعداده ٦ مليون تقريباً يعيش على مساحة تبلغ ٤٧١,٠٠٠ ميل مربع. فبينما كانت الحدود الإقليمية في السابق تشكل عائقاً كبيراً للسوق المحلي، فقد أصبح في مقدور الفلاحين والمزارعين والصناع الآن أن يبيعوا منتجاتهم لعدد أكبر من السكان، كما أن فرص التصدير قد زادت. وفي نفس الوقت وسعت جنوب أفريقيا من قاعدتها الاقتصادية بتنويع مصادر الدخل، فعلى سبيل المثال نجد أنه في سنة ١٩١٢ كان التعدين يشكل ٣٦ مليون جنيه فقط من إجمالي الدخل القومي البالغ ١٣٣ مليون جنيه استرليني أي (٢٧,١ ٪) ، بينما كان الدخل من الزراعة والتصنيع يشكل ٢٣ مليون جنيه استرليني أي (١٧,٤ ٪) و ٩ مليون من مصادر أخرى أي (٦,٧ ٪) وقد تسببت السكك الحديدية في مزيد من الانتعاش لاقتصاد المنطقة في الحقبتين الأوليين من القرن سواء باعتبارها وسيلة استثمارية، أو باعتبارها مجالاً لاستيعاب العمال، ومجالاً للتوظيف، وبين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٩ كان في جنوب أفريقيا ما إجماليه ٥,٥٨٢ ميل من الخطوط الحديدية.

وحتى الحرب العالمية الأولى كان اقتصاد جنوب أفريقيا في وضع متقدم وموقف مزدهر على نحو أو آخر ولكن الحرب العالمية الأولى، قد أعقبها تدهور اقتصادي عام في كل مكان، وليس في جنوب أفريقيا فحسب، فالتدهور الاقتصادي الكبير ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ قد أثر في العالم كله ولم تكن جنوب أفريقيا استثناء من ذلك، فحتى سنة ١٩٣٥ كانت المنطقة (جنوب أفريقيا) ما زالت

تعاني ذيول الآثار الأولى للأزمة الاقتصادية . فأسعار المنتجات الزراعية قد تدهورت تدهوراً مخيفاً، وتراخت عمليات تصنيع الذهب واستخراجه إذ بدت علامات النضوب على المناجم القديمة. وبوجه عام كان هناك جمود اقتصادي. وفي الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٥٠ استعاد الاقتصاد أنفاسه وغدا أقوى من ذي قبل، فقد شهدت هذه الفترة ازدهاراً في النشاطات الصناعية إذ تم بناء مصانع جديدة، كما شهدت نفس الفترة نمواً ملحوظاً في الزراعة. وفي نفس الوقت كان هناك ازدهاراً كبيراً في الصناعة التعدينية لاقاه الناس بفرح وترحيب. وكانت استعادة اقتصاد جنوب أفريقيا لأنفاسه، تعود في جانب منها لتحسن الأوضاع الاقتصادية العالمية، وإن كان من الأصوب أن نقول إنه نتيجة عوامل محلية وعالمية متداخلة ومجتمعة.

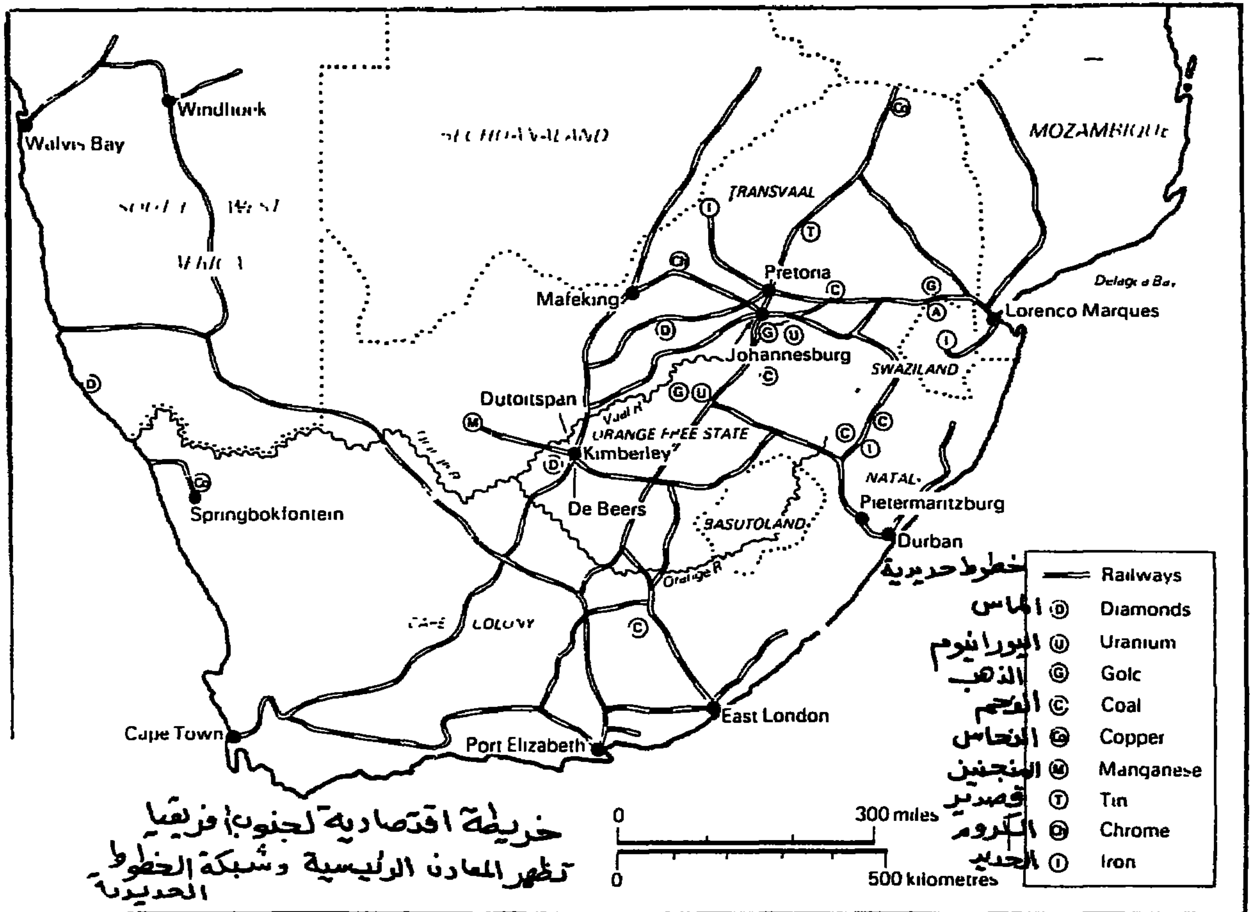
الإجراءات الحكومية لمواجهة التدهور:

منذ كان التدهور الاقتصادي يشكل أزمة وطنية وعالمية، كان على الحكومة أن تعمل على حماية الصناعات المحلية والمزارع وأن تعمل على تدعيم الاقتصاد، وكانت بعض الإجراءات التي قدمتها الحكومة تهدف إلى احتواء النتائج الاقتصادية فيما بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، كما تم اعتماد عديد من القوانين الأخرى خلال الثلاثينات من القرن العشرين. وإذا ما رجعنا بالزمن إلى الوراء وجدنا أن الحكومة قد أصدرت في سنة ١٩١٢ تشريع بنك الأراضي Land Bank Act لتقديم المساعدات المالية للفلاحين ولتنمية الجمعيات والمجتمعات التعاونية. وفي سنة ١٩٢٢ صدر التشريع التعاوني - Co operatives Act لدعم الجمعيات التعاونية وجعلها أكثر فائدة للفلاحين، وبعد ذلك بعامين صدر قانون النبيذ والمشروبات الكحولية لتثبيت أسعارها وبالتالي مساعدة الفلاحين المنتجين لها.

ومنذ سنة ١٩٢٥ اتخذت الحكومة إجراءات لحماية أرباح فلاحيها وصنّاعها، ولحماية اقتصاد الدولة بشكل عام. ففي هذا العام أنشىء جهاز تصدير الفاكهة Fruit Export Board وخُوِّل هذا الجهاز سلطة تحسين وتطوير

عمليات تصدير الفاكهة والإشراف عليها. وفي العام التالي (١٩٢٦) كان تصدير منتجات الألبان خاضعاً لإشراف جهاز جديد هو جهاز تصدير المنتجات سريعة التلف Perishable Products Export Board. ولتحاشي انهيار الأسعار العالمية للسكر، فرض على السكر الوارد رسم جمركي مقداره ثمانية جنيهات استرلينية، سنة ١٩٢٦ - بدلاً من أربعة جنيهات وعشرة سنتات قبل ذلك - لكل طن، وهذا لحماية وتشجيع الصناعة المحلية. ونتيجة لهذا، ففي سنة ١٩٢٩ كانت الصادرات من السكر تبلغ ٨٦,٠٠٠ طن، وزادت مساحة الأراضي المزروعة قصب سكر من ٢٦٤,٠٠٠ فدان انجليزي (أكر) سنة ١٩٢٧ إلى ٣٣٦,٠٠٠ في سنة ١٩٣٢. كما أن المزيد من التدهور في الأسعار العالمية للسكر جعل الحكومة تزيد التعريفة (الضريبة) - كأمر ضروري - على السكر الوارد ففي سنة ١٩٣٢ كانت التعريفة للطن الوارد ١٢ جنيه استرليني و ١٠ سنت وفي أواخر نفس العام ارتفعت التعريفة إلى ١٦ جنيه استرليني. ومع هذا ظلت جنوب أفريقيا بعيدة عن تحقيق ربح؛ ففي سنة ١٩٣٣ كان لديها فائض من السكر تبلغ قيمته ما يزيد على مليون جنيه استرليني، بينما كان السوق العالمي للسكر يشير إلى انعدام قيمته، فقد كان يباع بما لا يزيد عن بنس واحد للرطل (*)، لذا صدر قانون السكر سنة ١٩٣٦ Suger Act للحد من إنتاج السكر. كما صدرت قوانين صارمة لحماية الصناعات الزراعية وطبقت على منتجات الألبان والقمح والذرة والصوف واللحوم. وفي سنة ١٩٣٠ أنشأت الحكومة هيئة (جهاز) الإشراف على صناعة الألبان Dairy Industry Control Board، وكان يدخل في اختصاصه إدارة هذه الصناعة وتوجيهها وتثبيت أسعارها (تحديد أسعارها) وتحديد الكمية التي يسمح لكل فلاح بتصديرها. وبعد سنة ١٩٣٢ صدرت جنوب أفريقيا من منتجات الألبان أكثر بكثير مما استوردت ويرجع هذا في جانب منه إلى أن الإنتاج المحلّي قد ازداد زيادة كبيرة لمواجهة متطلبات زيادة أسعار الجبن والزبد. وقد اتبعت نفس السياسة المتمثلة في دفع مبالغ أكثر للمنتجات المحلية نتيجة

(*) الرطل الانجليزي حوالي ٤٥٣ جراماً. (المترجم)



خريطة اقتصادية لجنوب افريقيا تظهر المعادن الرئيسية وشبكة الخطوط الحديدية

زيادة عدد الفدادين المنزرعة ذرة وزيادة تصديرها لحاجة السوق العالمي لها. وفي نهاية الثلاثينات من القرن العشرين ارتفعت الصادرات من الذرة ١٦ مرَّة عما كان عليه الحال سنة ١٩٢٧. وفي سنة ١٩٣٠ تم الإشراف على القمح أيضاً، وتحققت نتائج مشابهة لما تحقق بالنسبة للذرة، فقد زادت المساحة المزروعة قمحاً وزاد الإنتاج وزاد التصدير وقل الإستيراد . ففي الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٢ زادت المساحة المزروعة قمحاً بالنسب التالية: ١,٠ ٪ في الناتال و٨,٧ ٪ في الترنسفال و٢٤,٦ ٪ في دولة الأورانج الحرة وحوالي ٦٦,٦ ٪ في ولاية الكاب. وعلى أية حال ـ وكما كان الوضع بالنسبة للسكر ـ فقد أدت هذه السياسة إلى فائض ضخم ومكلِّف مما كان له تأثير على الاقتصاد. وفي سنة ١٩٣٧ صدر قانون التسويق Marketing Act لتثبيت الأسعار وموازنتها وتضييق الفجوة بين المداخيل الزراعية ومداخيل أهل المدن، وامتد الدعم المالي ليشمل الصادرات من الصوف والموهير والفاكهة ونباتات النسيج. وفي وقت يرجع إلى سنة ١٩٣٣ أنشأت الحكومة جهازاً للحوم Meat Board للسيطرة على بيع الماشية وتحديد أسعارها. وقد امتدت الجهود الرسمية لحماية وتطوير الصناعات الزراعية، لتغطي أيضاً جهود الحفاظ على التربة، إذ تم اعتماد قانون المحافظة على التربة سنة ١٩٤٦ Soil Conservation Act، لوقف تجريف التربة مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج الزراعي.

متطلبات الحرب:

خلال الفترة التي أدت إلى الحرب العالمية الثانية تم إنشاء عدد كبير من المصانع لإنتاج المعدات العسكرية وملابس الجنود والتموينات والأعلاف، ورغم أن هذه المصانع كان عليها أن تتحول للإنتاج المدني بعد الحرب إلا أن أهميتها ظلت قائمة باعتبارها مجالاً للتوظيف بالإضافة لما تنتجه فعلاً من بضائع ومنتجات جديدة. وبين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٢ أنفقت جنوب أفريقيا وحدها ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني على الإمدادات العسكرية، أنتج معظمها محلياً، وكلما تطور الاقتصاد، بدأ مزيد من رأس المال المخصص للتنمية يأتي من الخارج.

اكتشاف حقول ذهب جديدة وحقول معادن أخرى:

أحد البواعث الفردية، ذات الأهمية القصوى لإنعاش اقتصاد جنوب أفريقيا يكمن في اكتشاف حقول ذهب جديدة وغنية. وقد امتد هذا من وتووترسراند في الترنسفال إلى دولة الأورانج الحرَّة. وفي نفس الوقت تم افتتاح مناجم فحم جديدة. وقد أحدث هذا تأثيراً سريعاً وطيباً في اقتصاد جنوب إفريقيا. فظهرت مدن جديدة في مناطق الاكتشافات المعدنية، وظهرت فرص تسويقية جديدة، وانتعشت حركة البناء لسد حاجات المجتمعات الحضرية الجديدة. وأكثر من هذا فكلما زاد زخم العمليات التصنيعية، زادت الحاجة للصلب ومواد الإنشاءات والبناء، فعلى سبيل المثال، نتيجة للحاجة المتزايدة للصلب لسد متطلبات الصناعة، وجدنا إن إنتاج الصلب يزيد بمقدار ثلاث مرات.

وشهدت هذه الفترة أيضاً زيادة في استثمار معادن كانت تعد - فيما مضى - قليلة القيمة، مثل اليورانيوم، وبالإضافة لهذا كانت هناك خطط لبناء صناعات كبرى لاستخلاص الزيت من الفحم. وكل هذا يعتبر جزءاً من نفس الموضوع، أنه استعادة اقتصاد جنوب أفريقيا لقوته وتوسعه معتمداً على الصناعة واستخدام تقنيَّات جديدة.

نمو المدن وزيادة المراكز الحضرية وتوسعها: Towns and urbanization

كما ذكرنا لتوِّنا، كان اكتشاف المعادن خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، هو السبب الرئيسي للتطوّر السريع الذي حاق بالتصنيع في جنوب أفريقيا. كما أن التعدين والتصنيع كان مسؤولاً بدوره عن نمو المراكز السكانية الجديدة مثل كمبرلي وجوهانسبرج. فقبل سنة ١٨٧٠ كانت جنوب أفريقيا منطقة زراعية في المقام الأول إذ كان معظم السكان يعيشون في المناطق الريفية، فرغم وجود المدن إلا أنها كانت إما مراكز إدارية مثل بريتوريا وبيترمارتسبرج وبلومفونتين أو موانىء ومراكز تجارية مثل دربان وبورت اليزابث ومدينة الكاب.

وبزيادة التصنيع في نهاية القرن التاسع عشر هاجر مزيد من البشر إلى المدن وتضخمت المراكز الحَضرية. فقد كانت المدن مليئة بالفرص الجذابة، كفرص التوظيف والحصول على أجور مرتفعة وفرص تجميع الأموال بالعمل في مجال الصناعات التعدينية. وعلى أية حال، ففي البداية، كان الأفريكانر بطيئين متلكئين في استثمار هذه الفرص الجديدة وكانوا يفضلون العيش في هدوء في المناطق الريفية بالطرائق التي ألفوها، فقد كانوا ينظرون للمدن كمأوى للغرباء حيث كانت المدن تغص بالقادمين من الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا وألمانيا واستراليا. وعلى أية حال، فمع بداية القرن العشرين، انتقل عدد كبير من الأفريكانر إلى المدن حيث بلغ عددهم فيها ١٠,٠٠٠، وارتفع هذا الرقم ارتفاعاً حاداً ليصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ في سنة ١٩٥٩ وهو تطور ملحوظ في ٦٠ سنة فقط. وفي سنة ١٩٦٠ كان الأفريكانر يشكلون ٥١ ٪ من إجمالي عدد السكان البيض في المراكز الحضرية بينما كانوا لا يشكلون إلا ٤٤ ٪ في سنة ١٩٣٦ . لقد بلغ التحضر Urbanization ذروته في الفترة من العقد الأخير من القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩٦٠، وكانت عملية التحضر هذه تشمل البيض والسود. وفي الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩١، على سبيل المثال، كان ٣٥٨ ٪ فقط من سكان جنوب أفريقيا البيض يعيشون في مدن، بينما في سنة ١٩٠٤ كانت النسبة ٥٣ ٪ وفي سنة ١٩٦٠ كانت النسبة ٨٣,٦ ٪ ، أما بالنسبة للأفريقيين فكان ١٣ ٪ من بين إجمالي السكان يعيشون في المدن سنة ١٩٠٤ بالمقارنة بنسبة ٢٧,٢ ٪ سنة ١٩٥١ و٣١,٨ ٪ في ١٩٦٠. وكان الملونون ـ على عكس الأفريقيين ـ قد وصلوا إلى المراكز الحضرية وتمركزوا فيها في وقت مبكر.

ففي سنة ١٩١١، كان حوالي ٤٦ ٪ من الأفريقيين والملونين في المراكز الحضرية، وفي سنة ١٩٦٠ كان حوالي ٦٨,٣ ٪ من السكان الملونين و٨٣,٢ ٪ من السكان الآسيويين يعيشون في المدن، وذلك وفقاً للمعلومات المتاحة.

وكما ذكرنا لتونا، كان نمو المدن الكبيرة، له آثار ونتائج بعيدة المدى، فقد

أثرت عمليات التحضر في القيم الاجتماعية والترابط الأسري. وعموماً فقد كان المهاجرون إلى المدن، يرحلون كأسر أكثر من رحيلهم كأفراد، وعلى هذا فقد استطاع الملونون والهنود أن يحافظوا على ترابط أسرهم في مستقراتهم الجديدة. وعلى أية حال، فإن الأفريقيين كانوا أكثر تأثراً بالهجرة للمدن، فأسلوبهم في الحياة الذي ألفوه في المناطق الريفية، قد تغير بل وتحطم بسبب التحضُّر أو المعيشة في المدن، فقد كان الأفريقيون ينتقلون إلى المدن بدون زوجاتهم، وهذا يؤدي إلى انفصال الأسرة بشكل مؤقت مما أدى إلى إضعاف الترابط الأسري إلى حدٍ كبير. فقد عجل انتقال أفراد الأسرة وتباعد الأقارب وانتشارهم في المدن بحثاً عن الوظائف، بضعف سلطة الآباء تدريجياً، تلك السلطة التي كانت تجمع أفراد الأسرة في المناطق الريفية. وأكثر من هذا، فنظراً لنقص الأفريقيين المتكيفين مع الحياة الحضرية فإنه لا يمكنهم العيش في وحدات أسرية في المدن على نحو ما كانوا يفعلون في الريف. لذا فقد كان من الضروري أن يعيش الشباب بمعزلٍ عن آبائهم وأقاربهم، خاصة بعد الزواج. وأخيراً فقد قامت مجتمعات قامت على أساس مصالح العمل وهي غير المجتمعات المعتمدة على صلات القربى والروابط الأسرية.

ونظراً لتشابك العوامل وتعقدها، كنقص التكيف مع الحياة في المدن، وتكاليف المعيشة المرتفعة، وجدنا الأفريقيين الذين يعيشون في المدن يكتفون بزوجة واحدة، بدلاً من تعدد الزوجات وهو أمر يألفه الأفريقيون في المناطق الريفية. وأكثر من هذا، فقد أصبح الزواج بشكل متزايد مسألة خاصة بين اثنين (رجل وامرأة) وتم التخلي عن الممارسات والتقاليد القديمة (كقواعد الزواج من خارج القبيلة exogamy) وفي نفس الوقت أصبحت المرأة الأفريقية في المدن ذات مكانة عالية وحظيت بقدرٍ من الاستقلال لأنها غدت عاملة وموظفة وأصبح لها دخلها الخاص بها.

إنه ليقال أن تمزق المجتمع على نطاق واسع، وتفسخه، قد أثر تأثيرات سيئة على الأفريقيين في المدن، فعلى سبيل المثال، وجدنا أن طول البعد بين

الزوج وزوجته قد أدى إلى تمزق كثير من حالات الزواج الشرعية، وفي نفس الوقت أدى إلى علاقات جنسية غير شرعية في المدن خاصة. وأدى هـذا الأسلوب الجـديد للحيـاة في المـدن إلى ظهـور العـاهـرات المتخصصـات Prostitution وأكثر من هذا، فكما سنطالع في الفصل الثاني عشر، كان الأفريقيون عرضة لقيود قاسية في مختلف المجالات الوظيفية والدخول المالية، وأماكن الإقامـة والملكية الشخصيـة والحقوق السيـاسية، فغـالبية السكـان الأفريقيين في المناطق الحضرية يعيشون في أماكن مزدحمة وفقيرة وقذرة، مما أثر على أخلاقياتهم وقيمهم، فاندرج عدد كبير منهم في سلك الجريمة كالسرقة، وبيع الخمور غير المصرح بها، كوسيلة للتعيُّش.

ومن جوانب أخرى، كان تأثير التصنيع والتحضُّر ثورياً وكبيراً بنفس القدر، فقد أحدث تغييرات راديكالية في القيم الاجتماعية للأفريقيين في المدن. ففيما سبق كانت الماشية هي مقياس الثروة، وكان عدد الرؤوس التي يمتلكها الشخص هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي. وفي المجتمعات التقليدية كان الرجل الثري يستحوذ على زوجات كثيرات، ويمتلىء بيته بالأطفال والطعام والشراب، كما كانت الأرض أكثر أشكال الثروة أهمية لأنها تحقق الأمان كمورد للطعام. وقد تغيرت كل هذه المقاييس تغييراً أساسياً بسبب التصنيع والتحضر، فحلَّت النقود محل الماشية كأهم شكل من أشكال الثروة كما أصبحت النقود هي وسيلة البيع والشراء بدلاً من المقايضة. ومن هنا ظهرت طبقة جديدة من الأثرياء ولكن بدون اطمئنان كامل. كما أصبح وضع الشخص الاجتماعي يقدر الآن بمقدار التعليم الذي حصَّله والوظيفة التي يشغلها ودخله المالي ونوع المنزل الذي يقطنه، وأصبح الأثرياء ـ ولا زال ذلك صحيحاً ـ يتميزون بنوع لباسهم وعاداتهم في الطعام ونوع السيارات التي يقودونها. وأصبح المعلمون ورجال الأعمال وقُسس الكنائس والأطباء أكثر فئات المجتمع احتراماً وتأثيراً.

توزيع الثروة:

ماذا تعني الثروة الجديدة، وكيف كان نصيب كل جنس من الأجناس من

هذه الثروة؟ لقد لاحظنا أن الأفريقيين كانوا يشغلون دائماً مكاناً متدنياً ولا يحوزون من اقتصاد جنوب أفريقيا إلا القليل. فقد كان يُعهد إليهم بالأعمال الشاقة التي لا تتطلب مهارة رغم أن الوضع كان مختلفاً بين الأفريقيين أنفسهم في مناطقهم (مستقراتهم القبلية) فقد كانوا يرفضون أية فرصة للقفز على السلم الاجتماعي (تجاوزه) وأكثر من هذا فقد كانوا يتعصبون ضد الصناعات والوظائف وقطاع الأعمال، وبالتالي فقد كانت أجورهم متدنية إذا ما قورنت بتلك التي يتقاضاها منافسوهم البيض وفي ظل هذه الظروف فإن نصيب الأفريقيين في ثروة المنطقة يبدو قليلاً، رغم حقيقة أن الأفريقيين يكونون حوالي ٢/٣ العمالة في المنطقة، وبتعبير آخر، رغم أن العمالة الأفريقية تمثل العمود الفقري لاقتصاد المنطقة فإن نصيب الأفريقيين من الثروة الناتجة ضئيل للغاية، وهنا يكمن التناقض، فالأفريقيون أدنى الفئات أجوراً في المنطقة فإجمالي أجورهم أقل من خمس إجمالي أجور البيض. فعلى سبيل المثال نجد أنه في ١٩٤٦/١٩٤٧ كان الأجر السنوي للأوروبي قد بلغ ٤٠٥,٧ جنيه استرليني وأجر الآسيوي والملوّن قد بلغ ١٦٧,٣ جنيه استرليني بينما كان إجمالي أجر الأفريقي مجرد ١٠٠,٢ جنيه استرليني. وبعد وصول الحزب الوطني للحكم The Nationaist Party سنة ١٩٤٨ اتخذ إجراءات قاسية وحاسمة لدعم الوضع المُمَيَّز للسكان البيض مما جعل أوضاع السود أكثر سوءاً. وفي سنة ١٩٦٠/١٩٦١ رغم الارتفاع الملحوظ في دخول الأوروبيين، ظلَّت أجور الأفريقيين متدنية جداً. ففي هذا الوقت كان الدخل السنوي للأوروبي، حوالي ١٠٠٠ جنيه بينما وقف دخل الأفريقي عند ١٨٥ جنيه استرليني، أما الآسيوي، والملون فقد وقف الدخل السنوي له عند حوالي ٢٩٥ جنيه استرليني. لقد تضاعفت دخول الأوروبيين وزادت عن الضعف خلال ١٤ عاماً، بينما ظلت أوضاع غير الأوروبيين غير مرضية عموماً رغم وجود بعض التحسينات.

فرغم النمو الاقتصادي الكبير خلال القرن العشرين بالذات، إلا أن التفاوت الكبير في الدخول بين أفراد الأجناس المختلفة، كان واضحاً، ففي

سنة ١٩٦٠، على سبيل المثال، كان إجمالي الدخل القومي يزيد على ٢,١٣٥ مليون جنيه استرليني. وكان الدخل السنوي لكل فرد من السكان حوالي ١٣٣ جنيه استرليني. فليس من عجب إذن أن تكون جنوب أفريقيا من بين أغنى الدول وأفقرها في العالم. فثروة المنطقة مركزة في أيدي نسبة صغيرة من السكان وهي الفئة المصممّة على الاحتفاظ بالسلطة في أيديها. تلك هي مشكلة جنوب أفريقيا الكبرى. وسيظل الوضع المشكلة بعيداً عن الحل إذا لم يتعرض البناء السياسي في جنوب أفريقيا لتغييرات راديكالية ليبرالية.

الفصل الحادي عشر

التطورات السياسية حتى سنة ١٩٦١

في الفصل التاسع، رأينا كيف أن سكان جنوب أفريقيا، قد نجحوا أخيراً في توحيد المنطقة تحت حكومة واحدة، وذلك بتأييد من الحكومة البريطانية، فظهرت حكومة جنوب أفريقيا. وقد كان ميلاد الأمة الجديدة مصحوباً بعدد من القضايا المهمَّة. ولم يكن هذا أمراً متوقعاً فحسب، وإنما كانت هذه المشاكل والقضايا تمثل نفس الحكاية في ميلاد أية أمة جديدة. ومن ناحية أخرى كانت مشاكل جنوب أفريقيا ذات طابع خاص مما يجعلنا نحاول الإجابة عن مثل هذا السؤال:

كيف ستمارس هذه الأمة الجديدة عملها وما هي مشاكلها أو قضاياها الخاصة؟

ومن الناحية الواقعية، كانت المشاكل التي واجهها جنوب أفريقيا بعد التوحيد هي نفسها التي كانت موجودة في المنطقة منذ البدايات الأولى لاستقرار الأوروبيين. إنها مشاكل صراع الثقافات، ومشاكل الوطنية، ومشاكل العلاقات بين العناصر المختلفة، وقضية حقوق الأفارقة وغيرهم من الملونين. وسنناقش المشكلتين الأخيرتين في الفصل الثاني عشر.

صراع الثقافات:

كانت مشاكل الثقافة (الحضارة)، مشاكل فائقة الأهمية ليس بعد التوحيد السياسي فحسب وإنما قبله أيضاً. حقيقة، لم يكن مرغوباً فيه على نحو ما بالنسبة للأفريكانر في جنوب أفريقيا ـ الذين اصطدموا مع السلطات البريطانية

في أوقات مختلفة ـ أن يحتفظوا بثقافتهم، وأن يتجنبوا الأخذ بالثقافة الانجليزية Anglicization. لكن مسألة الثقافة لم تكن قضية يمكن عزلها أو تناولها بشكل منفصل عن بقية الظواهر الأخرى. فلكي يحتفظ الأفريكانر بثقافتهم كان لا بد لهم من هيمنة سياسية فعَّالة، فمسألة ثقافة الأفريكانر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوطنية البويرية Boer Nationalism. وعلى النقيض من هذا، فإن الثقافة والمؤسسات البريطانية كان ينظر لها كثقافة غريبة ونظام حكم غريب. وكلاهما الثقافة ونظام الحكم كانا مكروهين من غالبية البوير العظمى.

ولسوء حظ البوير، كان البريطانيون قد سيطروا على كثير من أوجه الحياة، في سنة ١٩١٠، وهي سنة التوحيد Unification.

ومن الناحية العملية لم يكن ثمة مساواة رغم إدراج هذا المبدأ في دستور الأمة الجديدة. فانطلاقاً من حقيقة أن الانجليز كانت لهم السيطرة السياسية على الإقليم لسنوات عديدة، فقد احتفظوا لأنفسهم بالوظائف العليا في مضمار الخدمة المدنية والحكومة المحلية والسكك الحديدية، ولم يكونوا حتى يتحدثون أو يفهمون لغة الزرَّاع البوير Africaans، تلك اللغة التي أحبها وتحدث بها البوير في جنوب أفريقيا، بل لقد ازدرى الانجليز هذه اللغة واحتقروها باعتبارها لغة غير ذات شأن. فلم يساعدوا البوير على نشر هذه اللغة قولاً وفهماً، وذلك عكس تصرفهم أزاء الانجليزية إذ شجعوها لغة وثقافة.

وينطبق نفس القول على ثقافة الأفريكانر التي كانت لا تزال في دور التكوين، وعلى هذا، فكما أشرنا لتونا، يمكن القول إن القضايا الثقافية والسياسية، قضايا متداخلة لا يمكن تناول بعضها بمعزل عن بعضها الآخر. فالمسألة الثقافية، من حيث الوضع المميَّز للانجليزية في مواجهة اللغات الأفريقية وآداب الأفريكانر قد أصبحت مصدراً هاماً من مصادر الاحتكاك والنزاع.

فقومية (وطنية) الأفريكانر (*)، كان لها اليد العليا وكانت السبب

(*) Afrikaner Nationalism.

الأساسي لبغض كل ما عداها: البريطانيون، والامبراطورية والتراث، كل على حدٍ سواء.

وقد وجدت هذه العواطف أنصاراً كان أبرزهم جيمس باري ميونك هيرتسوج James Barry Munnik Hertzog وهو وطني راديكالي من البوير، وكان عضواً في الحكومة وخاض ـ كجنرال ـ الحرب التي دارت بين الانجليز والبوير ـ Anglo Boer war ـ لقد كان نهج تفكير هيرتسوج هو الرفع من شأن ثقافة الأفريكانر وآدابهم ولغتهم، لتكون جميعاً في قمة التفوق والسيادة. ووفقاً لرأي هيرتسوج، فإن جنوب أفريقيا يجب أن يحكمها الأفريكانر (أو البيض الناطقون بالأفريكان) أي البوير، وكان هيرتسوج ضد أي شكل من أشكال التعاون مع البريطانيين.

ورغم أن بوثا Botha وسمّت Smuts لم يؤيد حماسة البوير المبالغ فيها، فقد كان البوير في جنوب أفريقيا بشكل عام متفقين مع هيرتسوج ومؤيدين له. ولتحسين لغة الأفريكان وثقافة الأفريكانر، قام البوير بإجراءات ثلاثة هامة. أولها، أنهم قاموا بتشجيع استخدام لغة الأفريكان في المدارس تشجيعاً فائقاً قوياً. ثانيها، أنهم أسسوا مدارس كنسية خاصة بهم ليلتحق بها أطفالهم لتجنب صبغ ثقافة أطفالهم بالانجليزية إذا ما التحقوا بالمدارس الحكومية، وهذا الإجراء مرتبط بالإجراء الأول. ثالثها، أنهم بذلوا جهوداً مضنية للارتقاء بالثقافة والآداب بلغة الأفريكانر، فعلى سبيل المثال، قاموا بتشجيع النشر بهذه اللغة وقراءة آدابها، واقترن كل هذا بطبيعة الحال بعدم تشجيع الآداب الانجليزية والحد من انتشارها.

الصراعات السياسية والتنظيمات:

وكانت السياسة إحدى المجالات الهامة التي صارعت الأمم الجديدة في مضمارها صراعاً مريراً لا يتسم بالاتساق Disharmony فكما لاحظنا لتونا كان البوير يسيطرون على الحكومة، وكان البوير أنفسهم منقسمين سياسياً إلى فئتين كبيرتين: المعتدلون ويقودهم رئيس الوزراء لويس بوثا Botha ورفيقه جان

كريستيان سمت Jan christian Smuts، وفئة الراديكاليين الوطنيين radical nationalists والذين قادهم لبعض الوقت هيرتسوج Hertzog.

الحزب الوطني بزعامة هيرتسوج The Nationalist Party:

في ديسمبر سنة ١٩١٢ تم طرد هيرتسوج من الحكومة بسبب صراعه مع بوثا وسمَتْ، لكن طرده كان بداية النهاية لحزب بوثا الحاكم Botha,s South African Party Government. فقد لقي الحزب الوطني، وهو الحزب الجديد الذي تم تشكيله سنة ١٩١٣ والذي كان يقوده هيرتسوج، والذي رفع شعاره الشهير «جنوب أفريقيا أولاً» دعماً وتأييداً هائلاً من البوير. فقد كان البوير ينتقدون دخول الحكومة الحرب العالمية الأولى لأن بريطانيا في رأيهم لم تقدم لهم أية مساعدة كما أن الحرب لن تحسن من أوضاعهم ولن تخدم مصالحهم. كما كانوا متعاطفين مع أوضاعهم الجمهورية السابقة ومتعاطفين مع الاستقلال التام لجنوب أفريقيا بل وكانوا يستعدون لخوض حرب استقلالية لإعادة جمهوريات البوير السابقة، إذا ما رفضت بريطانيا منح جنوب أفريقيا كله استقلاله. ولقد أصبح الحزب الوطني الراديكالي The Radical Nationalist Party ذا شعبية كبيرة بين الناخبين، لدرجه أنه في انتخابات سنة ١٩٢٠ لم يفقد إلاّ مقاعد قليلة أمام حزب جنوب أفريقيا The South African Party الذي اندمج (ائتلف) مع الحزب الوحدوي الانجليزي English Unionist Party. ورغم أن البوير ظلوا في زمام الهيمنة السياسية إلاّ أن الوضع كان مائعاً غير محدد، كما بقيت الاضطرابات وعدم الوضوح تسود سياسات جنوب أفريقيا. وبعد انتخابات سنة ١٩٢٤ التي فاز فيها حزب هرتسوج، الحزب الوطني، تكونت الحكومة الائتلافية بالائتلاف مع حزب العمل البريطاني لجنوب أفريقيا South African British Labour Party وهو حزب صغير. لقد أصبح هرتسوج الآن مكتفياً وقانعاً بهيمنته الفعلية (*)، وسيطرته القائمة فعلاً على منطقته، أما وضعه

(*) نتيجة مؤتمر ١٩٢٦ Imperial Conference و ١٩٣٠ عدَّل هرتسوج من آرائه السياسية في الوضع

السابق كراديكالي فقد شغله الدكتور دانيل مالان Daniel Malan، الذي راح ينافح عن الجمهورية والاستقلال التام Rupublicanism and Complete Independence.

الحزب المتحد The United Party.

وحزب الدومنيون Dominion Party:

شهد عام ١٩٣٣ تكوين حزب جديد وقوي هو الحزب المتحد الذي كان تحالفاً أو ائتلافاً بين حزب جنوب أفريقيا (حزب سمت) Smut,s South African Party، والحزب الوطني (حزب هرتسوج)، Hertzog,s Nationalist Party، وكان هرتسوج هو زعيم هذا الحزب الجديد. وسرعان ما ظهر للوجود حزبان جديدان، فقد أسس مالان Malan حزباً راديكالياً هو حزب الوطنيين الخلَّص Purified Nationalists وكرَّس هذا الحزب نفسه للدعوة للجمهورية، كما أسَّس جماعة من الانجليز الراديكاليين حزب الدومنيون Dominion Party لأنهم شعروا أن حليفهم سمت Smuts قد شرع في انتهاج سياسة بويرية Too close to extreme Boer policy.

وفي سنة ١٩٣٣، كان هناك ثلاثة أحزاب سياسية كبرى، كان أقواها هو الحزب المتحد United Party. وفي سنة ١٩٥١ (أي بعد مرور ثلاث سنوات على انتخابات ١٩٤٨ التي فازت بها الأحزاب الوطنية Nationalists والأفريكانر Afrikaner) ثم تأسيس حزب وطني موسَّع جديد enlarged National Party ضاماً بين جناحيه معظم أحزاب الأفريكانر، وحزب الناطقين بالأفريكانية الخالصة a purely Africaans - Speaking Party. ولا زال هذا الحزب في السلطة بجنوب أفريقيا (*)، بينما يتولى المعارضـة الحزب المتحـد. وسوف

الجمهوري للمنطقة. وهذه المؤتمرات قد ساعدت على إيجاد أوضاع الدومنيون Dominion states في الامبراطورية البريطانية. وهذا الوضع الدوميني قد منح جنوب أفريقيا استقلالاً كاملاً، كما حدث نفس الشيء في المناطق الأخرى المماثلة بالامبراطورية البريطانية. وقد أدى هذا إلى إضعاف حجج المطالبين بالجمهورية، وعلى هذا غير هيرتسوج من آرائه.

(*) نشر الكتاب بطبعته الانجليزية سنة ١٩٧٤.

نتفحّص بإيجاز سياسات الأحزاب الرئيسية، وذلك لنؤكد على وجود أرضية مشتركة بينها فيما يتعلق بالقضايا الحاسمة ذات الصلة بالعلاقات بين الأجناس، رغم وجود بعض الاختلافات بينها. فاتجاهاتها ومواقفها ازاء سياسة التفرقة العنصرية، وتطبيقاتها (والعزل العنصري، وسياسة التنمية المنفصلة) اتجاهات ومواقف واحدة في الأساس. وقد تناولنا في الفصل الثاني عشر الإجراءات القانونية والتشريعية ومضامينها المتعلقة بالتفرقة العنصرية. أما في هذا الصدد فإننا سنركز على مواقف الأحزاب المختلفة من العنصرية racialism.

وفي البداية سنتناول ما يتعلق بالحزب الوطني الحاكم الذي تولى السلطة سنة ١٩٤٨، إذ تولى الدكتور مالان Malan كرئيس للوزراء. وقد حدد موقف حزبه من مسألة التفرقة العنصرية قائلاً:

«إذا استطعنا تحقيق فصل كامل وتام بين الأجناس فإن الجميع سيحسون أننا أخرجنا للوجود دولة مثالية. لكن هذا لا يمثل سياسة حزبي. . وعندما سئلت في المجلس في الدورات الماضية عما إذا كان هذا هو ما أهدف إليه. . أجبت بوضوح مُقرراً أن الفصل أو العزل الكامل يعتبر غير عملي في الظروف الراهنة بجنوب أفريقيا، ذلك لأن بناءنا الاقتصادي كله يعتمد إلى حدٍ كبير على العمالة الوطنية» (*) ولقد أيدت حكومة الحزب الوطني بقيادة الدكتور مالان وخلفائه بقوّة سياسة التفرقة العنصرية بقسوة وصرامة لم يسبق لهما مثيل. لقد كانت الحكومة تعمل على جعل جنوب أفريقيا مستعمرة للبيض (جعلها بيضاء) بالحفاظ على الوضع المميَّز للسكان البيض، وبتجميد أوضاع الأفريقيين المتدنية (أي أوضاع البانتو، وهو الاسم الذي كان البيض يطلقونه على السكان الأفريقيين في جنوب أفريقيا) ولم يكن ليتأتى هذا إلا بفصل السود عن البيض، وبقصر المناصب العليا والأعمال التي تتطلب مهارة خاصة على البيض.

(*) Quoted in J. A. Davis and J.K. Baker (eds.) Southern Africa in Transition , Frederick A. Praeger, New York, 1966.PP.21 — 22.

أما الحزب المتحد United Party الذي هُزم في انتخابات ١٩٤٨ فقد كان يؤيد أيضاً سياسة الهيمنة البيضاء (سياسة سيطرة البيض على مقدرات الأمور) لكن اتجاهه إزاء ذلك كان غامضاً، لهذا أعرض عنه وانسحب منه كثيرون من مؤيديه. وحتى بعد انتخابات سنة ١٩٥٣ التي هزم فيها لم يُحرز الحزب المتحد تقدماً ولم يحسِّن سياسته الغامضة فيما يتعلق بأوضاع السود في جنوب أفريقيا. وفي سنة ١٩٥٤ تبنى سياسة جديدة مؤداها التكامل العرقي والتعاون في النطاق الاقتصادي، وفي نفس الوقت أكدت هذه السياسة على تفوق وهيمنة البيض وضرورة استمرار ذلك كما أكدت هذه السياسة على ضرورة العزل بين السود والبيض في مجال الأنشطة الاجتماعية، وطالبت بضرورة إيجاد مستوطنات منفصلة للأجناس المختلفة في جنوب أفريقيا. وعلى هذا فقد كانت سياسة هذا الحزب إزاء التفرقة العنصرية مائعة equivocal لهذا فإنها قد رفضت ولم تلق قبولاً.

لقد كان الحزب يهدف إلى سيطرة البيض الدائمة وقيادتهم لجنوب أفريقيا، ولكنه طالب بقدرٍ من العدالة لغير البيض، وفيما يتعلق بحق العمل باعتباره قضية هامة، كانت سياسة الحزب في تعاطفها مع السكان البيض، وفي سنة ١٩٥٧ كان زعيم الحزب وهو السير دي فلير جراف De Villiers Graaff، «يتحدث عن الحاجة إلى حماية العمال البيض ضد المنافسة غير المتكافئة التي يواجهونها من العمال غير البيض. والحزب في هذا لا يختلف في سياسته عن سياسة الحزب الحاكم (الحزب الوطني Nationalist) ورغم هذا فقد خسر الحزب المتحد The United Party الانتخابات مرَّة أخرى سنة ١٩٥٨.

وفيما يتعلّق بالبانتوستان (مناطق منفصلة«منعزلة» للأفريقيين تسيِّر بعض أمورها ذاتياً Semi - autonomous)، وهي الفكرة التي قدمها الدكتور ver-woerd (الحزب الوطني Nationalist الحاكم) فقد كان لها معارضون تصدوا لها بشكل غير واضح، كما كانت الفكرة ذاتها (البانتوستان) غير واضحة، لقد كانت معارضة الفكرة على أساس أن الأفريقيين يجب أن يظلُّوا ممثلين في

البرلمان، وأن ممثليهم يجب أن يكونوا من البيض، كما كان الوضع قبل ذلك. وقد اقترح الزعيم المعارض De villiers Graaf أن يُلغي تمثيل السود في البرلمان في حالة ما إذا قامت البانتوستـان (أو الدول السـوداء «المخصصة للسـود» الجديدة، واستقلت، ولهذا قبل حزبه مبدأ البانتوستان والعزل العنصري. وعلى هذا فقد كان الحزبان متفقان في الهدف وإن اختلفوا في الوسائل.

الحزب التقدمي والحزب الليبرالي:

The Progressive Party and the liberal Party وثمة حزبان آخران يستحقان اهتماماً خاصاً، فقد كانا ـ على عكس الأحزاب الأخرى ـ حزبان معارضان للعنصرية anti - racialist ويتسمان بالاعتدال. لقد أيدا حقوق الإنسان الأساسية وامتعضا ووجها النقد للتفرقة العنصرية والعزل العنصري. لقد طالب الحزبان بحق الانتخاب وسائر الحقوق الدستورية لكل المواطنين المؤهلين لذلك بصرف النظر عن جِنْسهم. ولسوء الحظ فإنه لا الحزب الليبرالي (الذي أسس سنة ١٩٥٣) ولا الحزب التقدمي (الذي أسس سنة ١٩٥٩) حاز على تأييد الناخبين البيض.

الموقف من الحرب العالمية الثانية:

لقد أيد حزب Botha، حزب جنوب أفريقيا الحاكم، بكـل قواه، بريطانيا، في الحرب العالمية الأولى. ففي سنة ١٩١٥ انتصرت قوات جنوب أفريقيا على القوات الألمانية في جنوب غرب أفريقيا وبعد ذلك بأربعة أعوام خوَّلت معاهدة فرساي Versailles جنوب أفريقيا في إدارة جنوب غرب أفريقيا كمنطقة تحت الانتداب باسم عصبة الأمم. لقد أراد بوثا أن تساهم جنوب أفريقيا في الحرب حتى تمام النصر، ولكن طول مدَّة الحرب كلف بوثا وحكومته الشيء الكثير. وقد أدى هذا إلى تدني شعبيته باعتباره مؤيداً لبريطانيا، كما أن الحزب الوطني الذي لم يكف عن توجيه النقد للحكومة بسبب موقفها من الحرب، كان قادراً على تدعيم موقفه. وفي نفس الوقت، عادت الحركات الجمهـورية republicanism لتـطل برأسهـا بفاعليـة وكان الحـزب الوطني

يؤيدها (ويرجع هذا على نحو ما إلى رد الفعل إزاء بريطانيا). لقد كان اندراج الحكومة في الحرب العالمية الأولى، أمراً لَمْ يَرْضَ عنه أناس كثيرون إذ كانوا يفضلون الحياد أو الوقوف إلى جانب ألمانيا. وفي سنة ١٩١٤ كان الجنرال سمت Smuts مضطراً لقمع تمرد بين قواته قادة الجنرال دي ويت De wet الذي كان متعاطفاً مع ألمانيا. لقد اندرج في سلك الحرب العالمية الأولى ١٣٦,٠٠٠ أوروبي و ٧٠٠٠ أفريقي من جنوب أفريقيا. وكان بعض هؤلاء يحارب في انجلترا وبعضهم في شرق أفريقيا، وبعضهم في فرنسا، بالإضافة إلى جنوب غرب أفريقيا.

أما عن إسهام جنوب أفريقيا في الحرب العالمية الثانية فكان أكثر أهمية، فقد كان الأفريقيون الجنوبيون (بيضاً وسوداً يحاربون حيث تحارب بريطانيا. فقد اتخذ حوالي ٨٠,٠٠٠ أفريقي و ٤٥,٠٠٠ ملوّن من الكيب سبيلهم للحرب وكان سمت Smuts الذي قاد الحكومة الائتلافية منذ سنة ١٩٣٩ (حكومة الحزب المتحد United Party وحزب العمل وحزب الدومنيـون) مسؤولاً عن قرار دخول الحرب إلى حدٍ كبير. أما هيرتسوج Hertzog، زعيم الحزب المتحد فقد كان متعاطفاً مع مشاعر الأغلبية في جنوب أفريقيا، تلك المشاعر التي كانت تجنح إلى سياسة الحياد. وحتى بعض الأفريكانر كان متعاطفاً مع ألمانيا، وعلى هذا تدنت شعبية الحكومة، فانهارت ـ أي الحكومة ـ عند نهاية الحرب.

نحو الجمهورية:

في الأعوام التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد سنة ١٩٤٨ أصبح للجمهوريين republicanism اليد الطولى في جنوب أفريقيا، وفي كل مرحلة كان هذا مصحوباً بازدياد قومية الأفريكانر، ومن حيث المضمون كانت الجمهورية مرادفة لقومية الأفريكانر. لقد كان الاتجاه العام ينحو نحو الجمهورية التي يؤيدها الأفريكانر الذين انتهجوا سياسة فعَّالة، وكان الناطق بلسانهم، وهو

الحزب الوطني National Party يزداد قوَّة، كما زاد أعضاؤه في البرلمان سنة ١٩٥٣ ومرَّة أخرى سنة ١٩٥٨.

وفي سنة ١٩٦٠ كانت هناك خطوات محدَّدة نحو الجمهورية تتخذ سبيلها للتنفيذ. وفي ٥ اكتوبر من نفس العام جرى استفتاء في قضية دستورية هامة حول ما إذا كان يجب أن يحل رئيس للدولة محل الملكة، ولم يُسمح بالتصويت إلا للأوروبيين، وبأغلبية ضئيلة خوَّلت الحكومة لتغيير الدستور في أبريل ١٩٦١ وتم تعديل تشريع سنة ١٩٠٩. وحل الرئيس محل الملكة، كرئيس للدولة، على أن تكون مدَّة الرئاسة سبع سنوات. وكان يقوم على انتخابه باقتراع سري أعضاء المجلسين (Senate and The House of Assembly) في اجتماع مشترك.

وبعد هذا بشهر غدت جنوب أفريقيا جمهورية خارج نطاق الكمنولث. وكان قرار الانسحاب من الكمنولث متأثراً بالضغط المتزايد الذي كان يمارسه الأعضاء غير البيض في الكمنولث الذين لم يتوقفوا عن توجيه النقد لسياسة جنوب أفريقيا العنصرية. ولقد هدد أعضاء الكمنولث بالانسحاب منه إذا لم تغير جنوب أفريقيا سياستها العنصرية بينما كان الدكتور Verwoerd يصف السياسة العنصرية في جنوب أفريقيا بأنها سياسة ودية. مما حدا نهرو رئيس وزراء الهند إلى القول بأنه إذا كانت سياسة العزل العنصري تشكل في رأي الدكتور Verwoerd جواراً ودياً، فإنه لا يرغب في أن يكون جاراً للدكتور فيرورد. والنتيجة أن جنوب أفريقيا قد تخلت عن الكمنولث، ولكن ذلك لم يكن حلاً للمشكلة الأساسية على أية حال. فحتى اليوم لا زال التراشق بالكلمات قائماً، وسنعالج في الفصل الثاني عشر هذه القضية التي تعد أكبر مشكلة بالنسبة لجنوب أفريقيا.

الفصل الثاني عشر

التفرقة العنصرية والقومية الأفريقية

لقد رأينا، أنه منذ اللقاء الباكر بين الأوروبيين والأفريقيين، كيف تأثر تاريخ جنوب أفريقيا، بالاعتبارات والمصالح العنصرية. وهذه الاعتبارات والمصالح كان يحكمها ـ من جانب الأوروبيين ـ رغبتهم في الحفاظ على الذات، وخوفهم من أن يفقدوا سيطرتهم أمام التفوق العددي للأفريقيين.

ولنناقش ذلك بوضوح وبساطة، فإن مشكلة جنوب أفريقيا، ليست إلاّ صراع قوي لا أكثر ولا أقل. فمن ناحية، نجد الأوروبيين مصممين على تسلّم السلطة، والاستحواذ على السيطرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والحصول على كل المزايا. لقد لجأوا إلى كل أنواع السُبُل لتحقيق هذه الغاية. أما الأفريقيون وغيرهم من الملونين، من ناحية أخرى ـ فهم مصمّمون على الحصول على نفس الحقوق التي يتمتع بها الأوروبيون، ومعنى هذا تحطيم السيطرة الأوروبية. تلك هي المشكلة المحيِّرة، فكيف يتأتى حلها؟

وقد أطلق على مشكلة جنوب أفريقيا عدة مسميات منها التفرقة العنصرية، والعزل العنصري، والتنمية المنفصلة، والتمييز العنصري، وقد ذكر ماركرد(*) عن القوانين غير العادلة في جنوب أفريقيا: «أنه من المستحيل أن تقضي في جنوب أفريقيا حتى ولو بضعة أيام دون أن تتحقق من الفواصل

(*) L.Marquard, peoples and Policies of south Africa, Oxford University Press. London, 1962.

الموضوعة بين الأوروبيين وغير الأوروبيين. في محطات السكك الحديدية، وفي القطارات والحافلات وفي المطارات ومكاتب البريد وكل المؤسسات العامة، وفي البنوك والملاعب والبرامج التعليمية وعلى الشواطىء ، وفي المقابر، ففي كل الحالات هناك خدمات وتسهيلات منفصلة لكل من الأوروبيين وغير الأوروبيين على حدة. وتقرأ دائماً لافتات مثل (للبيض فقط) و(لغير البيض) وفي المطاعم والفنادق والمقاهي ودور السينما والمسارح، وضعت أيضاً نفس العوازل، وإن كان من غير الضروري تناول تأثير ذلك، فالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لجنوب أفريقيا مبنية على هذا الفَصْل.

لقد وجدت عقيدة التنمية المنفصلة أو التفرقة العنصرية في ظل الخوف. إنها ليست ببساطة مجرد رغبة الأوروبيين في الحفاظ على حضارتهم وإنما أكثر من هذا، فهم يخافون من أن يؤدي امتداد الحقوق السياسية والمزايا الاجتماعية والاقتصادية وتحقيق مبدأ مساواة غير البيض أي مبدأ المساواة والعدالة، إلى ضياع تفوقهم وهيمنتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقبل أن نستعرض بشكل عام الإجراءات التشريعية والقانونية الأساسية التي اعتمدتها وأجازتها حكومات جنوب أفريقيا المتعاقبة لتدعيم سيطرة الأوروبيين (البيض) وكتم أنفاس الأفريقيين وغير البيض، دعنا نرى الأسس التي تقوم عليها عقيدة التنمية المنفصلة أو العزل العنصري apartheid. هنا نجد من المناسب أن نقتبس اقتباساً مطوّلاً من نشرة الحزب الوطني الحاكم، والتي صدرت سنة ١٩٤٨ في موضوع العزل العنصري Segregation معناه ودوافعه:

«من ناحية، هناك سياسة المساواة التي تطالب بحقوق متساوية من خلال نفس الهيكل السياسي لكل الأشخاص المتحضرين والمتعلمين بصرف النظر عن جنسهم أو لونهم ومنح حق التصويت تدريجياً لغير الأوروبيين إذا أصبحوا مؤهلّين لممارسة الحقوق الديمقراطية ومن ناحية أخرى هناك سياسة الفصل التي تطورت من خلال خبرة السكان الأوروبيين الذين استقروا في المنطقة والتي تعتمد على مفاهيم مسيحية في العدالة والمنطق... إننا نستطيع أن نعمل في

اتجاه أو اتجاهين، فإما أنه يتحتم علينا أن نتبع برنامج المساواة الذي يعنى عاجلاً انتحاراً وطنياً للبيض وإما أن نتخذ برنامج العزل العنصري apartheid سبيلاً، ومن خلال هذا البرنامج يستطيع كل عنصر أن يحتفظ بشخصيته ويبني مستقبله في أمان وحماية، مع إتاحة كل الفرص للتنمية والاستمرار الذاتي، لكل عنصر، دون أن تتعارض مصالح جنس مع مصالح جنس آخر» (*).

ونظراً لأن عدداً كبيراً من البيض في جنوب أفريقيا، كانوا أنفسهم يرفضون العزل الكامل بمعنى تخصيصي أماكن بعينها للسود Complete Territorial separation لذا فقد كان العزل (الفصل) العنصري الكامل غير عملي. فمن ناحية، تعتمد جنوب أفريقيا على العمالة السوداء في الصناعة والزراعة والمناجم والمكاتب وفي منازل البيض. لذا فمن غير المُمْكن تحقيق العزل المكاني (الإقليمي) الكامل. ومن ناحية ثانية فإن الأراضي (المناطق) المخصصة لاستقرار الأفريقيين لا تشكل سوى ١٣٪ من إجمالي أراضي جمهورية جنوب أفريقيا وهي لا تفي بحاجتهم إذ وصل تعداد السود إلى ١٤,٧٠٠,٠٠٠ في مقابل ٣,٧٠٠,٠٠٠ أبيض و ٢,٠٠٠,٠٠٠ ملوَّن، و ٦٢٠,٤٣٦ آسيوي. فالأوروبيون يمتلكون ٨٧٪ من الأراضي تضم أفضل الأراضي الزراعية في المنطقة. فحشود السكان الأفريقيين لا يملكون إلاّ الزحف على المناطق الحضرية (المدن) والمناجم والمزارع الأوروبية، غير عابئين بما يترتب على ذلك من مشاكل قانونية. وأخيراً، فإن بيض جنوب أفريقيا، عندما يتحدثون عن التنمية المنفصلة فإنهم يعنون التنمية المنفصلة تحت سيادة الأوروبيين وتوجيههم. إن أي حديث عن إمكانية أن تكون جنوب أفريقيا ثروة مشاعة بين دولتين إحداهما للبيض، وأخرى للسود تحكم كل دولة منهما نفسها، مثل هذا الحديث غير واقعي ولم يُفهم جيداً، وهو حديث عديم المعنى، وسوف أتحدث عن هذا الموضوع أكثر فيما بعد، لكن دعنا أولاً نترك نظرية العزل العنصري لننظر في تطبيقاتها الفعلية خاصة بالنسبة للإجراءات والتشريعات المتعلقة

(*) عن: Lord Hailey, An African Survey, Oxford University Press, London.1957.

بالأرض والعمل والحقوق السياسية والاجتماعية.

العزل المكاني Territorial Segregation :

١ ـ تشريع الأرض، ١٩١٣ :

إذا عدنا إلى تشريع الأرض سنة ١٩١٣ الذي تم تمريره بقصد تقسيم المنطقة إلى منطقتين محدَّدتين على أساس عنصري (وطنية وغير وطنية Native and non - native وجدنا أن الأفريقيين قد مُنعوا من الإقامة خارج المناطق المخصصة لهم (المعازل rcserves) إذ لم يكن يسمح لهم بالعيش بعيداً عن المعازل إلَّا إذا كانوا يعملون لدى الأوروبيين.

٢ ـ قانون المناطق الحضرية الوطنية سنة ١٩٢٣ :

كان هذا القانون يهدف إلى السيطرة على الأفريقيين الذين يعيشون ـ بعد السماح لهم ـ في المناطق الحضرية (المدن) وكان أحد أهداف القانون الرئيسية هو ضمان الفصل الكامل بين المناطق الأوروبية والمناطق الأفريقية (السوداء).

ولتخفيف الصعوبات الناشئة عن عدم كفاية الأراضي المخصصة للأفريقيين، صدرت تشريعات تأمين الوطنيين فيما يتعلق بالأرض سنة ١٩٣٦، وكانت هذه القوانين تخوِّل الحكومة السلطة في تقديم ١٥,٣٤٥,٠٠٠ فدان انجليزي (أكر) للأفريقيين بالإضافة للأراضي المخصصة لهم. كما تم إنشاء مؤسسة تأمين الوطنيين The South African Native Trust لتحمل مسؤولية شراء مزيد من الأراضي للأفريقيين. وعلى أية حال، فقد ظل حوالي ٨٧ ٪ من الأراضي في أيدي البيض، الذين يشكلون حوالي ٢٠ ٪ من السكان فقط لذا فقد كان الضغط على الأراضي الأفريقية مستمراً بشكل حاد، وكان يزداد حِدَّة كلما زاد عدد السكان الأفريقيين.

قانون مناطق المجموعات وقانون تسجيل السكان ١٩٥٠ :

The Group Areas Act and the population Registration

في سنة ١٩٥٠ دخلت سياسة الفصل بين البيض وغير البيض مرحلة

جديدة، بصدور قانون مناطق المجموعات. لقد خصص القانون مناطق لكل مجموعة عرقية بحيث لا يمكن شراء أراض أو عقارات ثابتة في خارج هذه المنطقة. كما تم تصنيف الجماعات العرقية في جنوب أفريقيا على النحو التالي: البيض والملونون (المنحدرين من زواج مختلط) والوطنيون. وقد شهد نفس العام تمرير قانون تسجيل السكان، إذ أصبح إجبارياً بمقتضاه على كل شخص أن يحمل بطاقة شخصية يسجل فيها - بالإضافة للبيانات الأخرى - جنْسه (عرقه)، وقد تم تصنيف كثير من الملونين المؤهلين كبيض لقرب لون بشرتهم من البياض، وبذلك تمتعوا بالوضع المميَّز، والمعاملة الأفضل.

العمل: وقد امتدت سياسة الفصل إلى ميدان العمل. وهنا كان الهدف الأساسي هو الإبقاء على المستوى المتدنّي للأفريقيين ليكونوا دائماً قاطعي أخشاب ونازحي مياه، والممارسين للأشغال التي لا تتطلب مهارة، ولا تجلب أجراً عالياً، مع أنها أعمال شاقة. أما الوظائف والأعمال التي تتطلب مهارة، فقد كُرِّس الأوروبيون لها. وذلك ما يطلق عليه سياسة العمل المتحضر Civil-ized Labour Policy.

وفي سنة ١٩١١ صدر قانون المناجم والأشغال The Mines and works Act، وقد حظر هذا القانون تعيين الأفريقيين في المناجم على فئة عمال مهرة، رغم أن التفرقة بين السود والبيض العاملين في المناجم كانت موجودة بالفعل قبل صدور هذا القانون إلّا أن هذا التشريع كرَّسها قانونياً. وعلى هذا تم تطبيق الفصل العنصري في كثير من مجالات العمل. فقانون الحاجز اللوني The Colour Bar Act الصادر سنة ١٩٢٥ قد عدل قانون ١٩١١ إذ قصر بعض وظائف المناجم على الأوروبيين والملونين من أهل الكيب والمولّدين من أهل موريشيوس Mauritius. وقد أصبحت القوانين الصناعية أكثر تعقيداً إذ لم يكن يجوز للبيض وغير البيض أن ينتسبوا إلى منظمات عمّالية واحدة. لقد كانت الحكومة تخشى أن تتحول الحركة النقابية إلى وسائل يستغلها الأفريقيون للمطالبة بحقوقهم السياسية، مما يهدد الحكومة.

فالسماح للبيض وغير البيض وتشجيعهم على تنظيم أنفسهم ومناقشة مطالبهم ومظالمهم، يعد من الأمور المعارضة لسياسة الحكومة المعلنة. فالحركة العمالية يمكنها أن تسبب إرباكات للحكومة. كما أنها مجال لتدريب السياسيين الأفريقيين المعارضين والمتعضين من سياسة الحكومة الرسمية المبنية على التفرقة بين السود والبيض في العمل والأجور والإسكان وما يتعلق بها من تيسيرات، وثمة مثال بارز على هذا من نياسالاند (الآن مالاوي) إذ قام كليمنتس كادالي Clements Kadalie بتأسيس حركة العمال الأفريقيين المقاتلين a militant African Workers movement في سنة ١٩٢٣. وقد قام اتحاد أفريقيا للعمال الصناعيين والتجاريين Industrial and Commerical workers Union of Africa. وقد كسب هذا الاتحاد دعماً وتأييداً من الأفريقيين لمطالبته بتحسين الأجور وبإلغاء القوانين العنصرية. وعلى أية حال ففي سنة ١٩٣١ بدأ الضعف يعتري هذا الحزب بسبب ضعف التنظيم، والصراعات الداخلية ونقص الدعم المالي، وبسبب انقسامه كحركة جماهيرية إلى شقين في الواقع أحدهما عمّالي Trade Union والآخر سياسي، بالإضافة إلى جماعة ثالثة بين بين.

ولأن حكومة جنوب أفريقيا كانت قد قررت شن حرب شاملة ضد الأفريقيين في مجال سوق العمل، لذا فقد أصدرت سنة ١٩٣٧ قانوناً عرف باسم Industrial Conciliation Act لا يجوز بمقتضاه للأفريقيين الانضمام لأية اتحادات عمّالية مسجّلة. وبذا بقي العمال الأفريقيون ضعفاء ومقسمين رغم أنهم كانوا عماد اقتصاد المنطقة. وفي سنة ١٩٥٣ مُنح العمال الأفريقيون بعض المزايا غير ذات الفعالية من خلال قانون (تشريع العمال الوطنيين) Native Labour Act، إذ أوجد هذا القانون جهازاً منفصلاً لحل المنازعات عن طريق العمال الأفريقيين، كما أجاز القانون للعمال الأفريقيين تكوين اتحاداتهم العمالية ولكن هذه الاتحادات كانت عديمة الجدوى لأنها كانت مرتبطة بالحكومة التي كانت تنظمها وتديرها وتشرف عليها. وفي سنة ١٩٥١ دخلت صناعة البناء في زمام سياسة العزل العنصري، إذ صدر في نفس العام قانون عمّال البناء

الوطنيين The Native Building workers Act الذي حظر تعيين العمال الأفريقيين في هذا المجال على فئة عمال مهرة في المناطق الحضرية.

القيود السياسية:

ثم يأتي دور الحقوق السياسية، أو دور إنقاصها أكثر فأكثر. وكان أول تشريع هام يحدث تأثيراً في حقوق الأفريقيين السياسية هو قانون التمثيل النيابي للوطنيين Representation of Natives Act الصادر سنة ١٩٣٦. فمن بين أمور أخرى، نقل هذا القانون الأفريقيين في ولاية الكيب من سجل المصوِّتين (الناخبين) Common Voters Roll إلى سجل مخصص لغير البيض (الوطنيين) Native Voters Roll. لقد أصبح مطلوباً من الأفريقيين الآن أن ينتخبوا ثلاثة من البيض ليمثلونهم في البرلمان انتخاباً منفصلاً، من خلال سجل الناخبين الوطنيين. وبالإضافة لهذا، فإن الأفريقيين في جنوب أفريقيا سُمح لهم بانتخاب أربعة لتمثيلهم في Senate، لكن هؤلاء الأربعة، كالثلاثة في House of Assembly يجب أن يكونوا من الأوروبيين، ويجب أن يتم انتخابهم عن طريق الهيئة الانتخابية electoral Colleges وليس من جمهور الناخبين، كما قرر هذا القانون تأسيس مجلس الناخبين الوطنيين Native Representative Council وكان يتكون من ١٦ عضواً أفريقياً (منهم ١٢ عضواً منتخباً وأربعة معينون) وممثل من وزارة الشؤون الوطنية، وست من المستشارين الوطنيين (من الزعامات الوطنية أو القبلية) وليس لهؤلاء الستة حق التصويت. ولم يكن للمجلس سُلطة حقيقية، وإنما كان رأيه استشارياً محضاً. لقد كان في مقدور هذا المجلس تقديم توصيات في الأمور المتعلقة بالأفريقيين وأن يوجه النصيحة لكن وجهات النظر التي كانت تصدر عنه، كانت لا ينظر إليها عموماً بأي اعتبار، فقد كانت الحكومة تهملها كما أن نقد المجلس للتفرقة العنصرية لم تكن الحكومة لتلقى إليه بالاً. وعلى هذا، ففي سنة ١٩٤٥ انفض هذا المجلس بعد أن وجد أعضاؤه من الأفريقيين أن مطالبتهم بإلغاء القوانين العنصرية لا جدوى منها بل هي عبث لا طائل من ورائه. لقد حُل المجلس نهائياً وأعيد

قانون سلطات البانتو سنة ١٩٥١ Bantu Authorities Act، ففي سنة ١٩٥١ حُذف الملونون أيضاً من سجل الناخبين العام ـ كما حدث بالنسبة للأفريقيين سنة ١٩٣٦ ـ وتم إدراجهم في سجل منفصل. وقد كان هذا نتيجة صدور قانون التمثيل المنفصل للناخبين سنة ١٩٥١ Separate Representation of voters Act (*) الذي خوَّل الناخبين الملونين في انتخاب أربعة من الأوروبيين كممثلين لهم في الجمعية التشريعية House of Assembly. وفي محاولة أخرى لإسكات الأفريقيين الساخطين صدر تشريع آخر سنة ١٩٥٠ وهو تشريع مقاومة الشيوعية Supperession of Communism Act وقد كان تعريف الشيوعية في هذه التشريعات يعني تلطيف العداء العنصري «Promote racial hostility' وكان هذا من أفضل الذرائع التي اتخذتها الحكومة لتوقع تحت طائلة القانون كل أولئك الذين يعارضون ما يمارسه الأوروبيون من ظلم وصلف ممثلاً في التفرقة العنصرية وعدم العدالة بين الأجناس. وكان الهدف الأساسي للتشريع هو مواجهة المؤتمر الأفريقي القومي African National Congress كمنظمة وطنية سياسية كبرى كان قد بدأ تكوينها سنة ١٩١٢. وكان أحد بنود القانون يُخَوِّل وزير العدل السلطة في إدراج أي حزب سياسي أو تجمعات منظمة، في القائمة السوداء. ومن يتم إدراجه في القائمة السوداء لا يجوز له الترشيح للبرلمان أو أن يكون عضواً فيه، ولا في مجالس الولايات أو أي تنظيمات أو هيئات حكومية أو معترف بها من الحكومة. وثمة مادة أخرى من مواد هذا القانون تفوِّض الحاكم العام لمنع أي مطبوعات (بما في ذلك الصحف) يُشَكُّ في تعاطفها مع الشيوعية (كما عرَّفها القانون) ولم يكن هناك أية دعاوى ضد هذه الإجراءات والقرارات الحكومية وكانت تصدر أحكام تصل إلى السجن عشر سنوات لكل من يندرج في سلك المنظمات المحظورة أو يتعامل معها. وعلى هذا ففي سنة ١٩٥٢ عندما بدأ المؤتمر الوطني الأفريقي حركة العصيان المدني ضد التفرقة العنصرية والقوانين الباغية، تم تطبيق قانون مقاومة الشيوعية، الصادر

(*) رفضت المحكمة العليا هذا القانون على أساس بطلان الإجراءات التي اتخذت لاعتماده في البرلمان.

سنة ١٩٥٠، ووضعه موضع التنفيذ وقد اتهم قادة حركة العصيان بالشيوعية، وقُبض على ٨٠٠٠ من أتباعهم. وسوف نعود لقصتهم بعد ذلك.

وقد قوّى من قبضة الحكومة، وأرهب الجميع فيما عدا الشجعان المناهضين للعزل العنصري ـ قانون الأمن العام، والقانون الجنائي المعدِّل له سنة ١٩٥٣. فقد خوَّل قانون الأمن العام، الحاكم العام في إعلان حالة الطوارىء لمدة تصل إلى العام، تتعطَّل خلالها الحريات المدنية تلقائياً. ولقد زاد القانون الجنائي المعدِّل من قيمة الغرامات المفروضة على أولئك الذين ينتسبون إلى حركة العصيان المدني أو يشجعونها، أو ينتسبون إلى أية حركة أو حركات أخرى مماثلة أو يشجعونها.

العزل الاجتماعي، والقيود المفروضة:

ما حدث في المجال السياسي والاقتصادي، حدث أيضاً في المجال الاجتماعي. فقد صدرت التشريعات لتؤكد وتكرِّس العزل العنصري في مجال الأنشطة والاتصالات الاجتماعية. ففي سنة ١٩٤٩ على سبيل المثال صدر قانون يمنع الزواج المختلط Prohibition of Mixed Marriages Act مؤكداً منع الزواج المختلط. وفي العام التالي صدر ملحق لهذا القانون (عرف بقانون الفجور) Immorality Amendment بحظر أي لقاء جنسي (اتصال جنسي Physical love) بين البيض وغير البيض رجالاً ونساء، إذ وصف هذا القانون مثل هذه الاتصالات بأنها «اتصالات شهوانية غير نظامية» Irregular Carnal Intercourse كما فرضت قيود على حركة الأفريقيين كخطوة أخرى في سبيل تحقيق العزل العنصري، ولإخضاع الأفريقيين للمراقبة الفعَّالة. حقيقة لقد وجدت هذه القيود منذ أوائل القرن التاسع عشر، فقد أدخلت بريطانيا هذه القيود في مستعمرة الكيب لضبط تحركات الهوتنتوت، ثم ما لبث الانجليز أن فرضوا هذه القيود على كل الأفريقيين. ورغم أن هذه القيود قد أُلغيت في مستعمرة الكيب بعد ذلك، إلاَّ أن البوير طبقوها وبحزم في جمهورياتهم الجديدة بعد حركة الزحف العظيم (الهجرة الكبرى) وحتى بعد تحقيق الوحدة

سنة ١٩١٠ لم تلغ هذه القيود. وفي سنة ١٩٥٢ عدِّل قانون الوطنيين The Natives Act هذه القيود غير الشائعة والتي تمثل إرهاقاً شديداً، وكانت هذه القيود تعرف اصطلاحاً باسم (Pass Laws) ولكن في نفس الوقت وجدنا هذا القانون يفرض قيوداً أخرى شديدة على الأفريقيين. فأولاً، كان يتحتم على الأفريقيين أن يحصلوا على إذن من مكاتب العمل المحلية قبل مغادرة مناطقهم للالتحاق بأعمالهم في المناطق الحضرية (وليس فقط في حالة البحث عن عمل)، وثانياً، كان الأفريقيون بمجرد تعيينهم، يتم تسجيل عقود خدماتهم، وثالثاً، يتحتم على الأفريقي أن يحصل على إذن عند دخوله المدن (المناطق الحضرية) إذا ما كانت زيارته لها ستستمر لمدة ٧٢ ساعة فأكثر، ورابعاً، على الأفريقي أن يحصل على تصريح إن أراد أن يكون خارج قريته أو موقعه أثناء ساعات حظر التجول، وإلاّ تعرَّض للمحاكمة، وأخيراً، فعلى الأفريقي أن يحمل معه دائماً، سجلاً يضم كل هذه الأذون والتصريحات.

ونتيجة لهذا القانون، أصبح وضع الأفريقيين غير مأمون، وتدنت حرياتهم المدنية إلى الحضيض. فكما قال ماركرد Marquard: «إن أي مسؤول في الشرطة يمكنه في أي وقت أن يطلب الاطلاع على هذه الأوراق (الأذون والتصريحات والبيانات) وفي حالة عدم وجودها مع المواطن فإنه يكون عرضة للغرامة أو السجن. إنه يمكن القول إن عدد المحظورات والأمور التي يمكن توجيه التهمة بسببها للأفريقي، تجعل رجل البوليس قادراً في أي وقت على إدانة أي أفريقي وتوجيه التهم له، مع تأكده ـ أي رجل الشرطة ـ من أنه سيجرِّمه ـ أي سيدينه» (*).

تعليم الأفريقيين وتلقينهم مبادىء بعينها:

لم تسمح الحكومات العنصرية المتعاقبة في جنوب أفريقيا بوضع أية عقبات في طريق سياستها المعلنة المبنية على محاربة حقوق الإنسان، ومبادىء العدالة والمساواة، والكرامة البشرية، فلم تكتف بعزل الأفريقيين وإنما جمَّدتهم

(*) Marquard: OP.Cit.

في أوضاع أبدية، فهم إما عمَّال وإما خدم. ولإعدادهم للقيام بهذا الدور بغير شكوى ولا تبرُّم كان يتحتم تقدم تعليم وأيديولوجية مناسبة لهم، فكان على الأفريقيين أن يتلقوا تعليماً يقنعهم ويؤهلهم لقبول دورهم المتدني في المجتمع، فيجب أن يُعدوا للعيش في مناطق منعزلة. ومن ناحية أخرى كان التعليم الذي يقدمه الإرساليون يشجعهم على تنمية مواهبهم وعلى أن يكملوا الطريق مع الأوروبيين في الأعمال المهنية وغير المهنية. وهنا يكمن التناقض الحاد بين السياسة الرسمية والممارسة العامة (*) فمنذ الاتصال الباكر بين السود والبيض كانت مسألة تعليم السود تثير مشاعر متباينة. فكثير من البيض كانوا يرون أن التعليم الأكاديمي والتدريبات المهنية غير ملائمة للأفريقيين الذين يجب أن يقدم لهم التعليم الزراعي فقط لتأهيلهم نلعيش في معازلهم أو أماكن تجمعاتهم القبلية. أما التعليم الصناعي والنظري فيجب أن يكون قصراً على البيض لضمان الحفاظ على أوضاعهم المتفوقة، لاستمرار سيطرتهم على المنطقة. بل وأكثر من هذا فقد طرح البيض فكرة أن يظل الأفريقيون بدائيين (على الفطرة) لأن التعليم يفسدهم remain natural and uncontaminated by education وفي وقت يرجع إلى سنة ١٩٣٩ كتبت لجنة التعليم الوطني أن معارضة البيض لتعليم السود ما زالت معارضة قوية. فقد كان كثيرون من البيض يعتقدون أن تعليم السود يجعلهم كسولين وعنيدين ومتمردين ولا يصلحون لإنجاز الأعمال اليدوية، وأكثر من هذا، فقد قالوا إن أي نوع من التعليم سيُضعف الثقافة الأفريقية بتوسيع الآفاق أمام الأفريقي بدلاً من تشجيعهم على احترام وتنمية ثقافاتهم المحلية. وفي سنة ١٩٤٩ شكلت لجنة لتقرير المبادىء والأهداف والغايات السليمة لتعليم الأفريقيين. وكان النظام التعليمي الجديد الذي اقترحته اللجنة يهدف لتحقيق هدفين كبيرين. أولهما أنه كان يهدف لتحقيق الحاجات الخاصة للأفريقيين كجنس مستقل وربطهم بماضيهم وحاضرهم بما

(*) لعله خطأ من المؤلف. إذ المقصود هنا التناقض بين السياسة الرسمية والأحاديث النظرية. (المترجم).

يتمشى مع خصائصهم ، وثانيهما، أن النظام التعليمي الجديد كان يحتم التمشي مع السياسة الرسمية المتمثلة في التنمية المنفصلة وإعداد الأفريقيين لأداء دورهم الثانوي والمتدني في المنطقة بمزيد من الكفاءة. وأصدرت اللجنة عدداً من التوصيات دعم معظمها قانون تعليم البانتو الصادر سنة ١٩٥٣ Ban-tu Education Act، وقد نص القانون على أن تعليم الأفريقيين يجب أن يتم باللغة الأم خلال الثمان سنوات الأولى من التعليم، كما نص على أن يمتد التدريس باللغات الأفريقية الأم تدريجياً للمرحلة الثانوية، والكليات التدريبية Training Colleges (*) كما أوصت اللجنة بضرورة تعليم الأفريكان والانجليزية Afrikaans منذ بداية مراحل التعليم، حتى يكون أطفال البانتو قادرين على التعامل مع المجتمع الأوروبي ولتنفيذ البرامج الشفاهية والتحريرية ولمشاركة الأوروبيين أعمالهم ومصالحهم وسائر مجالاتهم» (**).

كما كانت المهارات اليدوية مدرجة ضمن المناهج الدراسية في المدارس الأفريقية.

فكما قال الدكتور Verwoerd الذي كان وزيراً للشؤون الوطنية سنة ١٩٥٣ ـ في البرلمان إن هدف التعليم «هو تدريب وتعليم الناس بما يتمشى مع الفرص المتاحة لهم في الحياة». تلك كانت ـ وفقاً لوجهة النظر الرسمية ـ أكثر الطرق تأكيداً وضماناً للتقليل من أي صراعات واحتكاكات عنصرية قد يسببها الأفريقيون الذين تلقوا تعليماً (خاطئاً)(***) وعلى هذا فإن التعليم الأفريقي يعمل على تهيئة الأفريقيين لمواجهة احتياجاتهم في معازلهم حيث من المفترض أن يؤدي هذا إلى «خدمة حقيقية» وقد أعلن الدكتور Verwoerd أنه على البانتو أن يعدوا أنفسهم لخدمة مجتمعهم فخارج هذا المجتمع لن يجدوا لهم مكاناً بين المجتمع الأوروبي سوى بعض أعمال ذات

(*) قد تكون في مستوى الثانوية العامة أو بعد الثانوية بعامين.

(**) Oxford History of South Africa Vol.II P.225.

(***) غير المخصص لهم. (المترجم)

مستوى معين. لهذا يجب أن يكون تعليمهم وظيفياً Functional بشكل صارم(*) ويستطرد الدكتور Verwoerd قائلاً: «إنه حتى الآن، نجد البنتوى (واحد البانتو) يخضع لنظام المدارس مما يُبْعده بعيداً عن مجتمعه، ويضلله عن طريقه الذي حُدِّد له، حيث يرى المراعى الأوروبية الخضراء، بينما الهدف، ليس رؤيتها، وإنما عليه أن يرعى فيها(**) .

لقد نقل تشريع (قانون) تعليم البانتو مسؤولية تعليمهم الذي كان يقع على عاتق الإرساليات، ليصبح على عاتق الحكومة وحدها، تشرف عليه وتديره. لتكون الحكومة، بناء على هذا هي التي تحدد محتواه وطبيعته وكمّه ونوعه. ولم تشجع الحكومة التحاق الأفريقيين بمؤسسات التعليم العالي في المناطق الحضرية (المدن) وقامت بإنشاء معظم المدارس الثانوية في المناطق الريفية الأفريقية، وفي نفس الوقت تم بناء المدارس الفنية (التقنية أو الحرفية) في المستوطنات (المعازل) الأفريقية لإعداد الأفريقيين لأداء دورهم في المجتمع بطريقة أكثر كفاءة، دون تشجيعهم على منافسة البيض في مجال الأعمال التي تحتاج لمهارة. هذا بالإضافة إلى وجود ما قدره ست مدارس تقنية Technical مخصصة للأفريقيين في المدن، وقد قامت هذه المدارس الست سنة ١٩٦٤ بتدريب حوالي ٣٨٥ تلميذاً. وعلى أية حال، فرغم القيود والعوائق المتعددة، ظهرت بين الأفريقيين، رجالاً ونساء، طبقة من المهنيين، فقد كان من الأفريقيين مدرسون، ومحامون وأطباء وممرضات وتقنيين بالإضافة إلى مِهَن أخرى. ولمتابعة أهداف الحكومة التعليمية، تم إنشاء قسم جديد لتعليم البانتو سنة ١٩٦٦، وكانت مسؤولية هذا القسم الرئيسية هي الدعوة لفكرة البانتوستان وتشجيعها كفكرة نبيلة ومفيدة ومربحة وعملية، وذلك بتشجيع ضيق الأفق والحض على الإقليمية بين الأفريقيين(***) لقد كان النظام التعليمي

(*) أي موظفاً لتحقيق أغراض السياسة العنصرية، ولإعداد الأفريقيين للأعمال المنوطة بهم. (المترجم)

(**) المقصود هو رعى ماشية السادة الأوروبيين (المترجم)

(***) Parochialism and regionalism.

يقدم دراسات عِرْقية ethnic أكثر من تقديمه دراسات تعمِّق الانتماء لجنوب أفريقيا كَكُل. فالجماعات العرقية تُدرس من خلال تراثها وثقافتها وقيمة هذا التراث وتلك الثقافة بمعزل عن بقية القاطنين في المنطقة والمشاركين للجماعة العرقية المدروسة في العيش بمكان واحد. وللوصول إلى أقصى النتائج المحققة للغرض، تم تشجيع استخدام لغات البانتو لتحل محل الانجليزية أو الأفريكان. وبهذه الطريقة تطور الإحساس القبلي والفخر بانتماءات غير وطنية مما ألحق أذىً بليغاً بالوطنية الأفريقية والوعي الأفريقي.

ولقد امتدت سياسة التنمية المنفصلة لتشمل التعليم العالي، وهذا تطور منطقي للعقيدة العنصرية، فما دامت هناك مدارس مختلفة ومقررات ومناهج مختلفة للأجناس المختلفة، فإنه إتماماً لهذا صدر قانون التعليم الجامعي سنة ١٩٥٩ مؤكداً العزل العنصري في زمام التعليم الجامعي، فقرر القانون أنه سيكون هناك ثلاث كليات جامعية للأفريقيين (في المناطق الريفية)، كلية للآسيويين (ذوي الأصول الآسيوية) وأخرى للملوَّنين أما جامعات الناتال، وويتوترسراند والكيب فللبيض فقط، أما إن أراد غير البيض الالتحاق بواحدة منها فلا بُد أن يكون ذلك بإذن من الحكومة ومن الصعب الحصول على مثل هذا التصريح بطبيعة الحال.

وإذا كان التعليم في جنوب أفريقيا قد خُطِّط لإعداد غير البيض لأداء دورهم الثانوي في المجتمع، فإنه أيضاً قد صُمِّم لإعداد البيض لأداء دورهم المميَّز والمهيمن في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمنطقة وعلى هذا فكل الإجراءات التي وضعت العوائق والعراقيل أمام تعليم الأفريقيين، كان لها تأثيرها في تقوية الموقف التنافسي للبيض وهيأت لهم وضعاً مميَّزاً. حقيقة، لقد كان هذا هو الهدف الأساسي لكل التشريعات المتعلقة بالعزل العنصري.

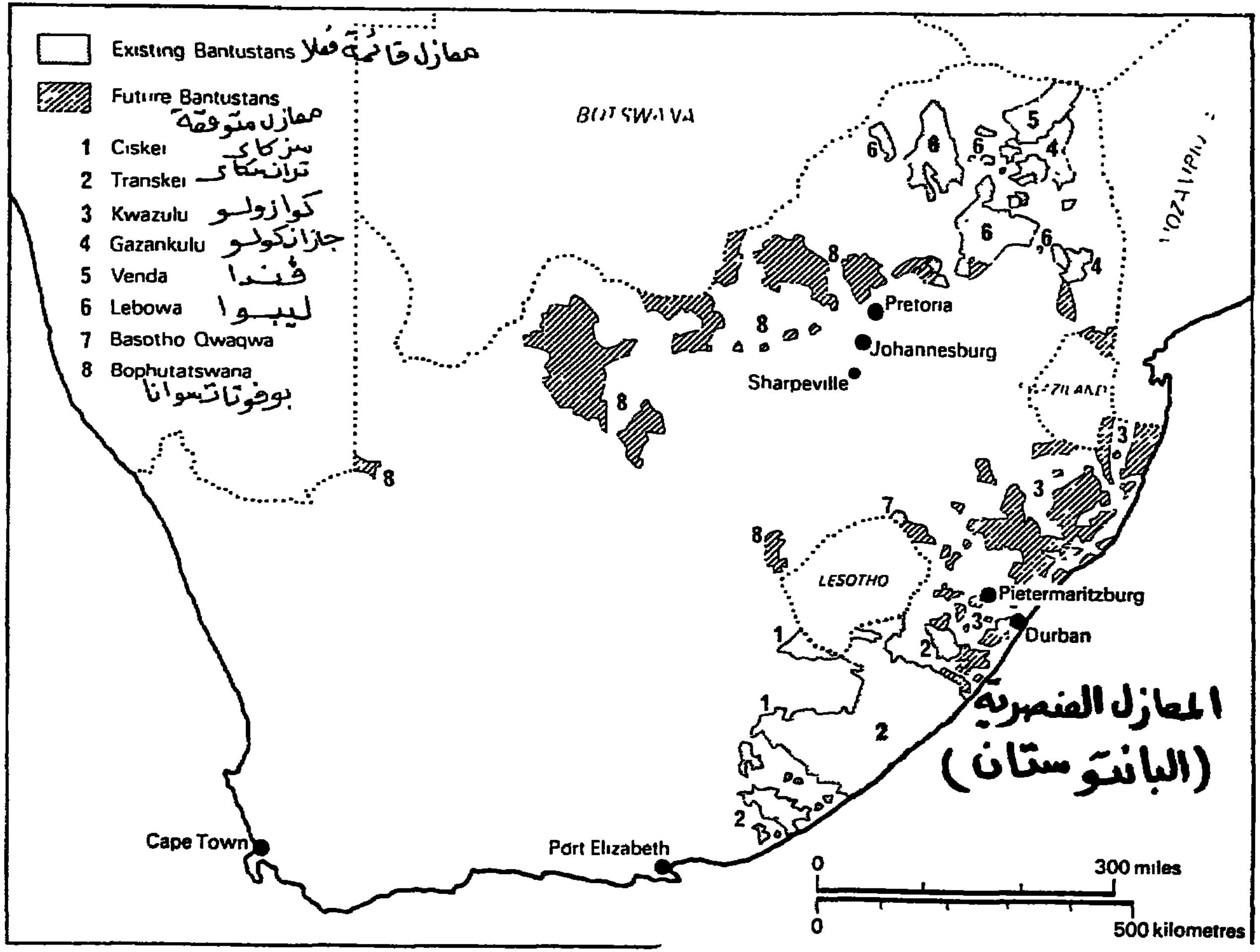
فمنذ سنة ١٩٠٥، وبناء على قانون هيئة مدارس الكيب the cape School Board Act تم فصل المدارس العامة في الكيب على أساس عنصري

ليكون كل من الأفريقيين والملونين والبيض والآسيويين في مدارس خاصة بهم. كما تم إنشاء مدارس عامة لهدف أساسي هو فصل الأطفال البيض عن الأطفال غير البيض، حيث كانوا جميعاً يدرسون سوياً في مدارس إرسالية واحدة، لكن الفصل العنصري امتد إلى المدارس الإرسالية.

وعلى أية حال، فعموماً، كان مستوى التعليم في المنطقة متدنياً، كما أدى إلى مزيد من التنافس بين البيض وغير البيض للحصول على الأعمال وشغل الوظائف. وتلك خيبة كبيرة لسياسة الحكومة التي تهدف للتنمية المنفصلة، وديمومة هيمنة البيض. بل وأكثر من هذا، فإن البيض نتيجة تدني مستوى التعليم كانوا مهددين بأن يكونوا قاطعي أخشاب ونازحي مياه، أمام منافسيهم من الأوروبيين الجُدد الذين قدموا حديثاً من أوروبا بعد أن تلقوا تعليماً جيد المستوى أفضل مما تلقوه هم في جنوب أفريقيا. ولقد كان هذا واضحاً بشكل خاص في أواخر القرن التاسع عشر عندما أدت حركة التصنيع إلى الحاجة الماسة لمن تلقوا تعليماً فنياً (تقنياً) ولمواجهة هذا القصور الخاص، تم تغيير النظام التعليمي للبيض وتم التركيز على التدريبات الزراعية والتعليم التقني في المجالات الصناعية والتجارية. وكان هذا مُهماً ما دامت الأعمال الفنية (التقنية) التي تحتاج لمهارة قد حُجِزَت للبيض فقط. وعلى هذا فإن قانون المِهَن الصادر سنة ١٩٢٢ Apprenticeship Act قد شجع البيض في المناطق الحَضَرية على الالتحاق بالأعمال الصناعية بتلقي التدريبات التقنية الضرورية ولما كانت هذه التدريبات المهنية الصناعية تستغرق حداً أدنى من التعليم مدته ثمان سنوات، قد تم استبعاد الأفريقيين وكثيرين من الملونين والآسيويين. وكما لاحظنا منذ هُنيهة، كان الهدف هو جعل الأغلبية العددية الممثلة في الأفريقيين جاهلة وبالتالي غير قادرة على المنافسة في مجال الأعمال التي تحتاج لمهارة. وقد تحقق هذا إلى حدٍ كبير ففي الفترة من ١٩٢٦ إلى ١٩٤٦ كانت اعداد الطلبة في المدارس المهنية للبيض قد ارتفعت بنسبة ١٥٠ ٪ بينما استمر الأفريقيون يتلقون نوعاً متدني المستوى من التعليم.

البانتوستان:

في بداية هذا الفصل ألمعنا إلى الأبعاد النظرية لعقيدة الفصل العنصري apartheid، لقد قيل إن هذه السياسية تهدف ـ من بين أمور أخرى ـ إلى ما يسمّى بالتنمية المنفصلة، وكما لاحظنا تواً كيف أنه بين سنة ١٩١٣ وأوائل الخمسينات، كان التشريع تلو التشريع يصدر بقصد فصل البيض عن غير البيض، وتخصيص جانب بسيط من الإقليم ليكون معازل للوطنيين. وكانت البانتوستان (بلاد البانتو) هي مناطق الوطنيين، وكان يطلق عليها أحياناً اسم ديار البانتو The Bantu Homelands أو دول البانتو Bantu States. وفي سنة ١٩٥٩ اعتمد البرلمان قانون حكومة البانتو الذاتية - Bantu self Government Bill ووضع موضع التنفيذ في ٣٠ يونيه سنة ١٩٦٠ وتم إلغاء التمثيل الأبيض للأفريقيين في البرلمان (كان في البرلمان نوّاب بيض لتمثيل الأفريقيين، وتم إلغاء هذا). وكان ثمة اقتراح بإنشاء ثمان وحدات وطنية للبانتو 'Bantu National Units'، تسمى بلاد البانتو Bantustans، وكان الهدف الأساسي لهذا التشريع هو تطوير المناطق الأفريقية في ظل الحكم الذاتي للمناطق المخصصة للأفريقيين أو البانتو. لقد كانت الآمال معقودة ـ ولكن بشكل غير واضح ـ على أن يعتمد البانتو على مقدرتهم في تطوير مناطقهم والاعتماد على أنفسهم، ليكونوا ـ في وقت ما لا يمكن تحديده ـ جزءاً من كمنولث جنوب أفريقيا جنباً إلى جنب مع مناطق جنوب أفريقيا البيضاء. وقد عبَّر القانون في نفس الوقت عن أمله فيما إذا أصبح كمنولث جنوب أفريقيا حقيقة واقعة، فإن القيادة والتوجيه ستكونان لجنوب أفريقيا الأبيض، وعلى هذا فدول البانتو الناشئة، ستظل تُحكم وتُدار بواسطة البيض. وعلى هذا فقد غدا مبدأ الفصل والاستقلال، يتسمان بالتشويش والتناقض، إنهما ـ الفصل والاستقلال، على هذا الأساس، قد أصبحا حديث خرافة. إذ لا يمكن أن يكون لكمنولث جنوب أفريقيا المقترح معنى أو أن يحقق نجاحاً، إلاَّ إذا كان للدول الأعضاء فيه حقوق متساوية، وإلاَّ إذا مُثلت الدول الأعضاء فيه بفاعلية وبشكل مباشر في الحكومة المركزية. لقد كان الهدف من إنشاء هذه الدول غير العملية


المعازل العنصرية
(البانتوستان)
Existing Bantustans معازل قائمة فعلا
Future Bantustans معازل متوقعة
1 Ciskei سزكاي
2 Transkei ترانسكاي
3 Kwazulu كوازولو
4 Gazankulu جازانكولو
5 Venda فندا
6 Lebowa ليبوا
7 Basotho Qwaqwa
8 Bophutatswana بوفوتاتسوانا
LESOTHO
Pretoria
Johannesburg
Sharpeville
Pietermaritzburg
Durban
Cape Town
Port Elizabeth
0 300 miles
0 500 kilometres

مزدوجاً، فمن ناحية كان الدكتور فرفور Verwoerd وحكومته ومؤيدوه متمسكين بالاحتفاظ بتفوق البيض وسيطرتهم، وحريصين على استمرار هذا التفوق وتلك السيطرة، وأن هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق أهدافهم، ومن ناحية ثانية، كان الحكم العنصري والبيض في جنوب أفريقيا خائفين من حركة وحدة ممكنة يقوم بها غير البيض، خاصة الأفريقيون. ولضمان تفوق البيض، فقد عملوا على تفتيت وتقسيم الأفريقيين إلى مجموعات عرقية ولغوية منفصلة، وتسمية كل مجموعة عرقية أو لغوية باسم دولة. وبهذه الطريقة لا يعمل الأفريقيون كمجموعة موحدَّة كُبرى، وإنما كوحدات صغيرة منفصلة تطحنها الغيرة، وتختلف مصالحها، فإذا ما ثاروا متفرقين، كان من السهل قمع ثوراتهم تلك. وأكثر من هذا فإن فكرة الدول المنفصلة للأفريقيين، قد راقت لقلّة من الأفريقيين أنفسهم الذين كانوا في صراع وعراك مع بعضهم ، والبعض الآخر، وعلى هذا فإن البيض سيتمكنون بالتالي من وجود بعض الحلفاء ذوي القيمة المعتبرة بين الأفريقيين أنفسهم.

ويجب أن نضيف أن إنشاء دويلات البانتوستان، سَيُسَكِّن ـ كما هو متوقَّع ـ مخاوف العالم الخارجي وامتعاضه إزاء سياسة جنوب أفريقيا العنصرية. لقد افترضت الحكومة أن هذا هو العزل العنصري «الإيجابي»، فقد وهبت في رأيها الأفريقيين المبدأ الهام، وهو حق تقرير المصير Self — determination، وأليس من أجل هذا المبدأ تناضل الشعوب المستعمرة في أفريقيا وآسيا، وكان هذا بطبيعة الحال مجرد واجهة كاذبة لسياسة الحكومة المُعلنة الممثلة في التفرقة العنصرية والعزل العنصري وسيطرة العناصر البيضاء. وفي محاولة لإضفاء صِبْغة العدالة على سياسة «العزل العنصري الإيجابي Positive apartheid» وتبرير إنشاء دويلات البانتوستان، ذكرت الحكومة أن: «حق تقرير المصير، مثل الحرية، كل لا يتجزّأ، فإذا كانت كل الشعوب الأفريقية تطالب بحق تقرير المصير، فإن ذلك أيضاً من حق أمَّة جنوب أفريقيا البيضاء. وفي حالة جنوب أفريقيا ثمة فارق كبير فهل يمكن لشعوب البانتو المستقلة أن تحقق الحكم الذاتي

دون أن تعرّض استقلال الأمة البيضاء للخطر. إن الهدف النهائي هو التعاون بين دول البانتو المستقلة والأمة البيضاء ممثلاً في كمنولث جنوب أفريقيا» (*).

لكن، أسوف يكون للأفريقيين أي رأي أو ثقل حقيقي في الحكومة المركزية لكمنولث جنوب أفريقيا؟ ألن تكون دول البانتو المقترحة صغيرة للغاية بحيث يصعب اعتمادها على نفسها اقتصادياً؟ ألن تقوم هذه الدول على أساس عِرْقي أكثر من قيامها على أساس وطني ، مما يعوق أي نظرة شمولية؟، وأخيراً، ماذا عن المليون ونصف المليون ملوّن؟ وماذا عن الآسيويين الذين يشكلون نصف مليون الذين لا ينتمون لدول البانتو ولا للأمة البيضاء؟ ربما منحوا أيضاً بقاعاً تكون لهم وطناً.

ورغم التذبذب المحيط بكل قضية دول البانتوستان إلا أن الحكومة استمرت في تنفيذ خططها، فكانت دولة الترانسكاي Transkei أول دولة من دول البانتوستان تظهر للوجود، ثم أعقبتها سزكاي Ciskei والكوازولو Kwazulu والفيندا Venda والليبوا Lebowa والجازانكولو Gazankulu والباسوتوكواكوا Bosotho Quaqua والبوفوتاتاتسوانا Buphutatswana. وفي سنة ١٩٥٩ عقد أول اجتماع للسلطة المحلية في ترنسكاي حيث تم تشكيل الحكومة territorial Goverment وكانت السلطة (الحكومة) تتكون من زعماء قبليين Chiefs ومعينين حكوميين وممثلين عن الجماعات الناطقة بلغة الأكزوسا. وكان للسلطة (الحكومة) حق اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالأمور المحلية وأمور الإدارة، لكن كل نشاطاتها وما تصدره من قوانين، لا بد أن يعتمد من حكومة الاتحاد (اتحاد جنوب أفريقيا) وعلى هذا فإن السلطة المحلية مجرد مظهر خارجي، بينما كانت السلطة الحقيقية للحكومة المركزية.

رد الفِعْل الأفريقي إزاء دول البانتوستان:

لقد لخص مؤخراً الزعيم بوثيليزي Gatsha Buthelezi رئيس المجلس

(*) Quoted in R.Oliver and A.atmore, Africa since 1800, Cambridge University Press ,1967.

التنفيذي للزولو، والزعيم الأفريقي المعتدل - الأهداف الرئيسية لنظام البانتوستان، عندما قال:

«أنا أظن أن الأهداف الرئيسية هو أن يكون هذا النظام أداة لتكريس سيطرة الأقلية البيضاء على الشعب الأسود. هذا هو الهدف الأول، أما الهدف الثاني، فيتمثل في أنه ليس هناك دليل على أن هذه الدول (يقصد دول البانتوستان) التي نتصورها في ظل هذا النظام سيكون لها كيانات اقتصادية حقيقية، وبعبارة أخرى إننا لا نتصور أية إمكانات تعينها على النمو الاقتصادي المحتمل، كما أنه - بالنسبة لنا - رغم أننا (يعني السود) ننظر للبيض في جنوب أفريقيا كشعب متوطن*، كالسود المتوطنين في أمريكا، إلاّ أنني أظن أنه من الناحية العاطفية، من غير المنطقي ولا المستساغ بالنسبة لنا كسكان أصليين لجنوب أفريقيا أن نجد الأقلية البيضاء تسيطر علينا أينما وجدنا في أرضنا، وحيث لا نملك أرضاً، وهذا أمر وارد. وما يجعل هذا أمراً كريهاً - بطبيعة الحال - هو فكرة أن تفرض الحكومة هذا النظام - بل إنها حكومة تتبع سياسة الفَرْض والإجبار في كل شيء - وهي حكومة يقوم عليها أناس هم من الأساس غرباء رغم أننا نقول عنهم إنهم أصبحوا متوطنين»(**).

وأكثر من هذا، فقد ناقش بثليزي تلك الدول التي دعاها «بالدول الناشئة Budding states» فذكر أنها ليست أكثر من «مناطق territories «يُخْزَن فيها الأفريقيون ويسيطر عليها الأوروبيون بالقوة المسلحة منذ بداية الصراع بين الأجناس، وعلى هذا فهي ليست دولاً جديدة، لقد كانت دائماً موجودة، تعاني من الفقر، والجهل والإهمال ولا تحاول الحكومة العنصرية إزاحة هذا الفقر وذلك الجهل والإهمال عنها. إن هذه الدول لا تعدو أن تكون هي المناطق التي يعيش فيها الأفريقيون دائماً. وكل ما حدث أن الحكومة العنصرية قد منحت هذه المناطق مظهراً ووضعية خاصة - ولكنه مظهر فارغ ووضعية

(*) يعني أحد شعوب المنطقة (المترجم).

(**) Africa, no 18, February 1973, P'12.

زائفة ـ باعتبارها أوطاناً أو دولاً وطنية «home lands or native states». ولقد كان رد فعل الأفريقيين إزاء تجربة البانتوستان غير حماسي، فلم يستشرهم أحد في ذلك، كما أنهم كانوا معترضين على تعيين الحكومة للزعماء. وفي مايو سنة ١٩٦٠ ثارت اضطرابات خطيرة في بلاد البوندو Pondoland، وكان رد فعل الحكومة حاسماً ومتميزاً بالخشونة، فقد تركت الشرطة تعمل بحرية وعلى نطاق واسع في قمع الثائرين بقسوة، فتم القبض على مئات الناس وتعرضوا للتعذيب وأخيراً أعلنت حالة الطوارىء في منطقة الاضطرابات ولم تتمكن الحكومة من إعادة النظام حتى سنة ١٩٦١ لكن بعد تكاليف ومعاناة بشرية لا تدخل تحت حصر.

ولقد تجلى امتعاض الأفريقيين مرَّة أخرى في أبريل سنة ١٩٦١ عند عقد الاجتماع السنوي لسلطات الترانسكاي Territorial Authority of Transkei، ففي هذا الاجتماع قدَّم المائة والعشرون زعيماً المعيَّنون من قِبَل الحكومة عدداً من المظالم، فقد أعلنوا أنهم لا يحظون بشعبية بين الناس، وأن الإدارة الجديدة مكروهة من الشعب الأسود، وطالبوا بالأسلحة النارية لحماية أنفسهم بل لقد ذهبوا لأبعد من هذا فقدموا حلاً أجمعوا عليه مطالبين الحكومة بمنح الحكم الذاتي للترانسكاي.

وكان هذا اختباراً ممتازاً لجدِّية الحكومة وإخلاصها لقضية البانتوستان، لكن الحكومة وقعت في ورطة، إذ أعلنت للسلطات المحلية في ترانسكاي ببساطة أن الحكم الذي سيمنح للترانسكاي مستقبلاً في أجلٍ غير مسمى نظراً للنقص في عدد العاملين المدنيين في «الدول» الجديدة. وفي نفس الوقت استمرت المناقشات مع الحكومة ونتج عنها دستور جديد للترانسكاي، كانت مواده الرئيسية كالتالي:

١ ـ يتحتم إنشاء جمعية تشريعية من ٦٤ زعيماً معيَّناً و ٤٥ عضواً منتخباً.

٢ ـ تقوم الجمعية التشريعية بانتخاب رئيس الوزراء.

٣ ـ يقوم رئيس الوزراء بتعيين المجلس التنفيذي (تشكيل مجلس الوزراء).

٤ ـ يسهم المجلس التشريعي في الأمور الداخلية، مثل أمور الزراعة، والأمور المتعلقة بالرفاهية الاجتماعية.

٥ ـ تستمر حكومة اتحاد جنوب أفريقيا في إدارة شؤون الدفاع والأمور الخارجية (السياسة الخارجية) والمواصلات العامة والنقل، والهجرة والبريد والتلغراف، والعملة والقروض العامة والجمارك وبعض الجوانب المتعلقة بتطبيق العدالة (القانون).

٦ ـ وبالنسبة للقوانين التي يقرها المجلس (الجمعية) التشريعي، فلا تغدو سارية المفعول إلاَّ إذا اعتمدها رئيس الجمهورية (رئيس جمهورية اتحاد جنوب أفريقيا).

وقد اعتمدت السلطات الإقليمية (المحلية) هذا الدستور الجديد في مايو سنة ١٩٦٣. ولم يكن لهذه السلطات سلطة حقيقية، لكن دول البانتو (البانتوستان) قد وُلدت أو ظهرت للوجود على أية حال، وكوَّن حزب الزعيم قيصر ماتانزيما Kaiser Matanzima الذي تدعمه حكومة اتحاد جنوب أفريقيا، الحكومة وعاد للحكم مرَّة أخرى نتيجة انتخابات جرت سنة ١٩٦٤.

مدى استجابة الأفريقيين للعزل العنصري:

كيف كانت استجابة الأفريقيين لتلك القوانين القاسية وغير الإنسانية التي تحكمهم؟ كيف تصرفوا إزاء انتقاص آدميتهم واستقلالهم؟ كيف تصرفوا إزاء العدالة السليبة؟ وأخيراً، ما هو مستقبل هذه المنطقة الثرية الجميلة (جنوب أفريقيا)؟ تلك بعض الأسئلة والقضايا الهامة التي لا بد من التعرُّض لها، ونحن إذ نتعرض لهذه القضايا سنعود لفترة تكوين الاتحاد.

البوندولاند Pondoland:

لقد لاحظنا لتوِّنا كيف أن شعب البوندو في الترنسكاي لم يتقبل إنشاء الحكومة المحلية Transkei Authority كأول كيان من كيانات البانتوستان. لقد

نشبت اضطرابات واسعة النطاق، مما دفع الحكومة إلى إرسال فِرَق من الجيش والبوليس لفرض القانون والنظام. ومع هذا فقد تتابعت أحداث الثورة، فأحرقت البيوت وقُبض على كثيرين وبلغت الإجراءات المضادة ذروتها بإعلان حالة الطوارىء.

جنوب غرب أفريقيا:

منذ البداية الباكرة للحكم الألماني، شاع الامتعاض بين الأفريقيين في جنوب غرب أفريقيا نظراً لأن الألمان كانوا نَهمين في استيلائهم على مواشي الأفريقيين وأراضيهم. وفي سنة ١٩٠٢ كان الأفريقيون يمتلكون ٤٥,٩١٠ رأساً فقط في مقابل ٤٤,٤٩٠ رأساً يمتلكها الأوروبيون رغم أن الأفريقيين فقدوا حوالي ٩٥ ٪ من قطعانهم في وباء الماشية الذي كان قد حل في المنطقة سنة ١٨٩٧، كما انتقلت ملكية عدد كبير من الماشية التي نجت من الوباء إلى أيدي الأوروبيين بوسائل غير قانونية ولا مرضية. ولقد كانت مقاومة الأفريقيين للحكم الألماني غير فعَّالة ولا منسقة. ومن أبرز الصدامات بين الأفريقيين والألمان تلك التي حدثت في الفترة من ١٨٩٣ إلى ١٨٩٤، والتي قام بها الهوتنتوت بقيادة هندريك وتبوى Hendrik Witbooi والتي انتهت إلى ورطة أو موقف غير حاسم من الطرفين المتنازعين وفي ١٨٩٦ و١٨٩٧ كان زعيماً الهوتنتوت هندريك ويتبوى وصمويل ماهيريرو Mahcrero (إذ كانا حلفاء غير ثابتين للألمان) يقدمون المساعدات للألمان لقمع الثورات المحلية الأخرى. وفي يناير سنة ١٩٠٤ قاد صمويل ماهيريرو شعبه في أشهر حرب، في هذه الحقبة ضد الألمان في جنوب غرب أفريقيا، لقد ظلت هذه الحرب عالقة بذاكرة الناس فترة طويلة أكثر من أي حرب أخرى في المنطقة. لقد كانت هذه هي ثورة الهيريرو الشهيرة التي استمرت أكثر من حقبتين والتي واجهها الألمان بعدوانية، ومعاملة فائقة السوء، وبالعديد من الممارسات والتطبيقات الخاطئة. ومن بين الأسباب المباشرة لهذه الحرب ،، القرار الذي أصدرته الحكومة سنة ١٩٠٣ لإنشاء مستوطنة (معزل) للهيريرو (وهو الأمر الذي نظر إليه الهيريرو كمحاولة

لنقل ملكية أراضيهم)، وقد كان توجيه الحكومة الصادر سنة ١٩٠٣ هو أن يقوم الأفريقيون بدفع ديونهم لتجار الماشية الأوروبيين خلال عام، كما قررت الحكومة إنشاء خط حديدي يمد خلال أراضي الهيريرو. والواقع أن التجار الأوروبيين قد مارسوا ضغوطاً ليتمكنوا من تحصيل الأموال في فترة أقصر مما يتيح القانون كما أدرك الأفريقيون أن تنفيذ الخط الحديدي عبر أراضيهم سيؤدي إلى مصادرة أراضيهم مما يفقدهم مزيداً من الأراضي، وقد استمرت الحرب حتى أغسطس، إذ في هذا الشهر فقط يمكن القول أن الثورة قد دخلت مرحلة الانهيار. وخلال فترة الحرب، وجدنا أنه من بين ١٥,٠٠٠ عسكري أبيض، قُتل ١٠٠٠ وجُرح كثيرون، وفي المقابل فقد كاد الهيرورو يُبادون وفقدوا كل مواشيهم تقريباً. لقد مات حوالي ثلاثة أرباع الهيرورو إما أثناء الحرب أو نتيجة لها، ولم يتبق منهم على قيد الحياة إلا حوالي ١٦٠٠ فقط، وقد قاد صمويل مهيريرو بنفسه القلة الباقية على قيد الحياة إلى بتسوانا Botswana بينما هلك كثيرون في الصحراء . وقد حاول معظم الباقين على قيد الحياة أن يعودوا لبلاد الهيريرو Hereroland، وكأنما لبس لهم هدف إلا أن يقوم الألمان بإفنائهم.

ولا تزال جنوب غرب أفريقيا ـ رغم الاعتراضات المتعددة، ورغم الحلول الكثيرة التي قدمتها الأمم المتحدة ـ تحكمها جمهورية جنوب أفريقيا باعتبارها جزءاً متمماً وتابعاً لها. وجنوب غرب أفريقيا منطقة غنية بالزنك والفضة واليورانيوم والرصاص والماس. وهذا ما يجعلها مغرية في نظر جمهورية جنوب أفريقيا. وحتى لما كان الألمان يقمعون الثورات الأفريقية بقسوة، كانت حكومة جنوب أفريقيا تقمع ثورة قامت سنة ١٩١٩ كان يقودها الملك مانديون Mandune . وفي سنة ١٩٢٢ رفضت مجموعة من الهوتنتوت كانت تسمَّى بوندلسوارت Bondelswarts أن تدفع ضريبة الكلاب dog tax التي فرضتها حكومة جنوب أفريقيا، وقد انتقمت السلطات بقذف كل الثائرين بالبنادق الآلية والقنابل. وفي الحقب التالية (العقود) تم تقسيم جنوب غرب أفريقيا إلى منطقتين، أحدهما للبيض والأخرى لغير البيض. لقد امتدت سياسة البانتوستان إلى هنا، ومنذ سنة ١٩٤٩ كان البيض يمثّلون في برلمان الاتحاد في الكيب. ومنذ

سنة ١٩٦٦ اتخذت الحركة الثورية في جنوب غرب أفريقيا أوضاعاً أكثر تنظيماً رغم أن نجاحها لم يكن باهراً. وفي ٢٥ أغسطس سنة ١٩٦٦، بدأت منظمة شعب جنوب غرب أفريقيا (سوابو) South West African Peoples Organization، بقيادة سام نجونا Nujuna معركة مسلحة ضد حكم البيض. لقد كان هدف سوابو هو تحرير جنوب غرب أفريقيا، ليظهروا شعبها للوجود كأمة جديدة مستقلة تمارس العدالة والحرية وتعطي الإنسان حقوقه وتحافظ على كرامته، ولا زالت معركة سوابو مستمرة.

لقد أثار اتجاه جنوب أفريقيا إلى جنوب غرب أفريقيا كثيراً من السخط والنقد، على أساس أن جمهورية جنوب أفريقيا قد انتهكت حرمة بنود نظام الانتداب الذي خوَّلها حكم جنوب غرب أفريقيا. فقد جَرت مناقشات، كان محورها أن جمهورية جنوب أفريقيا تحكم جنوب غرب أفريقيا بطريقة تناقض تماماً أهداف نظام الانتداب. فالمفروض أن نظام الانتداب يهدف إلى أن تقوم السلطات الحاكمة بحماية مصالح سكان جنوب غرب أفريقيا وتنميتها. وهذا ما لم يحدث، وفي سنة ١٩٦٦ اتخذت محكمة العدل الدولية قراراً غير منصف فيما يتعلق بحق جنوب أفريقيا في إدارة جنوب غرب أفريقيا. وفي يونيه سنة ١٩٧١ حكمت المحكمة بأن جنوب أفريقيا ليست منتدبة لإدارة المنطقة (جنوب غرب أفريقيا) ورغم إدانات الأمم المتحدة المتعاقبة لجنوب أفريقيا، إلاَّ أن الوضع لم يتغيَّر.

المؤتمر الأفريقي القومي The African National Congress:

تعتبر حركة المؤتمر القومي الأفريقي أكبر الحركات القومية في جنوب أفريقيا، وأكثرها شهرة. ورغم أن الحركة م تحقق إلاَّ نجاحاً قليلاً، إلاَّ أنها على المدى البعيد قد درَّبت الأفريقيين في ممارسة أساليب جديدة في نضالهم من أجل الاستقلال. ولا نجد مبرراً للتعرض لتفاصيل هذه الحركة وإنما سنكتفي بعرض موجز لنشاطاتها، ففي هذا كفاية. ففي يناير سنة ١٩١٢، تجمع عدد من الأفريقيين البارزين في بلومفونتين Bloemfontein في دولة الأورانج الحرَّة

وكوَّنوا «المؤتمر الوطني لجنوب أفريقيا» South African Native Congress وفي سنة ١٩٥٣ أعيد تنظيم هذا المؤتمر، وأعيد تسميته فأصبح «المؤتمر الوطني الأفريقي» The African National Congress، وكان من أعضائه محامون وصحافيون ومدرسون وزعماء قبليون. وكان المؤتمر يهدف إلى:

١ ـ إيجاد وتشجيع التفاهم المتبادل في المنطقة.

٢ ـ يجاد التواؤم، وجمع شعب المنطقة على صعيد واحد.

٣ ـ الدفاع عن الحرية وحقوق وامتيازات الشعب. وباعتباره أول تشكيل منظم، فقد اتخذ المؤتمر اتجاهاً معتدلاً ودستورياً إزاء قضايا الأفريقيين، والمنطقة.

وكان المؤتمرون ينظرون لأنفسهم كممثلين للشعب، وكانوا يتقدمون بحلولهم والتماساتهم إلى الحكومة بدون جدوى. ولم يقم المؤتمر بتنظيم الأفريقيين في تشكيلات سياسية، ولم يكن المؤتمرون يتسمون بالديماجوجية، بل كانوا متحملين للمسؤولية يتخذون الوسائل السلمية، إذ كان كل ما يطالبون به هو المشاركة في حكم جنوب أفريقيا. وسرعان ما أصبح هذا الاتجاه الدستوري الحذر، غير مقبول في بعض القطاعات، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها إذ لم يَعُد الجيل الجديد غير متوائم مع القيادة القديمة، وطالب الجيل الجديد بالحل العسكري. وفي سنة ١٩٤٣ شكَّلوا «عصبة الشبيبة Youth League» كمنظمة ملحقة بالمؤتمر القومي الأفريقي. وقد طالبت المنظمة بالفعل وليس مجرد الكلمات والوعود والالتماسات. لقد طالب أعضاء المنظمة بالتحرر الوطني (القومي) وليس مجرد تحقيق العدالة بمعناها البسيط. ورسم الشباب برنامجاً للعمل اعتمده المؤتمر القومي الأفريقي سنة ١٩٤٩ حيث حدد هدف النضال بأنه الاستقلال والتحرر الوطني National Freedom، فقد رفضوا سيطرة البيض والتمييز العنصري والعزل العنصري، وطالبوا بمشاركة أكبر للأفريقيين في مجال التجارة والاقتصاد بشكل عام، كما أوصوا أيضاً بزيادة الاعتمادات المالية المخصصة لتعليم الأفريقيين.

ومنذ سنة ١٩٤٩، عندما تبنى المؤتمر القومي الأفريقي برنامج العمل المشار إليه أصبح حزباً قتالياً سياسياً وقد رفضت الحكومة سياسة هذا الحزب خاصة وقد أصبح الآن يهدد البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي القائم والمعتمد على سيطرة البيض، ولهذا أصبح حزب المؤتمر هدفاً لهجوم الحكومة، وتعرض بالتالي لمضايقات متتالية.

وبسبب ما كان يعتري تنظيمات المؤتمر من ضعف إذا ما قورنت بالإمكانات الحكومية، وبسبب العداء الحكومي التقليدي للحركة، قرر أعضاء حزب المؤتمر أن يتخذوا الوسائل السلمية وسيلة لتحقيق أغراضهم. وفي نفس الوقت عمدت الحركة إلى تعبئة الجماهير وتوعيتهم سياسياً. لقد ساد اعتقاد أن أتباع سياسة العصيان المدني، وتجنب التعاون مع الدولة، والامتناع عن العمل في المجال الصناعي - يمكن أن يؤدي إلى كسب الأفريقيين لمزايا كبيرة من الحكومة نظراً لاعتماد جنوب أفريقية على العمالة الأفريقية. وكان هذا هو الأسلوب الوحيد المتبقي أمام أعضاء حركة المؤتمر. لكن كان للحكومة أفكار أخرى. لقد كانت حركة المؤتمر من وجهة نظر الحكومة تُشكل تهديداً للقيادة والهيمنة الأوروبية لذا يتحتم تضييق الخناق على المنتمين إليها وعلى قادتها. فأصدرت الحكومة عديداً من القوانين لحظر الاجتماعات وتقييد الحركة. فحوصر قادة حزب المؤتمر وأصبحت الاجتماعات السياسية مسألة غير ممكنة. وكانت أكثر القوانين أهمية هو قانون جماعات الشعب الصادر سنة ١٩٥٦ وقانون مكافحة الشيوعية الصادر سنة ١٩٥٠.

لقد أثرت هذه القوانين والإجراءات تأثيراً بعيد المدى في المؤتمر القومي الأفريقي. فقد أغلق الباب أمام قادة هذه الحركة، ولم يعودوا قادرين على المشاركة في نشاطات الحركة، وقيدت حركتهم، فانسحبوا الواحد في إثر الآخر. وفي سنة ١٩٥٢، تم إيقاف البرت جون لوثولي John Luthuli (*) وجُدد الوقف The Ban سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٩ أما السكرتير العام للمؤتمر

(*) منع من ممارسة نشاطه. (المترجم)

والترسيسولو Sisulu فقد أوقف هو أيضاً سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٥٩. وفي الحقيقة كان الوقف في سنة ١٩٥٤ عاماً لأنه في هذا العام منع عدد كبير من قادة هذه الحركة في المناطق المختلفة من ممارسة نشاطاتهم. ومن هؤلاء ج. ل. ز. نجونجوى وهو الرئيس الإقليمي للحركة في منطقة الكيب وكذلك رئيس...
عصبة الشبيبة والسكرتارية الإقليمية للحركة في الكيب والترنسفال والناتال. وبدا تعرّض المؤتمر القومي الأفريقي لتدهور كبير في الفعالية والمعنويات، وأصبحت الحكومة متأكدة من أن الشلل قد ألمّ بقيادة الحركة وأن القادة المجربين قد تركوا المؤتمر ضعيفاً سيء التنظيم. وعلى هذا، فقد زادت المعركة ضراوة في بعض الأماكن القصية، وأصبحت حركة سرية في بعض الأحيان. وبعد سنة ١٩٤٥ وحّدت حركة المؤتمر الوطني الأفريقي قواها مع حركة المؤتمر الهندي Indian Congress وبعد ذلك بسنوات ثمان انضم للحركة، مؤتمر الأوروبيين للديمقراطية European Congress of Democrats ومنظمة الشعب الملوّن Coloured people.s Organization وعندما حُظر نشاط الحزب الشيوعي سنة ١٩٥٠، انضم عدد كبير من أعضائه السابقين لحزب (حركة) المؤتمر الوطني الأفريقي. ورغم أن هذا الحلف لم يمارس نشاطاته كما ينبغي إلاّ أنه شجع الحزب الوطني الأفريقي. وفي سنة ١٩٥٥ أصدرت الحركة ميثاق الحرية Freedom charter، وهو الميثاق الذي كان قد أعده المجلس الوطني لمؤتمر الشعب The National Acting Council of The Congress of People وهو إحدى اللجان المنبثقة عن المؤتمرات (الحركات) المتحالفة.

لقد أصبح الحزب (الحركة) غير متوائم مع الحكومة أكثر من أي وقت مضى، فانشغلت الحكومة بالقبض على قادة هذه الحركة ووضع العراقيل أمامهم، ومحاصرة الحركة والإضعاف من وضعها خاصة بعد إصدار الميثاق.

لقد نص الميثاق ـ من بين ما نص عليه ـ باعتباره وثيقة راديكالية، على ضرورة تطبيق مبادىء حقوق الإنسان، كما طالب بتأميم المناجم والصناعات وإعادة توزيع الأراضي. ومع هذا فقد كان عدد كبير من أعضاء الحزب الوطني

الأفريقي كانوا معارضين للميثاق، فقد نظروا إليه باعتباره ميثاقاً فرضته المؤتمرات (الحركات) الأخرى التي تحالفت مع حركتهم، وهي مؤتمرات (حركات) تضم أجناساً متعددة، وظن هؤلاء الأعضاء المعارضون للميثاق أن هذه المجموعات المتحالفة تحاول صرف نظرهم عن القومية الأفريقية، أو تعديل مفاهيمهم لها وبدلاً من هذا، فهم - أي الأعضاء المعارضون للميثاق - يريدون قيادة أفريقية خالصة واستقلالاً كاملاً. وقد رفض كثيرون من هؤلاء المنشقين (*) أن يشاركوا في الإضراب الذي عرف بإضراب البقاء في المنازل «Stay — at — home» في سنة ١٩٥٨، وهو الإضراب الذي دعا إليه الحزب الوطني الأفريقي، ونتيجة عدم اشتراك المنشقين في الإضراب، فقد قرر الحزب (الحركة) طرد قادة المنشقين من بين صفوف الحركة الوطنية الأفريقية وهما بوتلاكوليبالو Potlako Leballo و ج.م. مادزونيا Madzunya، وفي أبريل سنة ١٩٥٩ شكل هؤلاء المنشقون حركة منافسة عرفت باسم حركة مؤتمر الوحدة الأفريقية Pan — African congress وتزعمه روبرت سوبوكوي Robert Mangaliso Sobukwe وانضم إلى هذه الحركة، أكبر فروع حركة المؤتمر الوطني الأفريقي (وهو ما أشرنا إليه أحياناً باسم الحزب الوطني الأفريقي) ونعني بها حركة أورلاندو Orlando Branch. وقد اتخذت حركة مؤتمر الوحدة الأفريقية أسلوب القتال والنضال العنيف. وفي ظل هذه المتغيرات بدأ حزب (حركة) المؤتمر الوطني الأفريقي يتواءم ويكيِّف نفسه لاستعادة شعبيته والاحتفاظ بأعضائه. وفي مارس سنة ١٩٦٠ نظمت حركة مؤتمر الوحدة الأفريقية مظاهرة ضخمة - ولكنها سلمية - ضد قوانين العبور (المرور) العنصرية. ولقد كانت استجابة الأفريقيين في المدن خاصة، مؤثرة وتدعو للإعجاب، وبالذات في لانجا Langa وشاربفيل Charpeville. وفي كثير من المراكز الحضرية اعترض الأفريقيون على القوانين الظالمة بإعداد مسيرات إلى

(*) ورد اسمهم في النص (Africanists) نظراً لتمسكهم بالقيادة الأفريقية الخالصة، واستقلال السود (الأفريقيين) استقلالاً كاملاً. ومخافة الاختلاط بين المسميات فضلنا لفظ (المنشقين) على الأفريقيين. (المترجم).

مراكز البوليس بدون إذن مرور وذلك لتحطيم (مخالفة) قوانين المرور (العبور) وعلى أية حال فلم يقبض البوليس إلا على عدد بسيط من القادة، أما في شاربفيل، فقد فتح البوليس النار على العزل فقتل ٦٩ وقبض على ١٨٠، وغرف ذلك بمذبحة شاربفيل Sharpeville Massacre، مما دعا حزب (حركة) المؤتمر الوطني الأفريقي إلى إعلان ٢٨ مارس يوم حداد وطني. ومرّة أخرى نذكر أن أثر الإضراب كان جيداً وتوقفت الحياة الصناعية في المنطقة نظراً لأن آلاف العمال الأفريقيين مكثوا في منازلهم، ولم يباشروا أعمالهم في المصانع، فأعلنت الحكومة حالة الطوارىء، وعبّأت القوّات وحظرت الاجتماعات العامة وقبضت وسجنت واحتجزت كثيرين بدون محاكمة. لقد ألقى القبض على حوالي ٢٠,٠٠٠، وعمت المظاهرات الجماهيرية شتى أنحاء الإقليم وكان من بين تلك المظاهرات تلك التي قامت في مدينة الكيب إذ قاد فيليب كجوسانا Kgosana عدداً يتراوح ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ متظاهر. وفي ٨ أبريل حظرت الحكومة نشاط المؤتمر الوطني الأفريقي ونشاط مؤتمر الوحدة الأفريقية.

لكن الحركتين شرعتا في ممارسة العمل السرّي، على أنه من الناحية العملية فإن الحكومة قد قبضت على كل قادة الحركتين أو حجّمتهم. وكان من هؤلاء بعض المشاهير، منهم الزعيم السابق ألبرت لوثولي Luthuli رئيس حركة (حزب) المؤتمر الوطني الأفريقي، وروبرت سوبكوي Sobukwe الذي قاد مظاهرة غير ناجحة إلى جوهانسبرج Johannesburg ونلسون مانديلا Nelson Rolihlala Mandela المدافع الصلب عن الحرية والذي ظل يعمل بشكل سري حتى تم القبض عليه ونفيه وسجنه في جزيرة روبين Robben في سنة ١٩٦٥، وتم القبض على زوجته أيضاً في يوليو سنة ١٩٦٩ واحْتُجزت وأطلق سراحها سنة ١٩٧٠، لكن السلطات عادت فجعلتها رهينة منزلها «Under house arrest».

لقد مات ألبرت جون لوثولي، أما مانديلا والوطنيون الآخرون فلا زالوا

في معسكرات الاحتجاز بدون أي أمل في إطلاق سراحهم . ولكن لجنة التحرر Liberation Committee التابعة لمنظمة الوحدة الأفريقية Organiza-tion of African Unity قد اهتمت بقضية الحرية في جنوب أفريقيا. ولا زالت المعركة مستمرة، ولا زال النضال قائماً على شكل تشكيلات وحركات سرية. ولكي ينجح الوطنيون في جنوب أفريقيا فهم في حاجة إلى المال والسلاح والذخيرة وتدريب القوى العاملة، والنوايا الطيبة للعالم الخارجي. كما يتحتم عليهم أن يتحدوا ويعملوا بجد، فلن يستسلم البيض بسهولة. إنه نضال طبيعي وعسكري. وأخيراً مدَّت جنوب أفريقيا يد الصداقة للدول الأفريقية المجاورة مثل ليسوتو وبوتسوانا وسوازيلاند كما كوَّنت علاقات دبلوماسية مع مالاوي وقد قام الرئيس باندا رئيس مالاوي بزيارة لجنوب أفريقيا في أغسطس ١٩٧١. لكن كل هذا لا يعني بالضرورة تغييراً حاسماً في الصميم، فمجرد الصداقة بين الدول الأفريقية والحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا، لا يعني أن يكون من نتيجتها منح الأفريقيين في جنوب أفريقيا حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والواقع أن تأييد ودعم أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية - يعدان من الفعاليات الهامة - لنجاح قضية الوطنيين، لكن هذا التأييد أمر غير مضمون. فأوروبا الغربية والولايات المتحدة لها استثماراتها المتعددة في جنوب أفريقيا، وتجارتها معها (جنوب أفريقيا) تدر أرباحاً طائلة، فلن تجرأ أوروبا الغربية ولا الولايات المتحدة على إدانة وتجريم حكومة جنوب أفريقيا. فعلى سبيل المثال، في اكتوبر سنة ١٩٧٠، قام رئيس زامبيا كاوندا Kaunda برئاسة وفد من منظمة الوحدة الأفريقية بزيارة عواصم أوروبا الغربية لحث دولها على الامتناع عن بيع الأسلحة لجنوب أفريقيا، وفي الولايات المتحدة لم ينجح الوفد في مقابلة الرئيس الأمريكي نكسون وكان لقاء الوفد مع رئيس الوزراء البريطاني هيث Heath عديم الجدوى. وعلى هذا فقد بات واضحاً أن تحرير جنوب أفريقيا يمكن تحقيقه - فقط - بجهود الأفريقيين في جنوب أفريقيا أنفسهم، إذ يجب أن يتوحدوا وأن ينظموا أنفسهم، ومع هذا فهم بحاجة إلى

دعم مادي من الأمم الأفريقية الأخرى ومن كل الأمم المتعاطفة والصديقة. وإن كان الدعم المعنوي وحده غير كاف. بقي أن نعرف كيف ومتى يكسب الأفريقيون في جنوب أفريقيا معركتهم، رغم أننا نأمل أن يكون هذا بطرق سلمية، وإن كان هذا يعتمد على موقف البيض. ونذكر هنا ما قاله الزعيم بوثيليزي Buthelezi وهو زعيم بلاد الزولو:

«إنني أعتقد أن جنوب أفريقيا لا يمكن إنقاذها إلا بالتفكير الراديكالي. أنا لا أدري كيف يمكن أن يتم ذلك، وهل سيكون بمجرد التفكير العادي، أو من خلال ثورة أو شيء كالثورة. إن إنقاذ المنطقة لن يتأتى إلا بمشاركة كل شعوب المنطقة في ثروته والمشاركة في تقرير مصيرهم ومستقبلهم فكل الجماعات العرقية يجب أن يكون لها نفس الحقوق فيما يتعلق بتحديد مستقبل المنطقة وتسيير أمورها. فكل شعوب المنطقة، بما في ذلك شعبي، يجب أن يأخذوا نصيبهم من ثروات المنطقة، وليس من العدل أن يحتفظ جنس واحد بكل الثروة والسلطة لنفسه» (*) ومن التناقض أن نعلم أن هذا الزعيم كان معروفاً بتأييده لتجربة البانتوستان، ولكنه تحرر من هذا الوهم وانتهى إلى الاعتقاد بأنّ الشعب الذي سيحرر السود، هم السود أنفسهم من خلال تعاملهم مع الوضع القائم في جنوب أفريقيا» وعلى أية حال فإن هذا الزعيم لم يكن قادراً على إخبارنا عن كيفية تحقيق ذلك.

وفي النهاية، نورد هنا كلمات ماندلاً الأخيرة للقضاة الذين أرادوا استدراجه عن إسهامه في القضية (المسألة) الوطنية. لقد قال لهم:

«خلال حياتي، كرّست نفسي لنضال الشعب الأفريقي. لقد حاربت ضد سيطرة البيض كما حاربت أيضاً ضد سيطرة السود، إنني أطالب بمجتمع ديمقراطي حر، يعيش فيه الجميع معاً، وتتاح لهم فرص متساوية، ويعيشون في تآلف in harmony. وإنني آمل أن أعيش من أجل تحقيق هذا الأمل، ولكن

(*) Africa, no.18, February 1973 P.15.

إذا كان من الضروري فإنني مستعد للموت من أجل هذا» (*).

إنها كلمات شجاعة. لقد كان مضمون هذه الكلمات هدفاً مات من أجله كثيرون، ومن أجله لا زال الآلاف في السجون والمعتقلات والمنفى. كيف ومتى يتحقق مضمون كلمات مانديلا؟! في الوضع الحالي، يبدو ذلك أبعد شيء عن الوضوح.

(*) J.C. Anene and G. Brown (eds(Africa in thz nineteenth and twentieth Centuries, Ibadan University Press, 1966.

ثبت بأهم الأحداث التاريخية

١٤٩٧ فاسكو دي جاما يُبحر حول الكيب.
١٥٩٣ البانتو يصلون إلى نهر أومتاتا Umtata.
١٦٠٠ تأسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية.
١٦٠٢ تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية
١٦٥٢ جان فان ريبك يصل لخليج تيبل.
١٦٥٧ المستوطنون البيض الأول يُمنحون الأراضي. وفي هذا العام تم استيراد العبيد من جاوه ومدغشقر.
١٦٧٩ سيمون فان ديرسْتِل يصبح حاكماً Commander في الكاب.
١٦٨٨ الهيجونوت يصلون للكاب.
١٦٩٩ ولم فان دير ستيل يصبح رئيساً للكاب (تم استدعاؤه سنة ١٧٠٧).
١٧١٣ معاهدة أوترخت والنهاية المؤقتة للحروب الأوروبية.
١٧٣٧ الإرسالية المورافية Moravian Brethren تبني محطة إرسالية في Bata-vian,s Kloof.
١٧٨٠ الحدود الشرقية لمستعمرة الكاب تد - إلى نهر فش.
١٧٨٣ مولد شاكا.
١٧٩٤ إفلاس شركة الهند الشرقية الهولندية.
١٧٩٥ الاحتلال البريطاني الأول.
١٨٠٢ صلح إميان: مستعمرة الكاب تنتقل لحكم جمهورية باتافيا.

١٨٠٦ الاحتلال البريطاني الثاني.
١٨١٢ حدود المستعمرة تمتد لتشمل الزوروفلد.
١٨١٥ (تقريباً) موشيش يصبح حاكماً على الباسوتو.
١٨١٦ شاكا يصبح حاكماً للزولو.
١٨١٨ نداندوي بقيادة زويدي تلاقي الهزيمة أمام شاكا. بداية حروب المفيسين.
١٨١٩ الدكتور فيليب يصل للكاب.
١٨٢٠ المستوطنون الانجليز الأول يصلون للكاب.
١٨٢١ مزيليكازي يثور ضد شاكا.
١٨٢٤ جانب من الناتال، يتنازل عنه شاكا للانجليز.
١٨٢٥ (تقريباً وما بعدها) النديبيلي بقيادة شاكا يهاجمون عبر نهر الفال.
١٨٢٦ حدود مستعمرة الكاب تمتد إلى نهر الأورانج.
١٨٢٨ الانجليزية هي اللغة الرسمية/ صدور اللائحة الخمسينية/ موت شاكا في بلاد الزولو/ دنجان يتولى حكم الزولو.
١٨٣٣ تحرير العبيد/ تأسيس محطات (مراكز) تبشيرية جديدة في MariJa و Beersheba.
١٨٣٤ الحرب السادسة من سلسلة حروب الكافير/ الدستور الجديد يبدأ في عهد الحاكم السير بنيامين دربان D,urban.
١٨٣٥ توسعات حدودية أخرى بناء على اقتراحات دربان لكن الحكومة البريطانية رفضت الاعتراف بها/ بدء الزحف العظيم (الهجرة البويرية الكبرى)/ بيت رتيف يطلب أراضٍ من دنجان.
١٨٣٦ الدفعة الثانية والثالثة من الزاحفين البوير تغادر الكاب النداندوي بقيادة زوانجندابا يصلون ما يعرف اليوم باسم مالاوي.
١٨٣٧ البوير بقيادة بوتجيتر Potgieter يهزمون النديبيلي ويهاجرون شمالاً إلى ما يعرف اليوم باسم روديسيا.
١٨٣٨ رتيف يطلب أراضي من دنجان مرة أخرى/ دنجان يلقى هزيمة على يد البوير في معركة نهر الدم.

١٨٤٠ النداندوي بقيادة زوانجنديبي يصلون إلى ما يعرف الآن باسم تنزانيا/ موت سوبهوزا في بلاد السوازي.

١٨٤٢ تأسيس جمهورية الناتال.

١٨٤٥ ضم الناتال لمستعمرة الكاب. مسواتي يمنح البوير مزيداً من أراضي السوازي.

١٨٤٦ موشيش يعقد معاهدة مع بريطانيا لدعمه في صراعه مع البوير.

١٨٤٨ المنطقة الممتدة بين نهري الأورانج والفال ودراكنبرج تلحق بمستعمرة الكاب.

١٨٥٠ الباسوتو يحققون نصراً على البوير.

١٨٥٢ ميثاق نهر الرمال يمنح البوير الحكم الذاتي شمال نهر الفال (جمهورية جنوب أفريقيا)/ بريطانيا تغزو الباسوتولاند/ تعدين النحاس يبدأ في سبرنجبوكفونتين Spring bokfontein.

١٨٥٣ موشيش يهزم مانتاتيز.

١٨٥٤ ميثاق بلومفونتين يمنح الحكم الذاتي للمستوطنين في منطقة نهر الأورانج Orange River Sovereignty.

١٨٥٦ موت شانجان في سوازيلاند.

١٨٥٧ ثلاث جمهوريات بويرية جديدة (ليدنبرج Lydenburg) وأوترخت وزوتباتربرج Zoutpansberg).

١٨٥٨ البوير يهاجمون الباسوتو ويستولون على أراض كثيرة/ اتخاذ خطوات نحو الاتحاد الفدرالي في ظل سير جورج جراي، حاكم المستعمرة.

١٨٥٨ ـ ١٨٦٠ توحيد الترنسفال.

١٨٦٦ البوير يهاجمون الباسوتو مرة أخرى ويستولون على مزيد من الأراضي.

١٨٦٧ اكتشاف الماس في جريكالاند الغربية.

١٨٦٨ موت مزيليكازي، حاكم النديبيلي/ لوبنجولا يخلفه/ باسوتولاند تصبح محمية بريطانية.

١٨٦٩ اكتشاف الماس في كمبرلي.

١٨٧٠ سيسل رودس يصل للكاب.
١٨٧١ جريكالاند الغربية محمية بريطانية.
١٨٧٢ رودس يذهب إلى كمبرلي.
١٨٧٣ سيتيوايو Cetewayo يلقى اعتراف بريطانيا به كحاكم للزولو.
١٨٧٥ موت مسواتي في بلاد السوازي.
١٨٧٦ البيدي بقيادة سيكوكوني يهزمون الترنسفاليين.
١٨٧٧ الزولولاند وجمهورية جنوب أفريقيا تلحقان ببريطانيا.
١٨٧٨ قانون الحفاظ على السلام (لنزع سلاح الأفريقيين).
١٨٧٩ الزولو يهزمون الانجليز في معركة أيزاندهلوانا Isandhlwana.
١٨٨٠ حرب البنادق في الباسوتو/ الحروب الاستقلالية في الترنسفال/ ضم الجريكالاند الغربية لمستعمرة الكاب.
١٨٨١ البوير يهزمون بريطانيا في معركة تلال ماجوبا Majuba ميثاق بريتوريا/ تكوين شركة المناجم التضامنية De Beers Consolidated Mines LTd[١].
١٨٨٣ نفي سيتيوايو/ دينيزولو يخلفه/ تأسيس الألمان. أنجرا بكوينا Angrapequena في جنوب غرب أفريقيا/ انتخاب كروجر رئيساً للترنسفال.
١٨٨٤ اكتشاف الذهب في وتووترسراند.
١٨٨٥ الحاق البتشواناالاند ببريطانيا.
١٨٨٧ افتتاح خط سكك حديد الترنسفال ـ خليج دلجوا.
١٨٩٠ موت مباندزيني في السوازيلاند/ بانو يخلفه/ رودس رئيساً لوزراء الكاب/ روديسيا منطقة بريطانية/.
١٨٩١/١٨٩٢ افتتاح خط سكة حديد (الناتال ـ الترنسفال) خط بريتوريا ـ خليج دلجوا/بريتوريا ـ الكاب/ الكاب ـ راند.
١٨٩٣ شركة جنوب أفريقيا البريطانية تهزم النديبيلي/الهوتنتوت يثورون ضد الحكم الألماني في جنوب غرب أفريقيا.

١٨٩٤ ضم الناتال لدولة الزولو. ضم السوازيلاند للترنسفال.
١٨٩٥ حملة جيمسون/ رودس يتنحى/ خط سكك حديد الراند الناتال يتم افتتاحه.
١٨٩٦ برقية تهنئة من Kaiser في ألمانيا إلى الرئيس كروجر بمناسبة هزيمة حملة جيمسون.
١٨٩٧ ملنر مندوباً سام بريطانيا في الكاب.
١٨٩٩ - ١٩٠٢ الحرب الانجليزية البويرية.
١٨٩٩ (ديسمبر) هزيمة الانجليز في كولنسو وستورمبرج وماجرسفونتاين.
١٩٠٠ (فبراير) احتلال بلومفنتين (يونية) سقوط بريتوريا.
١٩٠٢ سلام فيرينجنج. Vereeniging.
١٩٠٤ ثورة الهيريرو ضد الألمان في جنوب غرب أفريقيا.
١٩٠٥ تكوين حزب Het Volk Party في الترنسفال/ صدور قانون مجلس (هيئة) المدارس في الكاب.
١٩٠٦ الترنسفال لها حكومة ذاتية/ ثورة بامباتا في الزولولاند.
١٩٠٧ مستعمرة نهر الأورانج تُمنح الحكم الذاتي.
١٩٠٨ مناقشة توحيد أربع مستعمرات في مؤتمر بريتوريا.
١٩٠٨ - ١٩٠٩ الميثاق الوطني.
١٩١٠ اعتماد قانون الاتحاد Union/ المستعمرات الأربع تكوّن اتحاد جنوب أفريقيا.
١٩١١ صدور قانون المناجم والأشغال.
١٩١٢ قانون بنك الأراضي/ تأسيس المؤتمر الوطني لجنوب أفريقيا South African National Congress.
١٩١٣ تأسيس الحزب الوطني Nationalist Party/ قانون الهجرة/ قانون الأرض.
١٩١٤ بداية الحرب العالمية الأولى.
١٩١٥ الألمان يُخرجون من جنوب غرب أفريقيا.

١٩١٨ نهاية الحرب العالمية الأولى.
١٩١٩ معاهدة فرساي/ جنوب أفريقيا منطقة تحت الانتداب تديرها جنوب أفريقيا.
١٩٢٢ قانون التعاونيات/ قانون المناطق الحضرية الوطنية Native urban Act.
١٩٢٥ تكوين جهاز تصدير الفاكهة/ قانون حاجز اللون.
١٩٣٣ تكوين الحزب المتحد United Party.
١٩٣٥ إعادة تكوين (المؤتمر الوطني لجنوب أفزيقيا) ليصبح اسمه (المؤتمر الوطني الأفريقي).
١٩٣٦ قانون تمثيل الوطنيين/ إدراج الأفريقيين في سجلات انتخابية منفصلة.
١٩٣٧ قانون التسويق/ قانون تشجيع الصناعة.
١٩٣٩ بداية الحرب العالمية الثانية/ الجنرال سمت Smuts قائداً لقوات الحكومة المتحالفة Coalition/ الجهد الحربي فرض على الجميع.
١٩٤٥ نهاية الحرب العالمية الثانية.
١٩٤٨ الحزب الوطني Nationalist Party يفوز في الانتخابات/ الدكتور مالان Malan يحل محل الجنرال سمت Smuts كرئيس للوزراء.
١٩٤٩ منع الزواج المختلط وصدور قانون بذلك/ المؤتمر الوطني الأفريقي يقر برنامج الشبيبة (عصبة الشبيبة) الذي يقضي بالكفاح العسكري.
١٩٥٠ قانون مكافحة الشيوعية/ قانون تسجيل السكان/ حظر الحزب الشيوعي.
١٩٥١ قانون عمال البناء الوطنيين/ قانون سلطات البانتو/ تسجيل الناخبين الملونين في الكيب في سجلات منفصلة.
١٩٥٢ المؤتمر الوطني الأفريقي يبدأ حركة العصيان المدني/ قوانين المرور Pass Laws/ وقف الزعيم لوثيلي Luthuli.
١٩٣٥ تأسيس الحزب الليبرالي/ تشريع تعليم البانتو/ قانون العمال الوطنيين/ القانون الجنائي (الحاقات) / الحزب الوطني يحقق أغلبية في الانتخابات العامة.

١٩٥٤ وقف وولتر سيسولو مع زعماء آخرين.
١٩٥٥ المؤتمر الوطني الأفريقي يصدر ميثاق الحرية.
١٩٥٦ قانون جمعيات الشغب.
١٩٥٨ الحزب الوطني يحقق مزيداً من الجماهيرية.
١٩٥٩ تأسيس الحزب التقدمي Progressive/ توسيع نطاق التعليم الجامعي/ إعادة تكوين (تشكيل) البانتو ستان.
١٩٦٠ اضطرابات في البوندولاند والترانسكاي/ المؤتمر الوطني الأفريقي ينظم مظاهرات ضد قوانين المرور / مذبحة شاربفيل.
١٩٦١ جمهورية جنوب أفريقيا/ سلطة محلية للترانسكاي (حكم ذاتي).
١٩٦٣ دستور جديد للترانسكاي.
١٩٦٥ نلسون ماندلا يُسجن.
١٩٦٦ اغتيال الدكتور فيروورد رئيس الوزراء/ سوابو تبدأ كفاحها المسلح ضد حكم البيض.
١٩٧٠ رئيس زامبيا (كاوندا) يرأس وفد منظمة الوحدة الأفريقية لمطالبة دول العالم بعدم بيع السلاح لجنوب أفريقيا.
١٩٧١ محكمة العدل الدولية تدين مرة أخرى جنوب أفريقيا باعتبار أنها ليست منتدبة لحكم جنوب غرب أفريقيا. الرئيس باندا رئيس مالاوي يزور جنوب أفريقيا.

قراءات مختارة

Afigbo, A. E., Ayandele, E. A., Gavin, R. J., and Omer - Cooper, J. D., **The Growth of Affrican Civilization: The making of modern Africa,** London: Longman, 1968.

Kiewiet, C. W. De, **Ahistory of South Africa.** Oxford University Press, London, 1966.

Lumb, S. V., **A short history of Central and Southern Africa,** Cambridge University Press, 1969.

Ward, W.E.F., **A history of Africa.** George Allen and Unwin, London, 1960.

Bryant, A. T., **Olden Times in Zululand and Natal,** C. Struik, Cape Town, 1965.

Carter, C. M. (ed.) **Five African States,** Cornell University Press, N. Y., 1963.

Davis, J. A., and Baker, J. K., (ed.), **Southern Africa in Transition,** Praeger, N. Y., 1966.

Hailey, Lord, **An African Survey.** Oxford University Press, London, 1957.

Hafmeyr, J. H., and cope, J. P., **South Africa,** Ernest Benn, London, 1965.

Luthuli, A., **Let my people go.**

Omer - Cooper, J. D., **The Zulu Aftermath,** Longman, London, 1966.

Macmillan, W. M., **Bantu, Boer and Britan,** Oxford University Press, London, 1963.

Marquard, L., **Peoples and Politics of South Africa,** Oxford University Press, London, 1962.

—————————, **The Story of South Africa,** Faber, London, 1966.

Stow, G., **The Native Races of South Africa,** Struik, Cape Town, 1964.
Theal, G. M., **South Africa,** Allen, London, 1894.
Thompson, L. M. (ed.), **African Societies in Southern Africa.** Heinemann, London, 1969.
Walker, E. A., **The Great Trek,** Black, London, 1948.
Webster, J. B., **Leadership in 19 th Century Africa.**
Wilson, M., and Thompson, L. (ed.) **Oxford History of South Africa.** Oxford University Press, London. Vol I (1969) and Vol. II (1971).